

د. كفاح أبو هنود

مكتبة

مَنْهَجِيَّةُ
السَّيْرِ
إِلَى اللَّهِ

عصير
الكتب

مَنْهَجِيَّةُ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: منهجية السير إلى الله ●

● المؤلف: د. كفاح أبو هنود

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: سبتمبر 2024م

● رقم الإيداع: 14073 / 2024م

● الترخيم الدولي: 3-396-992-977-978

مكتبة سر من قرأ



المحتويات



7.....	الإهداء
9.....	المُقَدِّمَة
13.....	الخطوة الأولى: والبدارُ الذي لا يُسقى بماء الطهارة منذ البدء، لا يُنبت!
23.....	الخطوة الثانية: وإنما عافية الصّحائف في ترك المحرّمات!
31.....	الخطوة الثالثة: اربو صحائفك من الحسنات، إنّ الحسنات يذهبن السيئات.
37.....	الخطوة الرابعة: تعلّم جمية الإيمان عبر صناعة المسافات الإيمنة.
45.....	الخطوة الخامسة: اتّق الله، والتّقوى، أن تحمي بساط قلبك من غبار التلوّث.
53.....	الخطوة السادسة: في سفر الآخرة أن نعبد الله كما نريد، لا كما نريد!
	الخطوة السابعة: ﴿وَفَرَضْنَا هَاهُنَا﴾، إذ ما هلاك الناس إلّا في أمرين:
63.....	اشتغالٌ بنافلة، وتضييع فريضة!
71.....	الخطوة الثامنة: وأعظم الفرائض إقامة الصلوة، وليس كلّ مصلٍّ مُقيماً!
77.....	الخطوة التاسعة: احذر خفيّ الافتتان، ولا تنس أن في الحسنات رئيساً ومروّساً.
85.....	الخطوة العاشرة: وتعلم واجب الوقت، وفريضة المرحلة.
91.....	الخطوة الحادية عشرة: إيّاك والمفضول، فإنّ أكمل العبادات ما حاز أكثر أسباب التّفضيل.
99.....	الخطوة الثانية عشرة: وأصلّ القبول، غيب البواطن!
109.....	الخطوة الثالثة عشرة: كرامة القلب أن يظلّ ممّا سوى الله خاليًا.
115.....	الخطوة الرابعة عشرة: إن شئت أسرار التأييد، هذه سبيلك، كي تُدرك كمالك!

- الخطوة الخامسة عشرة: وَإِنَّمَا فَرَادَةَ الْجَزَاءِ لِمَنْ سَدَّدَ سَهَامَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَاسْتَقِم!..... 121
- الخطوة السادسة عشرة: الْخُلُوةُ، مِيقَاتُ الْغُسْلِ لِلنَّفْسِ مِنْ أَدْرَانِهَا..... 127
- الخطوة السابعة عشرة: وَفِي خُلُوتِكَ فَتَشْ عَنْ خَفِيِّ عَيْوَبِكَ..... 137
- الخطوة الثامنة عشرة: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾..... 145
- الخطوة التاسعة عشرة: ثُمَّ أَعْتَقَ نَفْسَكَ مِنْ مَسَاوِيهَا..... 149
- الخطوة العشرون: تَأْدِبُ بِفَقْرِكَ، وَاذْكُرْ يُونُسَ فِي الظُّلُمَاتِ..... 159
- الخطوة الحادية والعشرون: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾..... 163
- الخطوة الثانية والعشرون: احْذِفِ الْعَلَاتِقَ، وَاعْتَزِلْ مَا يُؤْذِيكَ.. تَبْلَغْ مَا تَشَاءُ..... 167
- الخطوة الثالثة والعشرون: الطُّقَاءُ فَوْقَ إِغْرَاءَاتِ الضُّعْفَاءِ، وَفَوْقَ أَعْذَارِ الْعَوَائِقِ!..... 177
- الخطوة الرابعة والعشرون: كُنْ مَتَفَرِّدًا فِي هَمَّتِكَ، فَإِنَّ عِلْوَ الْهِمَمِ، تَخْلُقُ لَكَ حَيَاةً تُشْبِهُكَ!... 183
- الخطوة الخامسة والعشرون: اكْتُبْ خُطَّةَ الْعُمَرِ..... 193
- الخطوة السادسة والعشرون: فَقُهُ انْتِقَاءِ الثُّغُورِ..... 201
- الخطوة السابعة والعشرون: اجْمَعْ كُلَّكَ فِي كُلِّكَ لِثَغْرِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْمَاكِثِينَ عَلَى قَارِعَةِ الْفَرَاغِ.. 209
- الخطوة الثامنة والعشرون: أَنْتَقِنِ ثَغْرَكَ وَكُنْ بِهِ قَدَرَ الْأَمَةِ..... 215
- الخطوة التاسعة والعشرون : اعْرِفْ مَهْمَتَكَ فِي مُعْتَرِكَ التَّغْيِيرِ..... 221
- الخطوة الثلاثون: اصْنَعْ أَوْتَاذَكَ، وَارْتِدِ الثُّبَاتِ..... 229
- الخطوة الحادية والثلاثون: ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾..... 239
- الخطوة الثانية والثلاثون: ادْعُ فَإِنَّ الدُّعَاءَ، هُوَ عِمَارُ الْأَعْمَارِ، وَعِمَارُ الْأَحْوَالِ..... 243
- الخطوة الثالثة والثلاثون: أَنْفِقْ لِلَّهِ فِي سَبِيلِكَ إِلَيْهِ.. وَيَدُ طَابَتْ بِالنَّفَقَةِ لِلَّهِ، اسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ فِي يَدِهَا يَدُ اللَّهِ!..... 249
- الخطوة الرابعة والثلاثون: «أَتَعِبَ قَدَمَيْكَ، فَإِنْ تَعِبَا، قَدَمَاكَ» وَسَارَ الْقَوْمُ عَلَى خُطَاكَ!..... 255
- الخطوة الخامسة والثلاثون: إِيَّاكَ وَفَنَّ الْمُطَاظِلَةِ وَتَرَكْنَ إِلَى وَهْمِ (سَوْفَ)، وَتَتَقَنَّ فَنَّ الْمُطَاظِلَةِ..... 263
- الخطوة السادسة والثلاثون: هَيْبَةُ الْآخِرَةِ لِمَنْ امْتَلَأَ جَدًّا وَاجْتَهَادًا..... 271
- الخطوة السابعة والثلاثون: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾..... 277
- الخطوة الثامنة والثلاثون: اعْثُرْ عَلَى طِمَائِنَةِ الْآخِرَةِ عِبْرَ عَيْشٍ مِنْهَجِيَةِ السَّيْرِ!..... 283
- الخطوة التاسعة والثلاثون: اخْمِلْ نَفْسَكَ إِلَى زَمَنِ الْجِنَازَةِ..... 289
- الخطوة الأربعون: اجْعَلْ عُمرَكَ سَقِيَا الْآخِرَةِ..... 299

الإهداء



إلى غزّة

التي اشتعلت بنيران ثباتها للأمة نوراً
التي صابرت على جمر الصمود حتّى الوصول إلى الغاية

والغاية

ربُّ العزّة

إلى كلّ روح فيها

إليكم أيُّها الصّاعدون جبال الثّبات

الرّابضون على جبهة الصّبر، حفاة عراة من كلّ أسباب ضعفنا!

شاءكم الله لنا قدوة

شاءكم معنى يوسف وفتية الكهف ومُرادِه في الأنفال، والإسراء
يا أسياد المعنى!

وليتّم وجوهكم شطر الله والجَنّة، وليتّم نحو روح الرُّوح، نحو ما لا نرى
تجمعون صمت الرِّباط على الثّبات والدّمع على الدّمع في السُّجود
وثبات الخطو

وتلّمون بقايا ما لم يبقَ، بلا كفن ولا قبر سوى الصّبر

أيُّها السّائرون لأقصى المقامات، من أقصاها خطاكم تمضي
للأقصى

خلّقتُم لأجل زمن هذه اللّحظة

ها نحن نحاول العبور إليكم، عسانا نلحق من سبقَ وما التفت!



مكتبة

t.me/soramnqraa

المُقَدِّمَة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهجية السَّير إلى الله تبارك وتعالى.

أربعون خطوة، أو أربعون قاعدة، أو أربعون مجلسًا، أو ربَّما أربعون ليلة
تمَّ بها الميقات..

وبها ومعها لله نمضي!

يبدو العنوان ثقيلًا على قلبي كي ينجزه، وعبء كبير أن يحاول مدادي أن
يقول كيف هو الطريق إلى الله! أو أن يجيب عن سؤال: هل نحن على الصُّراط
المستقيم؟

ومن أين نبتدئ المسير؟ وما هي غاية التَّدِين؟

ولماذا نبقي عالِقين في الوعود لله، ثُمَّ ننكثها على حين غفلة؟

وعبء على علمي القاصر أن يجيب عن كل هذه الأسئلة وعن سؤال، لماذا،
تتشابه علينا السُّبُل، ونظَّلُ في ارتباكِ الحائرين؟ ولماذا لا نمتلك لحظة
الصَّواب للبدء؟

وهل عجزنا فرادى وجماعات عن استلال خيط البداية؟
وكيف عسانا نستلهم أسباب الثبات، وخطوات الوصول؟

عبء على قلبي أن يستلهم إجابة أسئلة يحار الجيل فيها وهو يتساءل..
هل قدرُ إيماننا أن يبقى بين مدٍّ وجَزَر؟
وقد قال الإمام الطبري:

«وإنَّ من علامات عدم التَّوفيق، البقاء في الطَّريق، من غير وصول إلى المقصود على التَّحقيق».

فكيف نبدأ هَذَا السَّفر إلى الآخرة قبل أن نكون ممَّن تاهت به الطُّرُق!

هل نحن نُعاني وَهَنَ الرُّوح وَعَجَزَ السَّبَّاق؟
وهل يثقلنا الطَّريق؟

وهل ترانا سطرٌ يكتبُ متنه من يشاء كيفما يشاء!

في هذا الكتاب أحاول أن أقدم خطة الطريق، أبتدئ فيها من الطهارة، وأسلك بك إلى فقه مراتب الأعمال، وأنتقل إلى خلوة تُريك تفاضل الموازين ثم إلى خطة للعمر كله تدرك معها ثغرك ومهمتك وغاية وجودك، وأمضي بك إلى الأعمال التي تشد بها أوتادك، وأرشدك إلى الخطى التي هي سقاية الآخرة قبل أن تبلغ زمن الجنازة!

تعال معي فقد قال السَّلف: «مَنْ عَرَفَ غَايَتَهُ، لَمْ يَهْلِكْ»، وَخَيْرُ السَّيْرِ مَا وَافَقَ ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾!

سِرْ إِلَيْهِ بِقَامَتِكَ كُلِّهَا، وَلَا تَمْتَهِنِ الْإِنْحِنَاءَ.

سِرْ إِلَيْهِ بِالْهَرُولَةِ، فَأَنْتَ لَسْتَ خَطْوَةً نَاقِصَةً، وَقُلْ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ

لِتَرْضَى﴾.

وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَهْزِمُهُ يَوْمُهُ، كَدَلَوْ بِئْرٌ لَا يَصِلُ إِلَى مَائِهِ.

وكي تسير إليه لا بد أن تعرف كيف تحذف عادات الرُّق، فلا يتساقط منك لغيره شيء..

ولا تكون غائبًا في أثر يبقى بعدك ولا تفنى به.
وما عَرَفَ نَفْسَهُ وانشَغَلَ بها، إِلَّا عَبْدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَصِيرَةِ سَبَبٌ، ذَاكَ عَبْدٌ فَهَمٌ.
كلُّ هذه المعاني ستجدها وافرة في خطَّة منهجيَّة لرسم رحلة السَّير إلى الله تبارك وتعالى.

لقد وُلِدَ هذا الكتاب كمحاولة لكتابة مدوَّنة في السُّلوك، وخطَّة طريق في السَّفر للأخرة، وخطى موسومة في رحلة السَّائر نحو الله تبارك وتعالى.
أملت فيه أن يكون دليلًا تربويًّا للأجيال والشَّباب وللماضين التَّربويَّة ولطلبة الجامعات وكلِّ الباحثين عن خطى منضبطة بفقه التَّدِين.
أراه خريطة الطَّرِيق، أو قل قناديل مُسرَّجة كلُّ قنديل يزيدك نورًا حتَّى يبلغ بك خاتمة القبول.

هذا الكتاب لا تأخذه دفعة واحدة، بل خذه مجلسًا مجلسًا، وأحيي بالمدارسه منهج السَّلف الصَّالح في تثوير المعاني ونقاشها وحفرها في ذاكرة الفهم.

ولئن بلغ الكتاب أن يكون منهجًا للتَّربية في محاضن التَّوجيه وفي مجالس الشَّباب، فإنِّي أظنُّ ذلك علامة القبول من الله، والله وحده من يرفع ويضع من يشاء وما يشاء كيفما شاء.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْهُ بقبول حسن، واكتب لي به الأثر الصَّالح الممتدَّ إلى يوم الدِّين، واجعل كلَّ صلاح به شاهدًا لي يوم القيامة بين يديك يا أكرم الأكرمين.

وكل الشكر والتقدير لكل المجالس والمحاضرات التي جمعتني بجمهور ظل يسأل عن الطريق حتى كان هذا الكتاب ثمرة ذلك الإلحاح، ومن قبل

ومن بعد كل الحمد والشكر والثناء لله -عز وجل- الذي تولّى القلم بالإعانة والسادات والمزيد، فهذا هو الكتاب الخامس بعد كتب الأربعة؛ كتاب «فقه بناء الإنسان في القرآن»، وكتاب «في صحبة الأسماء الحسنى»، وكتاب «على خطى إبراهيم»، وكتاب «في صحبة الحبيب -صلى الله عليه وسلم-»، والآن كتاب «منهجية السير إلى الله تعالى».

فله الحمد كله وله الفضل من قبل ومن بعد وأسأله أن يجعلها جميعًا عملًا ممتدًا مقبولا.



الخطوة الأولى

والبذار الذي لا يسقى بماء
الظهارة منذ البدء، لا ينبث!



«كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ قَلْبٌ، وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ!
وكَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخَلَ حَضْرَةَ اللَّهِ، وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفْلَاتِهِ!».
اخلع نعلك وطهر المحل..
فَإِنَّ الْبِذَارَ الَّذِي لَا يُسْقَى بِمَاءِ الطَّهَارَةِ مِنْذُ الْبَدءِ، لَا يُنْبِتُ وَلَا يَنْبُتُ!
وَلَا تَسْبِقُ الْأَقْدَامُ إِلَى الْأَعْتَابِ، إِلَّا إِنْ صَفِيَّتِ الْبَوَاطِنُ مِنَ الصَّدَأِ.
إِنَّ الْوَضَاعَةَ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ.
وَالنُّورُ لَا يُسْتَجَلَبُ مِنْ خَارِجِ الْمَشْكَاءِ، النُّورُ يَتَّقِدُ مِنَ الدَّاخلِ.
وَكُلُّ مَنْ اسْتَجَدَى السَّوَاقِي مِنْ خَارِجِ قَلْبِهِ، ذَبُلَ وَهُوَ يَنْتَظِرُ!

فـ «طَهَّرْ قَلْبَكَ مِنَ الْعَيْبِ، يُفْتَحْ لَكَ بَابُ الْغَيْبِ»..
لَأَنَّ نُورَ اللَّهِ لَا يَهْبِطُ إِلَّا فِي الْقُلُوبِ الْمَصْقُولَةِ.
لِذَا قِيلَ: «مَنْ صَفَّى، صُفِّيَ لَهُ»..
حَتَّى يَرَى بِنُورِ اللَّهِ مَا لَا نَرَى!

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدَ خَيْرًا، فَتَحَ عَيْنِيهِ اللَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ، فَأَبْصَرَ بِهِمَا مَا وَعَدَ
بِالْغَيْبِ.

فَانْتَظِرِ الْغَيْبَ بِمَا رَأَيْتَ مِنَ الْغَيْبِ!
وَأَفْهَمِ الْمَعْنَى!

«طَهَّرْ قَلْبَكَ مِنَ الْعَيْبِ، يُفْتَحْ لَكَ بَابُ الْغَيْبِ»..
وَمَا أَوْسَعَ غَيْبِ اللَّهِ!
أَتَرَاهُ غَيْبَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ..

حَتَّى كَأَنَّكَ صَاحِبُ مُوسَى، قَدْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ مِنْ لَدُنْهُ هَبَّةً عُلْيَا!

والله وحده يرى من أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ!
ومَتَى عَزَمْتَ الرُّوحَ، تَهَيَّأتْ لَكَ جَرَارُ الْغَسْلِ، وَإِذَا كَلَّفَ اللَّهُ، أَعَانَ.
فَطَهَّرْ قَلْبَكَ مِنْ ذَبِيبِ الرِّيَاءِ..
مِنْ مَحَمَّدَةِ النَّاسِ..

مِنْ صَوْتِ الْجَمَاهِيرِ فِي عُمُقِكَ، مِنْ عَتَمَةِ الْكَرَاهِيَةِ..
وَمِنْ وَسْوَسةِ الْحَسَدِ..

مِنْ شَهْوَةِ خَفِيَّةٍ، وَمِنْ رَغْبَةِ الْخَطِيئَةِ!

وَقَدْ قَالَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ:

«مَا اسْتَوْدِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ، ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظُّوَاهِرِ!».

والله يُخْرِجُ ذَلِكَ فِي مِحْنَةٍ يَكْشِفُ بِهَا الْمَعَادِنَ!

وَقَدْ قَالَتِ الْعَرَبُ قَدِيمًا: «الْمِحْنُ كَاشِفَاتُ»، وَوَحْدَهَا الْمِحْنُ مِنْ تَخْرُجِ
السَّرَائِرِ!

رَبَّمَا فِي لَحْظَةٍ مَا تَنْبَعُثُ أَلْوَانُ الطَّيْفِ الدَّاخِلِيِّ، وَتَظْهَرُ حَقَائِقُنَا فِي فَلَتَاتِ
اللِّسَانِ، وَفِي حَرَكَةِ الْجَوَارِحِ، وَمَا كَانَ غَيْبًا مَخْبُوءًا فِي السَّرَائِرِ، يَصْبِحُ هُوَ
شَهَادَةً عَلَيْنَا عَبْرَ الظُّوَاهِرِ.

فَفَتِّشْ حَالَكَ الْآنَ..

فَإِنَّمَا يُوَضَّعُ مِنْ مِقْدَارِ الْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ، عَلَى قَدَرِ خَبِيئَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ.

وَإِنَّ الْعَبْدَ يَتَرَدَّى فِي دَاخِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ شَاهِقِ الذَّنْبِ، يَهْوِي فِي
عُمُقِهِ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَجْتَرِحَ الذَّنْبَ.

إِنَّ الذَّنْبَ هُوَ جَنَازَةُ الْقَلْبِ!

وَهَذِهِ الْأَثَامُ أَحْجَارُ الطَّرِيقِ..

فاكْتُبْ على رُمْلِ السَّفَرِ إلى الآخرة، أَنْكَ تَوْقَفْتَ عن مَوْتِكَ في مُمَشَاكَ.
 إِنَّ الذُّنُوبَ انطفَاءٌ كُلُّ خَيْرٍ!
 والبصيرة أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ الذَّنْبَ هو الخُذْلَانُ، وَأَنَّهُ العَتَمَةُ الَّتِي تَلْتَهُمُ التَّوْفِيقَ،
 وتَبْقِيكَ عَارِيًّا في التَّيِّهِ!
 وقد قال السَّلَفُ الصَّالِحُ: «مِنَ الْعُودِ إِلَى الْعُودِ، ثَقُلْتُ ظُهُورَ الْحَطَّابِينَ،
 وَمِنَ الْهَفْوَةِ إِلَى الْهَفْوَةِ، كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْخَطَّائِينَ».
 فافهم عني!

واعلم..

أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ فَقَّهُوا عن الله أَنْ «اجْتِنَابَ السَّيِّئَاتِ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ مِنْ
 كَسْبِ الْحَسَنَاتِ!».
 قال يحيى بن معاذ -رحمه الله-: «لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك
 الذُّنُوبَ».

ترك الدنيا فضيلة، وترك الذُّنُوبَ فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج
 منكم إلى الحسنات والفضائل.
 فَخَفْ ذَنْبًا، يَهْدِمُ حَسَنَاتِكَ.
 وَخَفْ ذَنْبًا، يَبْنِي ذُنُوبَكَ.
 فَإِنَّ لِلذُّنُوبِ دَبِيبًا، لَا يَسْمَعُهُ إِلَّا عَالِمُ السِّرِّ وَأَخْفَى!
 ولها تَبِعَاتٌ خَفِيَّةٌ، تَنْخِرُ الْقَوَاعِدَ! حَتَّى إِذَا خَرَّ السَّقْفُ عَلَى صَاحِبِهِ
 وَسَقَطَتْ مَنَسَاتُهُ، تَلَفَتْ جَزَعًا، فَلَمْ يَجِدْ إِلَّا سُوسَ حَظِيئَتِهِ تَأْكُلُ قُوْتَ أَيَّامِهِ.

إِنَّ الذُّنُوبَ جِرَاحَاتٌ، وَرُبَّ جُرْحٍ وَقَعَ فِي مَقْتَلٍ!
 واليقظة وَرَبِّي أَنْ تفهم مَقُولَةَ عُمَرُ بن عبد العزيز، أَنَّهُ «لَا قَلِيلُ مِنَ الْإِثْمِ».
 فدع قليله وكثيره، فَإِنَّهُ نَجَسٌ!
 وارفَعِ الصَّوْتَ فِي دَاخِلِكَ: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾!

واعلم أنَّ الخطايا تقتفي أثر أصحابها..
وبعض الثُّغرات، تندفع فيها رياحُ العقوبة مدمِّرة..
رياحُ، يشيبُ العمر منها دفعةً واحدة..
تلك الثُّغرات، هي سُومُ العثرات!

وما الذُّنوب واللهِ إلَّا مثل رِيحٍ مِنَ السَّقم..
كلُّما تنفَّسَتْها، فشى فيك الوهن!
وأشدُّ الذُّنوب، ما استخفَّ به صاحبه!
واحفظْ عني: «إِنَّ عَرَجَ الأرواحِ وحدهُ مَنْ يَمْنَعُ الأقدامَ مِنَ الوُصولِ!..
فاحذرِ الذَّنْبَ أَنْ يَكْبُرَ فيك، فتموتَ به ولا تَدري!
احذرِ الذَّنْبَ أَنْ تتشَوَّهَ، أو تتبعثرَ به..
ومِنَ العسيرِ، أن تجدَ من يُلِمُّ بعدَها شَتاتَكَ!
وما يكونُ الخُذلانُ، إلَّا من كَدَرَ الذُّنوبِ.

والذَّنْبُ إذا استوطن قلباً فقد قيَّدَ منه السَّعي!
فتنبَّهْ لآثارِ الذُّنوبِ في خطواتِكَ..
فقد قيلَ: إِنَّ «وقوعَ الذَّنْبِ على القلبِ كوقوعِ الدُّهنِ على الثَّوبِ، إمَّا أَنْ
تُعْجَلَ غَسَلُهُ وإلَّا انبسطَ!..».

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾، فَيَسْتَشْرِي الأذى!
وقد قالها عليٌّ -رضي الله عنه- مُنْذُ زَمَنِ: «تَعَطَّروا بالاستغفارِ، لا
تفضَحْنَكُمْ رَوائحُ الذُّنوبِ!..
فإنَّ أبييْتُمْ، كانتِ الذُّنوبُ ريحاً تَهْزُ العُروشَ..
وربَّما البيوتَ، أو الأرزاقَ، أو العيالَ!

والله إِنَّ لِلذُّنُوبِ شَوْمًا.

وشؤمها حين تعودُ الخطايا لتطلبَ سَدَادَ الدُّيُونِ القديمة، كم ستَكُونُ الضَّرِيبَةُ فادحةً!

تغيبُ، فيظُنُّ العبدُ أَنَّ ثَمَّةَ مَنْ مَحَاهَا، أو أَنَّ النِّسيَانَ قد ألقى بها في غياهِبِ الجُبِّ!

فإذا حرَّكها أو أنُ العِقَابِ، تَذَكَّرُ المسكينُ كلماتِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِيَّاكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»،

كأنما كان هو الذي قَصَدَهُ حينَ قال: «فإنَّها تجتمعُ على العبدِ حتَّى تُهْلِكَه!»
وقديماً قيل: «إِنَّ الحقوقَ لَا تَضِيعُ بالتَّقَادُمِ»، فتخلَّصُ قبل أن تَخْلُصَ إِلَيْكَ تلكَ الآثَامُ العَتِيقَةُ، وقد أَصَابَكَ {الْكِبَرُ}، وجنَّتْكَ لَا تَحْتَمِلُ قولَ الله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾.

التَّوْبَةُ أَوَّلُ خَطَى الطَّرِيقِ

واعْلَمْ أَنَّ التَّوْبَةَ تَرُدُّ عَلَى عِقَالِكَ مَا شَرَّدَ مِنْ حَسَنَاتِكَ.

وتَرُدُّ عَلَيْكَ استغْفَارَ الْأَسْحَارِ، وَدَهْشَةَ الْفَرَحِ إِذْ يُجَابُ الدُّعَاءُ.

وتَرُدُّ عَلَيْكَ لِحَامَ التَّقْوَى، حتَّى تنفِرَ مِنْ مَجَالِسِ الْغِيَّةِ، وتَشُمَّ مِنْ رِيحِ الذُّنُوبِ، مَا لَا يَشُمُّ الْقَوْمُ إِذْ يَخُوضُونَ!

وقد قيل: «إِذَا ذَهَبَ الزُّورُ، دَخَلَ النُّورُ».

فقل: يَا الله هَبْ لِي بِضَاعَةَ غَيْرِ مُزْجَاةٍ، تُبَلِّغْنِي مَقَامَ الْحَالِ فِي الْإِيمَانِ

بِلَا ارْتِحَالٍ!

ونادِ:

يَا أَيُّهَا الطُّهْرُ أَدْرِكْ خُطُوتِي..

وارفع الصوت ﴿وَيَايَاكَ فَطَهِّرْ﴾، مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

صلِّ في أوَّلِ سِيرِكَ رَكَعَتَيِ اسْتَغْفَارِ

صَلِّ صَلَاةَ الْعَائِدِ الْمُنِيبِ..

وَقُلْ:

« يَا رَبُّ إِنِّي أَعُودُ إِلَيْكَ مُعْتَذِرًا، أُمِطِرْ سَجَّادَتِي دَمْعًا فَتَسْقِينِي!
يَا رَبُّ إِنِّي أَعُودُ إِلَيْكَ مُغْتَرِبًا، أَسْرِجْ لَكَ الرُّوحَ أَرْجُو أَلَّا تُطْفِئَهَا! ».

قَدْ غَلَّتِ الْخَطَايَا إِقْبَالِي، وَأَبْقَتْ لِي إِدْبَارِي!

وَرَدَّدَ طَوَالَ سَجُودِكَ:

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَنَا الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ..

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَنَا الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النَّقَمَ..

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَنَا الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النَّعَمَ..

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَنَا الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ..

يَا مَوْلَايَ..

لَا شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الْبُكَاءَ سِوَى الْحَرَمَانِ مِنْكَ

فَاغْفِرْ ذَنْبًا أَغْلَقَ الْبَابَ عَنْكَ!

ثُمَّ أَتْبَعَ التَّوْبَةَ بِصَدَقِ التَّخَلِّي

ابْسُطْ بَيْنَ يَدَيِ الْغُفُورِ ذَاكَرْتُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ

وَتَأَمَّلْ نُكَاتِكَ السَّوْدَاءَ

ثُمَّ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ السَّعْيِ.

وَلَا تَدْعُ مِنْهَا يَوْمَ الْعَرْضِ مَا يُخْجَلُكَ!

وَإِنْ سَلَبَتْكَ ذُنُوبُكَ الْبِدَايَاتِ، فَادْكُرْ مَرَارَةَ النِّهَايَاتِ!

مَرَارَةً أَنْ يَرْمِدَ قَلْبُكَ أَعْوَامًا، فَلَا تُعَالِجُهُ، وَلَوْ رَمَدَتْ عَيْنُكَ يَوْمًا، لَعَجِلْتَ

إِلَيْهَا!

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يَرَى اللَّهُ قَلْبَكَ مُقِيمًا عَلَى بَوَاطِنِ الذُّنُوبِ فَيُخَلِّيكَ اللَّهُ وَمَا

تُرِيدُ، وَيَكِلُكَ إِلَى نَفْسِكَ، ثُمَّ تَفْقَدُهُ عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطَّرِيقِ!

« اِبْدَأْ بِمَا بَدَأَ بِهِ اللَّهُ ».

بهذا أجاب الحارث المحاسبي تلميذه الذي سأله عن أول خطوات السير إلى الله تعالى..

فقال: «ابدأ برعاية حقوق الله في القلب فعنها تكون أعمال الجوارح، فأوقفها حيث أوقفها الله!». .

وربما تكون هاتان الجملتان وحدهما كنز العمر كله لو فقهماهما!
كأنه يقول لتلميذه: اعبده كما يريد هو لا كما تريد أنت يا بني!
ابدأ بحقوق أوجبها، لأنها جذور الفساد، ولن تكون الثمار إلا قطافها!
ابدأ بالتخلية قبل التولية.

واعزم على الترك

إذ بالورع، يقبل الله الحسنات، ويقل العثرات!
وعلى عدد المتروكات لله، يكون إنجاز الخطوات! فابدأ بعهد التخلي عن
بعض ما يثقب لك كيس حسناتك، حينها ستبدأ الترقى!
ارتق ثقوباً، إذا أهملتها، لن يطول زمان حتى تكشف لك سوءاتك!
ابدأ بها قبل أن تبدأ بك!
وبين القيام لله والإتمام حتى رضا الختام، عزيمة المغالبة، ودعاء يشتد
بالحوقة..

تلك تطوي لك بُعد المسافة!
والمسافة إلى المال، أن تموت مستقيماً!
وصموت الخطي في سيره إلى الله، تثني عليه الصّائف..
تراه خفياً في ميدانه، قد انشغل بفقّه طهارته!
عاكفاً على قلبه
لا يزاحم مناكب المستشرقين للإثم، ولا يزاحم!

رجلٌ كَفَّ عن الخطيئة،
وانشغلَ يَغزلُ خُيوطَ النُّورِ، رداءً لقلبه!
ومن استدبر ضيقَ المعصية، استقبل سعة الطَّاعة.

فاجعلِ اللهَ صاحبَ سرِّكَ وخَلُوتِكَ، وخَفَايا عَمَلِكَ، يَكُنْ صاحبَ علانيتِكَ.
اجعلِ اللهَ صاحبَ وحدتكِ، وهجرتكِ ودقائقِ تفاصيلِكَ، يَكُنْ صاحبَ جَمْعِكَ..

و«احفظِ اللهَ، يحفظَكَ، احفظِ اللهَ، تجده تُجاهَكَ».
احفظِ للهَ نهارَكَ، يحفظِ اللهُ لكَ ليلَكَ.
احفظِ للهَ قلبَكَ، يحفظِ اللهُ لكَ غرسَكَ!

وقل يا مولاي:
إنِّي جعلتُ الاعترافَ بالذَّنْبِ وسيلةً لي إليك..
فإن غفرتَ فمن أولى بذلك منك، وإن عاقبتَ فمن أعدل في الحكم منك.
إلهي: أعلم أن لا سبيلَ إليك إلا بفضلك.
ولا انقطاعَ عنكَ إلا بعدلك.
إلهي: كيف أنساكَ وليس لي ربٌّ سواكَ؟
إلهي: لا أقول لا أعود، لا أعود، لأنِّي أعرف من نفسي نقضَ العهود..
لكنِّي أقول: لا أعود، عساني بك أموت على الثُّبَاتِ، فلا أعود.



الخطوة الثانية

مكتبة سر من قرأ

وإنما عافية الضائف في
ترك المحرمات!



فاحذر المحرّمات التي هي امتحان وقتك، إذ لكلّ مرحلة ابتلاؤها وفتنتها.
وما عاش في عافية الصّحائف من نقصانها، إلّا من قهر المَحْرّمات!
ومن لم يتحمّل الألم في طاعة الله، لن ينال الرّاحة في جنّة الله..
إذ تلك المحرّمات عوائق الجِرمَان عن الوصول.
تلك كلّها، متآلف الرُّوح..
فاجتنبها.

وإنّي أوصيك بالحدز..

لا تعبرك الخطايا، فتتّسع على قدر اتّسع الخطى.
ثمّ يؤتى بك وتساءل: «أكان العمر عاقراً، فلا نبت ولا غرس ولا عمل
ممتد؟».

ومن سلمت له حسناته من قصاص الآخرة، فذلك من سلم حصاده من جزّ
المناجل.

وإذا رغبت عند الله المكارم، فاجتنب المحارم، فإنّها نارٌ مسعّرة، وكلّما
زادت، زادوا فوقها الحطب.

ومن أحبّ أن تدوم له العافية في العمر، فليتّق الله فيما حرّم الله.
وقد قيل في حكمة السّلف:

«إذا كان بك داءٌ قديم، فخذ ديناراً حلالاً، واشتر به عسلاً، ترّ العافية في
جسدك!».

فإنّ (بعض الدّاء)، من حرام نبت به لحملك!

الحرام، هو الفوضى التي تُربك كلَّ شيء! يبدو كثيرًا، لكنَّه عاصفةٌ تهبُّ على جذور النِّعم، فتبدِّدها تبديدًا. فلا سَكينة، ولا طمأنينة، ولا عافية، ولا شيء، سوى قلقٍ وعذابٍ مِنْهُك، رغم كلِّ ما يملكون مِنْ أسبابِ النِّعيم!

بَلِ وَاللَّهِ..

إِنَّ المحرِّماتِ لَتَسْلُبُ أصحابها نِعْمَةَ النِّوْمِ الهانئ!

وذلك بعضُ معنى: حَرْبٌ مِنَ اللَّهِ!

وَلِلَّهِ وَحْدَهُ، أدواته الخفيَّة!

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ خلصوا مِنْ شؤمها.

وَمِنْ شؤمها ما قاله أحدُ السَّلَفِ الصالح:

«لا تزال الذُّنوبُ تُزيل النِّعمَ نعمةً نعمةً حتَّى تسلب النِّعمَ كُلَّها».

فما هي المحرِّمات؟

قال أحدُ السَّلَفِ الصالح -رضي الله عنه- في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ

تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا﴾، هو: «كلُّ ذنبٍ توَعَدَ الله صاحبه بغضبٍ أو لعنٍ أو عذاب».

أو «بأنَّه لا يدخل الجنَّةَ، ولا يشمُّ رائحة الجنَّة».

وقيل فيه: «من فعله، فليس منَّا، وإنَّ صاحبه آثم».

فهذه ذنوبُ كُلِّها من كبائر المحرِّمات.

ومثلها عقوق الوالدين، وقطيعة الرَّحم، وشرب الخمر، والظُّلم، والغشُّ،

وأكل الرِّبَا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

فاذكُر..

أَنْ جِمَى اللّٰهَ مَحَارِمَهُ.

وتلك ورقة امتحانك بالغيب!

وما المحرّمات إلا عتمة الباطن، وظلمة الظاهر، وهي خواء الموازين!

تَظَلُّ الْعَتَمَةُ تَكْبُرُ، حَتَّى تَلْتَهُمُ الصُّحُفُ، وَقَدْ كَانَتْ نُكْتًا سَوْدًا!

نُكْتَةٌ نُكْتَةٌ..

حَتَّى صَارَ الْقَلْبُ بِهَا، كُوزًا مَجْنِيًّا!

ثُمَّ تَرَى الْكِبَائِرَ.

تَنْقُضُ غَزَلَ الْعُمُرِ، فَلَا تَرَى النَّسِيجَ إِلَّا مُنْفَرِطًا.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾، فَكَانَ مَالُ الْأَفْعَالِ حُطَامًا!

«وَمَا ابْتَلَى الْعَبْدُ، بِمِثْلِ التَّدْرُجِ فِي سَلْبِ الْإِسْتِقَامَةِ..

فَتَرَاهُ يَنْسَلِخُ مِنْهَا، حَتَّى يُصْبِحَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى مَا يُبْغِضُ اللّٰهُ!».

وَبَعْدَ الْهَزِيمَةِ فِي الْمَسِيرِ، يَفْرَحُ الشَّيْطَانُ بِالْإِسْتِسْلَامِ!

وَإِذَا قُبِدَ الْقَلْبُ عَنِ التَّوْبَةِ، اسْتَسْلَمَتِ الْأَرْكَانُ، ثُمَّ مَا جَتَ بِهِ الْفِتَنُ،

حَتَّى تَرَى الْقَلْبَ يَشْتَدُّ فِيهِ الظُّلْمُ، وَتَلْمَحُ ذَلِكَ فِي قَحِطِ الْعَيْنِ!

وَوَاللّٰهِ لَوْ فَهَقَ الْعَبْدُ، لِأَدْرَكَ أَنَّ شِدَّةَ الْمَنْعِ، أَهْوَنُ مِنْ شَتَاتِ الْقَلْبِ.

وَالْحَيَاةُ الْوَافِرَةُ بِالْمَعَاصِي، يَكُونُ الْخَطْفُ فِيهَا سَرِيعًا!

وَيَا طُولَ التَّعَثُّرِ فِي الْكِبَرِ فِي ذُنُوبٍ نُسِيَتْ فِي الشَّبَابِ!

تَعَلَّمْ مِنْ هِمَّةِ السَّلَفِ فِي قَهْرِ الْمَحْرَمَاتِ..

هَذَا ابْنُ عَوْنٍ يَصْحَبُهُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: «وَاللّٰهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَتَبَتْ عَلَيْهِ

خَطِيئَةً فِي لِسَانِهِ».

هؤلاء قومٌ وهَبُوا اليَقْظَةَ نَبْضَهُمْ، وقَطَّعُوا وريدَ الشَّيْطَانِ فيهِمْ!

ويقولُ آخَرُ:

صَحِبْتُ الرَّبِيعَ بنَ خَيْثَمَ عَشْرِينَ عَامًا، فما سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً تُعَاب، حَتَّى كَانَهُ مَشْهُدٌ تَفَرَّدَ فِي عَشْقِ الطَّهَّارَةِ، حَتَّى أَسَدَلَ بِنَقَائِهِ السُّتَارَ عَلَى سَعْيِ الشَّيْطَانِ!

فَإِنْ سَأَلْتَ، مِنْ أَيْنَ بَدَؤُوا؟

قلتُ لك:

لقد صَحِبُوا اليَقْظَةَ حَتَّى انشَقَّتْ عَنْهُمْ الْعَتَمَةُ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: «لَا يَكُنْ هَمْ أَحَدِكُمْ كَثْرَةُ الْعَمَلِ، وَلَكِنْ إِحْسَانُهُ وَتَزْيِينُهُ لِلَّهِ، إِذْ قَدْ يَصَلِّي الْعَبْدُ وَهُوَ يَعْصِي اللَّهَ!». .

وكانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: «لَأَنْ أَدَعَ الْغَيْبَةَ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا مِنَ الصَّلَاةِ، وَلَأَنْ أَغْضَ بَصْرِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ!». .

إِذْ كَانَتْ اليَقْظَةُ عَلَّمَتْهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ يَسْمُنُ فِي الْخِصْبِ، وَيَهْزُلُ فِي الْجَدْبِ.. فَخِصْبُهُ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَجَدْبُهُ، الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي، وَهَذَا فَهْمُ اليَقْظَةِ!

ومع اليقظة

يَمَّمُوا شَطْرَ قُلُوبِهِمْ أَوَّلًا، وَمَكَّثُوا هُنَاكَ..

يقولُ أَحَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: «حَرَسْتُ قَلْبِي عَشْرِينَ سَنَةً حَتَّى اسْتَقَامَ لِلَّهِ!». .

ثُمَّ مَاذَا؟

ثُمَّ جَاهَدُوا فِي وَزَنِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، فَلَا تَتَلَوَّثُ بِخِيَانَاتٍ يُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ.

تَغْوِصُ رِمَاحُهُ فِي أَعْمَالِنَا، وَتَسْفِكُهَا، وَنَحْنُ نَنْظُرُ أَنَّنا نُحْسِنُ صُنْعًا!

ثم..

شدُّوا قَوْسَ الأَعْمَالِ بأوتارِ الجوابِ، فقالوا:
«والله ما فَعَلْنَا فَعَلًا، إلا أَعَدَدْنَا له جوابًا».
فأَعَدَّ جوابك لأفعالك.

جاء خِيَّاطٌ إلى سفيان الثَّوري -رحمه الله تعالى- فقال: «إني أخيط ثياب
السلطان، أفتراني من أعوان الظَّلمة؟ فقال له سفيان: بل أنت من الظَّلمة
أنفسهم، ولكنَّ أعوان الظَّلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط».

وقال أبو بكر المروزي: «لَمَّا سَجَنَ أحمد بن حنبل جاء السَّجَّانُ فقال له:
يا أبا عبد الله، الحديث الذي روي في الظَّلمة وأعوانهم صحيح؟ قال الإمام
أحمد: نعم، قال السَّجَّانُ: فأنا من أعوان الظَّلمة؟ قال الإمام أحمد: فأعوان
الظَّلمة من يأخذ شعرك، ويغسل ثوبك، ويصلح طعامك، ويبيع ويشترى منك،
فأما أنت، فمن الظَّلمة أنفسهم».

ومن فقه الفقه في المحرَّمات..

قول أحد السلف الصالح: إِنَّ المَوْسُوسَ في الوضوء شخصٌ يسرف
في استخدام الماء، فيلقى الله وهو مرتهنٌ بدينه، وكلُّما أسرف، تعاظم عليه
الدَّين، وعظُم سؤاله يوم الحساب!

اليوم تذكر الدراسات أنَّ البشرية بعد 100 عام، ستكون قد استهلكت كلَّ
موارد الأرض!

وأنَّ الجيل الحاليَّ، قد عبث واستنفد من موارد البيئة ما يعادل عمر
البشريَّة جمعاء!

وهذا فعَلْ ما أَعَدَدْنَا له جوابًا.

«وفي وعينا الدِّينيِّ قلَّما يتبادر إلى مشاعرنا أنَّا نخوض في مساحة
المحرَّم حين نلقي أوساخنا أو بقايا مستهلكاتنا على قارعة الطَّريق..

رَبَّمَا نَلْقِيهَا فِي الْبَحْرِ فنسَمُّ بيئته طعامنا، وندمُّ مصادر غذائنا، ببقايا أدواتنا وعبثنا.

لقد استطعنا حتَّى اللحظة أَنْ ندمر ثلاثين بالمائة من البيئته.. ونستهلك تناوَلًا ورميًا ما يعادل عشرة أجيالٍ مجتمعة، دون أن نفقه أَنَّ هذه البيئته بعض ممَّا استُخلفنا فيه، وأوْتَمَنَّا عليه». وما أراه إلا بغيًا واعتداء كما قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

وَمَنْ راعى الحدود، روعي.

ومن أهمل، ترك.

وكفَى بذلك خذلانًا!

فاستعن بالله على مراده.

«ومن لم يعنه الله، فهو مخذول».

فامْكُثِ اللَّيْلَةَ في اعتكافِكَ، قل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ على كثيرٍ ممَّا أَهْدَرْتُ.. أَسْتَغْفِرُكَ استغفارَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ أَرَدْتَ لَهُ شَأْنًا، لكنَّهُ بِجَهْلِهِ وَعَجْزِهِ اكْتَفَى بِالْعَتْبَةِ دُونَ الدَّارِ!..

ثم مضى، يتساقط في دروبٍ مُبْهِمَةٍ.

هذه سطور عمرك ترتفعُ الصَّحَائِفُ بها، ولا نُورُ يَسْكُنُهَا، كأنَّهَا تُنْبِئُ عَنِ حَالِ الْقَبُولِ يَوْمَ الْحُشْرِ!

كأنَّهَا أُنْبِئُ، ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. حينها..

مَنْ يَمُدُّ أَوْجَاعَ الْقِيَامَةِ بِسَكِينَتِهَا؟

مَنْ يَمُدُّ أَوْجَاعَ الْقِيَامَةِ، بِشِفَائِهَا؟

وَمَنْ يَمُدُّ أَحْزَانَ الْآخِرَةِ، بِأَفْرَاحِهَا؟

وأنتى للموازين عافيتها، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَظَرٌّ﴾.
ذاك يومٌ..

كان له ما قبله من السَّعي في المحرَّمات، وليس له ما بعده!

فيا لله..

كيف يموت الإنسان خاليًا من شوائب الصُّحف؟

كيف يموتُ مُكتمِلًا..

وَسِواه..

كانت الطَّرِيقُ أغلالَ قدميه..

تضيِّقُ عليه، فتزيده وهنًا..

وتنشُبُ قيوده في الخَطَواتِ، فيتعنَّثر بها.

تبتلعُ أنفاسه، فيظلُّ فيها لاهنًا.

تتَّسعُ له، لتُغريه بالمَزِيدِ.

فإذا توغَّلَ، وجدها حُفْرًا!

فلا تمضِ إلى الله فكرةً منهزمةً، وروحك في غربة الخطيئة، ومن بقايا

العتمة تُبعث!

انظر كلَّ ذنبٍ توعدَّ الله عليه، واخلص منه قبل أن يكون هلاكك.

واسأله التَّوبة، فالتَّوبة نور تبصر به مزالق الشَّيطان، فلا تطفئ مصباحك.

إذ «نورُ الله لا يؤتى لعاصٍ»!

فإنَّ كبوتَ مراتٍ ومرَّاتٍ ولا (وكيع) تشكو له سوءَ حفظك، فقل: يا سيدي

لا تدعني لسواك، أنا منك، فأعدني إليك!



الخطوة الثالثة

ارو محائفك من الحسنات، إن
الحسنات يذهب السيات



ارو صحائفك من الحسنات!

وَتَضَلَّعْ من الحسنات، ف ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، تَضَلَّعْ في طهارتك، وإذا انسكب الذنب على القلب، فامحُ بالحسنة! وزاحم الماضي الآثم، بالحاضر الصالح. فإنَّ للصُّحف ذاكرة، فامحُ الماضي بصالح آتٍ! وكُنْ من قومٍ يطفئون حرائق الخطايا، بزمزم الحسنات.

فإن فقّهت، فأسبغ الوضوء على المكاره
ثمَّ اجعل بابك في المحو والوصول، إسباغ الوضوء على المكاره بكثير الحسنات.
وإفاضة الغسل على السّوءات.
وَاغْمُرِ النّجاسة بالطهارة..
فذاك أوّل أبواب الفقه، وقد ابتدأ العلماء كلّ كتبهم الفقهيّة بالطّهارة، واختتموها بالجهاد!
فافقه المُرَاد!

فإن طهّرت المكان، ضمّد جراحك بالدُّعاء.
وقُل:

اللَّهُمَّ اجعلني من المُتَطهرين!
وبركة جهاد الطّهارة، أن تعقبه المسرّة.
وما فَقَدْتَهُ مَنْ وَصَلَ فيما خلا من الأيام، فإنّما هو حال مسلوب.
والمسلوب يُمكن استرداده.

فَتَنَّبَهُ!

ولا يقدر على ذلك، إِلَّا مَنْ أَفْرَغَ الْقَلْبَ مِنْ كَدْرِ الذُّنُوبِ..

وتلك معنى التَّحْلِيَةِ بعد التَّخْلِيَةِ!

فاتبع أَوَّلَ الأَمْرِ آخِرَهُ.

ثُمَّ فَرَّغَ الْمَكَانَ لِلتَّجَلِّيِّ، إِذْ مَا بَعْدَ التَّخْلِيَةِ إِلَّا التَّحْلِيَةُ

وَاصْرِفِ الْعَمْرَ لَهُ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ وَقِفْ عَلَى بَوَابَةِ اللَّهِ، وَانْغِمَسْ فِي نَعِيمِ الْقُرْبِ، وَاجْعَلْ حَسَنَتَكَ

الْآئِيَّةَ، قُرْبَانَ الصَّدَقِ فِي الْحُبِّ، إِنَّ الْحَسَنَةَ تَمْحُو الْبُؤْسَ الَّذِي خَلَّفَتْهُ الذُّنُوبُ!

ثُمَّ اسْتَمَطَرَ فَضْلَهُ بِذِكْرِهِ

اخْلَعْ نَعْلَكَ، وَطُفْ حَوْلَ الْعَرْشِ بِذِكْرِهِ.

وَتَشَبَّثْ بِمَعَاقِدِ الْعَرْشِ بِضِرَاعَةِ قَلْبِكَ.

وَإِبْذُلْ وَقْتَكَ فِي مُجَالَسَةِ رَبِّكَ.

وَأَقْلِلْ الْخَوْضَ فِي الْكَلَامِ.

وَلَا تُفْسِدْ وَقْتَكَ بِزَبْدِ النَّاسِ!

وَانْغِمِرْ فِي يَنَابِيعِ الْحَسَنَاتِ.

وَامْتَلِئْ بِالذِّكْرِ فِي بَاطِنِكَ.

حَتَّى يُدْنِدَنَّ الْمَلَأُ الْأَعْلَى بِاسْمِكَ!

وَتِلْكَ أُولَى عَطَايَا الْفُتُوحَاتِ.

وَبَدَأَ أَزْمَانَ الْمَدَدِ الْكَرِيمِ.

وَبَرَكَةُ لَا تَعْوُضُ.

هَذَا حَالُ قَدَرِهِ الْخَزَائِنِ الْمَفْتُوحَةِ مِنَ التَّوْفِيقِ، وَالْمَعْيَةِ، وَالْوَصْلِ!

حَالٌ تَرَى فِيهِ وَفْرَةَ السَّعَةِ..

وَتَجَلَّى اللَّطْفُ..

وَالْتَّشَافِي مِنْ كَدْرِ الذُّنُوبِ!

اسمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».

ثم أنصت له وهو يقول: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

ثم هو يزيديك، فَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيَكْتُبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ».

ثم هو يغرف لك الفضل بقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَانَ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، سَائِرَ يَوْمِهِ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا أَتَى بِهِ، إِلَّا مِنْ قَالَ أَكْثَرَ».

هي إذن، فاذكروني، أذكركم

{ فاذكروني } بالتذلل، { أذكركم } بالتفضل!

{ فاذكروني } بالتعظيم، { أذكركم } بالتكريم!

{ فاذكروني } بترك الأخطاء، { أذكركم } بأنواع العطاء!

أنواع العطاء في جنان تنمو فيها الحسنات، مثل زنابق في روابي أكمل من خيال الوصف.

تفتح يدك للذكر، فتنتفتح فيهما جنتان.

ويغزل لك الذكر عباءة العز عند المليك، ويصهل المجد في معطفك!

ألف تسبيحةٍ أو ألفان.

ألف تهليلة أو ألفان، تُعشَّب دهور الفردوس بهما!

ويشهد العُشب، أنه اعتراه المَطَر من فَم ذاكِرٍ يعبر الأرض، وشفّاه
تهمسان بالشَّوق للأجرِ المُدَّخر!

والذكر من أعظم الحسنات وأسهل الطَّاعات، ولا يوفَّق لها إلَّا قليلٌ من قليل!

وإنَّ الله يُخلِّصُ لكم من برِّه، بحسَب ما خلَّصَ إلى قلوبِكُم من ذِكْرِهِ!

قال يحيى بن معاذ -رحمه الله-: «كم من مستغفرٍ ممقوت، وساكتٍ
مرحوم!» ثم قال: «هذا استغفر الله وقلبه فاجر، وهذا سكت وقلبه ذاكِر».

فإن كنتَ تشْتَاقُ إلى تَوْهُّجِ الرُّوح، إلى عُرْسِ أزلِّي مشهودٍ في الفردوسِ
الأعلى، فاعمرْ قلبك بذكْرِهِ..

فهو القائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

يا لله هنا آيةٌ، هنا وَعْدُ إلهيٍّ، هنا سرُّ انفتاحِ جهاتِ الكونِ وبواباتِ العبورِ
للخلودِ.

هنا حُقُولُ القَمْحِ، تَظَلُّ إيمانًا لك يُثْمِرُ.

هنا الله يذكُرُ اسمَكَ!

ويا لله بعدها..

كيف يَشُعُّ النُّورُ من عُمِيقِكَ!

ويا لله..

كيف يَغِيبُ الحزنُ عن عمرك!

ويا لله..

كيف يُطِلُّ الخيرُ في وجهك!

والله لو سَمِعْتَ صَرِيرَ الأقلامِ في المَلَأِ الأعلى وهي تكتبُ اسمَكَ عندَ

ذِكْرِكَ لله، لَطِرْتُ فرحًا!

أرو صحائفك من الحسنات، إِنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ، اجعلها شعارك
وكُلِّمًا اجتهدَ العبد في غَسَلِ الزَّانِ بالحسنات، فاض المولى عليه بِسُقيا
القلب، رحمةً منه وإحسانًا.

وتلك أَوَّلُ الطَّرِيقِ إلى مقام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾!
وإنَّما يملك القلبُ أربه، إذا تيقَّن أنَّ «الدُّنيا ما هي إِلَّا نَفْسٌ من أنفاسِ الآخرة»،
فاجعل خطواتك مضبوطة على إيقاع الآخرة، كأنَّك «تعيشُ الدُّنيا بمذاقِ الآخرة»!

ووالله إِنَّهُ «ما مِنْ طَاعَةٍ يَأْتِي بِهَا الطَّالِبُ عَلَى وَجْهِهَا إِلَّا أَحدثَتْ فِي قلبه
نُورًا، وَكُلَّمَا كَثُرَتْ الطَّاعَاتُ، تراكمتِ الأنوارُ حتَّى يصيرَ المطيعُ إلى درجاتِ
العارفين الأبرار».

وافقه معنى الحسنة..

إذ وصفها القرآن بـ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وهذا تَفَرُّدٌ قرآنيٌّ عجيب.
حيث اشتُقَّت الحسنة من الإصلاح! وبها يصبح كلُّ فعلٍ يزيل الفساد، حسنة!
وما عدا ذلك، فهو فساد أي {سَيِّئَةٌ} بالمفهوم الشرعي!
لذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، مسميًا الحقائق
بأسمائها!

ولقد وعى أحدهم هذا المعنى فظل يدعو الله أن يميته على عمل صالح
فقبضه الله وهو يُدرِّس طلابه! فمضى إلى الله وبيده محبرة ورقة، وبضعة
طلبة كانوا يصغون إلى درسه، وكان ذلك بعضًا من مفهوم العمل الصالح.

فإن وعيت، فإياك ثم إياك أن تقطع الدُّنيا عابر طريق، وقد شاءها الله لك
غنيمة الآخرة..

فإنَّ المواجه الحَقَّةَ، في خسارة مَوْضِعٍ سَوِطٍ فيها.
«لَمَوْضِعٍ سَوِطٍ مِنَ الْجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها».

الخطوة الرَّابِعة

تعلم جمية الإيمان عبر
صناعة المسافات الآمنة



وهذا فقهٌ نبويٌّ في التَّزْكِيَةِ..

وما أوَّلُ الوَهْنِ الثَّقِيلِ، إِلَّا فِي مُقَارِبَةِ المَكْرُوهِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ بَعْدَ الوَهْنِ، إِلَّا حَرَامًا يَتَرَبَّصُ بِكَ!

كَأَنَّمَا المَكْرُوهُ يَسْرِي بِكَ إِلَى جَمْرِ الذُّنُوبِ، حَتَّى يَرْمِدَ الْقَلْبُ، فَلَا يَدْرِي كَيْفَ بَلَغَهُ كُلُّ هَذَا الظَّمَا!

وَقَدْ كَانَ الْبَدءُ، ظَلَامَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُبَاعَدَةِ.
ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَهَا مَهْلَكَةُ الْوَحْلِ، فَلَا تَرَى الْجَوَارِحَ إِلَّا خَائِضَةً!

لِذَا تَعَلَّمْ جَمِيَّةَ الْإِيمَانِ
اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَرَامِ حَاجِزًا مِنَ الْحَلَالِ، وَدَعْ عَنْكَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْإِثْمِ.
وَاعْلَمْ..
أَنَّهُ إِذَا غَرِقَ الْقَلْبُ فِي التَّوَسُّعِ فِي الْحَلَالِ، أَظْلَمَ، فَكَيْفَ بِهِ إِنْ غَرِقَ فِي الشُّبُهَاتِ وَالْآثَامِ!

وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْجَمَى، أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ!
و«مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ!».

وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيلٌ..
لِلْمُسْتَحِلِّينَ الْحُرَمَاتِ بِالشُّبُهَاتِ.

فَإِنَّ «مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ».

وقد قيل:

«مَنْ أَرَهَقَ دِينَهُ فِي الْمُشْتَبِهَاتِ، قَارَبَ الْحَرَامَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

وهذا هو فقه الْمَسَافَاتِ الْأَمْنَةِ الَّتِي أَسَمَاهَا النَّبِيُّ ﷺ: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ».

فلا تقربوها!

إِذْ بَيْنَ الْمَسَافَاتِ الْأَمْنَةِ وَشَعَثِ الْمَسَافَاتِ، حُدُودُ اللَّهِ.

وَفَقْدَ الْمَسَافَاتِ، هُوَ بَدْءُ الْهَوَّةِ الْفَاغِرَةِ!

وَقَدْ قَالَهَا السَّلَفُ:

«لَنْ تَصِلَ، حَتَّى تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ حَائِطًا مِنْ حَدِيدٍ».

إِذَا بَدَأَ الْمَكْرُوهَ بِحَفْرِ التَّفَاصِيلِ، لِقَبُولِ الْحَرَامِ.

وَإِذَا امْتَلَأَ الطَّرِيقَ مِنْ ثَمٍّ بِالْمَكْرُوهَاتِ، عَسَرَ تَطْهِيرُهُ!

وَقَدْ مَشَى أَحَدُ الصَّالِحِينَ فِي الْوَحْلِ، فَجَعَلَ يُشَمِّرُ عَنْ سَاقِيهِ إِلَى أَنْ

زَلَقَتْ رِجْلُهُ فِي وَسْطِ الْوَحْلِ فَبَكَى، فَقِيلَ لَهُ:

«مَا يُبْكِيكَ؟».

فَقَالَ: «هَذَا مَثَلُ الْعَبْدِ لَا يَزَالُ يَتَّقِي الذُّنُوبَ، فَإِذَا قَارَبَ الْمَكْرُوهَ، يَقَعُ فِي

الْبَدءِ فِي ذَنْبٍ وَذَنْبَيْنِ، وَبَعْدَهَا يَخُوضُ فِي الذُّنُوبِ خَوْضًا!».

يَبْدُو الْحَرَامَ، مِثْلَ بَقْعَةٍ مَقِيَّتَةٍ يَسْتَحِيلُ بُلُوغَهَا، فَتَرَى الْمَكْرُوهَ طُعْمًا

يُلْقِيهِ الْحَرَامُ، يَسْتَدْرِجُ بِهِ غَفْلَتَكَ!

رَبْمَا فِي الْبَدءِ تَشْعُرُ بِالذَّبِيبِ الْمَوْلَمِ يَمْضِي إِلَى مَسَافَةٍ مَحْذُورَةٍ.

فَإِذَا تَأَبَّطَ الْعَبْدُ الْمَكْرُوهَ، وَظَنَّهَا رَغْبَةً عَابِرَةً، أَيْنَعَتْ فِيهِ شَجَرَةُ آثِمَةٍ!

وَدَوْمًا تَبْدَأُ النَّزْوَةُ، فِي حَيِّزِ قَلْبِي ضَيِّقٍ، ثُمَّ تَشْتَدُّ نِيَّةُ آثِمَةٍ.

فإذا لم تَقَيِّدها، بَحَثْ عَنْ سُلُوكِ يُعْلِنُهَا!

فافقه أَنَّ المُشْتَبَهَات، أَوَّلُ المُرَاوغة..
هكذا يبدأ الشَّيْطَانُ بك، وبعدها، زَلَلٌ يَطُول..
وفي الحَبْوِ عَلَى الجَمْرِ، بُلُوغُ النَّارِ!

وما دَقَائِقُ الابتلاءِ إِلَّا فِي الصَّبْرِ عِنْدَ الشَّهْوَةِ الْأُولَى..
وما اليَقْظَةُ بَعْدَ الانغماسِ فِي شَبَاكِهَا، إِلَّا يَقْظَةُ مُتَأَخِّرَةٍ!

كيف يبدأ الزَّلَلُ؟
أنت في البدء..
يستغرقكَ جُمُوحُ الشَّهْوَةِ، ثُمَّ يُلْقِيكَ خَائِرَ الْقُوَى وَالشَّوْطِ مَا زَالَ فِي
ابتدائه..
وتنسى أَنَّ العَقْدَ مَعَ اللَّهِ إِذَا انْفَرَطَتْ فِيهِ حَلَقَةٌ، تَدَاعَتْ لَهُ بَقِيَّةُ
الحَلَقَاتِ.

وانتبه لأحد السَّلَفِ وَقَدْ سُئِلَ: «كَيْفَ اسْتَقَامَتِ أَحْوَالُكُمْ؟»..
قَالَ: «كُنَّا نَأْتِي الْمُسْتَحَبَّاتِ كَأَنَّهَا وَاجِبَاتٌ، وَنَتْرِكُ الْمَكْرُوهَاتِ كَأَنَّهَا
مُحَرَّمَاتٌ..
وبهذا اسْتَقَامَتِ أَحْوَالُنَا!»..

لِذَا صَاحِبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَاقْرَأْ فِي كِتَابِهِمْ، وَانْظُرْ كَيْفَ كَانُوا..
وما أَرَى لَكَ مِثْلَ كِتَابِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي اسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ وَالْوَرَعِ وَصَلَاحِ
الْقَلْبِ..
فَاعْكُفْ عَلَى سِيرِ الصَّالِحِينَ وَأَقْوَالِهِمْ..
إِنَّكَ إِنْ عَكَفْتَ عَلَى كِتَابِ
التَّزْكِيَةِ، مَلَكَتْ دِينُكَ كُلَّهُ صِلَاحًا وَاسْتِقَامَةً.

ثم، إِيَّاكَ وَدِيَارَ الْمَكْرُوهِ

اسْكُنْ مَقَامَاتِكَ الْعُلْيَا..

وإِيَّاكَ وَدِيَارَ (الْمَكْرُوهِ).

فَذَاكَ مَذَاقُ الْهَوَى!

وما ثمَّ بعد الْمَكْرُوهِ، إِلَّا الْحَرَامُ.

ولو أَنَّهُ «كُلَّمَا كَرِهَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ تَرَكَهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ

لِقِيَامَتِهِ!».».

ابْدَأْ وَفْتَشْ قَلْبَكَ

فَتَشْ عَيْنَكَ

وَفْتَشْ كَلِمَاتِكَ

وَفْتَشْ حَوَاجِزَكَ كَمْ خَرِقَ فِيهَا، وَأَيْنَ اسْتَعَذَبْتَ الْمَكْرُوهَاتِ، وَكَيْفَ سَاقَتَكَ

إِلَى بَعْضِ الْحَرَامِ، ثُمَّ قُلْ:

رَبِّ ﴿أَلَيْ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾!

وَقَدْ فَقِهَ الْقَوْمُ ذَلِكَ..

أَنَّ الْمَكْرُوهَاتِ: عَتَبَةُ الْإِبْتِلَاءِ لِلْمَقَامَاتِ.

وَمَا بَعْدَ الْمَكْرُوهِ، إِلَّا فَنَآؤُهَا!

إِذْ مِنْ شُؤْمِ الْمَكْرُوهِ، فَوَتْ اللَّحَاقُ بِالْقَوْمِ.

وَالسَّابِقُونَ، قَدْ فَازُوا وَاللَّهِ بِالتَّسَامِيِّ!

فَكَأَنَّ السَّبَاقَ إِلَى الْمَعَالِي، كَانَ يُدْنِيهِمْ مِنَ اللَّهِ.

وَمَنْ اقْتَرَبَ مِنَ اللَّهِ، حَاشَى لِلَّهِ أَنْ يَخْذُلَهُ!

أولئك أقوامٌ..

كان همُّهم، مقعدَ صدق!

وما بينَ ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، وبينَ ﴿عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ﴾ كما
بينَ الحَبو والسَّبِق..
وشتَّانَ شتَّان!

قومٌ علِموا..

أنَّه يأتي باليقظة مِنَ الفتح، ما لا يأتي بالوَهْن!

فاحذر..

وصُمِّ عن زَلَّاتِ المشتبهات، فهي خيباتُ القيامةِ

وصُمِّ كلَّ يومٍ على أَنَاثِ الأُويَّةِ.

ومن ظَلَّ على حَذَرٍ، قلَّما تصطاده الغفلة.

ومَن سَكَنَ، سَقَطَ!

ثم أعلن موقفك

وبقُوَّةِ ملءِ الرُّوحِ قل:

لا للمُشتبهات!

والشَّأْنُ كلُّ الشَّأْنِ في النِّيَّةِ، إذ النِّيَّةُ في الثَّبَاتِ.

ونِيَّةُ الثَّبَاتِ وَثْبَةُ العُمُرِ كُلِّهِ، حتَّى لا تَصْطَادَكَ الغفلة!

وما الغفلةُ من بعد، إلا مثلُ غِرْبَالٍ..

تَسْقُطُ منه المِنْحُ الثَّمِينَةُ..

تَمُرُّ بِكَ، ولا تَسْتَقِرُّ لَكَ!

اثبت ولا تبتئس لكثرة الفتن..

ولا تغتر لتنوع الصوارف، فتبرّر لنفسك..

فإن تهياً لك الداعي للمشتبهات..

فاذكّر «ومن صبر على مخالفة نفسه، أوصله الله إلى مقام أنسه»..

ومن تتبّع المكروهات، ملأ الله قلبه شغلاً بالدنيا!

وإن خاض القوم لُجّة المكروه، تنزّه!

وتأمل حال من اجتروا على الأحكام كيف صاروا بلا تقوى!

اجتروا على النظر، والتبسط في الحديث مع النساء، وقروض الربا،

وشبهات في المال، وتخفّف في أحكام الحجاب، وفتاوى قاربت بهم المكروه

وكادت تبلغ بهم الحرام!

غضّ البصر، مسافةً آمنة.

والمُشتبهات، مسافةً آمنة.

فلا تترخّص فيما يبلغ بك الحرام!

نظرة، أو علاقة، أو شبهة مال، أو كلمة، ربّما تحشّرُ بها مع الظلّمة!

فالزم نفسك الورع والدعاء

و«بالورع عمّا حرّم الله، يقبل الله الدُعاء».

ثم تهياً لنعيم الثّبات، بكثرة الدُعاء، ولحالٍ كأنّه خبر الآخرة، حتّى لا

تُرى إلّا مُشمرّاً، كأنّما تخشى مقاربة الشُّوك!

واذكّر مكنون السّرّ في الدُعاء:

«يا مُقلّب القلوب».

تالله ما دوامَ عليها رسول الله ﷺ إلّا لعظيم!

وَزِدْ مِنْ طُولِ الْقُنُوتِ فِي الدُّعَاءِ..
فَإِنَّهُ سَبَبٌ فِي السَّلَامَةِ!

فَقُلْ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.
إِنَّ الْإِبْتِلَاءَاتِ بِالثَّبَاتِ، اصْطِفَاءُ!



الخطوة الخامسة

اثق الله، والثقوى، أن تحمي
بساط قلبك من غبار التلوث



هل تدري كيف وصفَ عمرُ التَّقوى حين سُئِلَ، فقال: «أرأيتَ لو أنَّك بطريقٍ ذي شوكٍ ماذا تفعلُ؟».

فردَّ السَّائلُ: «أُشَمِّرُ وأَحْذَرُ».

فأجابَ عمرُ: «تلك التَّقوى!»

التَّقوى..

أن تخشى أن يُصيبَكَ رِذاذُ المُستَنقِعِ.

أن تحميَ بساطَ قلبِكَ من غبارِ التلوُّثِ.

أن تُبَاعِدَ بين أنفاسِكَ وأنفاسِ الفِتنة!

أن تُشِيخَ بعينِكَ عن وجهِ امرأةٍ، حتَّى لا يَشِيخَ قلبُكَ.

فالذَّنْبُ وَهْنُ القلبِ!

التَّقوى..

أن تقبِضَ كَفَّكَ أمامَ درهمٍ حرامٍ، حتَّى لا ينقبِضَ قلبُكَ، ولا تجدَ فيه للشرِّ

مُتَسَعًا!

أن تتعنَّزَ الكلمةَ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ في فَمِكَ، خَشْيَةً أَنْ تهويَ بك في سَخَطِ الله،

وحيثُها لن يَنْتَشِلَكَ أحدٌ!

التَّقوى..

أن تشعرَ بالذَّنْبِ إذ يصيبُكَ مثلُ شوكةٍ تخدِشُكَ، حتَّى يسيلَ الدَّمْعُ منك!

أن ترى الذَّنْبَ انكسارَ السفينةِ، والنَّأْيَ عن المراسي، وطوقَ الظُّلْمَةِ الَّذِي

لا يزولُ!

التَّقْوَى سِيَاكُ..

وكمالُ النِّهَايَاتِ، دَلَالَةُ التَّوْفِيقِ فِي الْبَدَايَاتِ!

فَالْحَوَاتِيمُ الْمُشْرِقَةُ، إِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ ﴿أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ﴾!
النِّهَايَةُ دَوْمًا، هِيَ قِصَّتُكَ الْحَقِيقِيَّةُ.

فَمَنْ أَشْرَقَتْ بَدَايَتُهُ بِإِحْكَامِ أُصُولِهَا، أَشْرَقَتْ نَهَايَتُهُ بِالْعُثُورِ عَلَى مَحْصُولِهَا!

فَابْدَأْ بِتَقْوَى تَشْمُ بِهَا مِنْ رَوَائِحِ الْمَكْرُوهِ، مَا لَا يُشْمُ سِوَاهَا.

اغْرِسْ فِي قَلْبِكَ بُدُورَ التَّقْوَى حَتَّى تَلْقَى!

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ سَنَامَ التَّقْوَى، إِذَا وَضَعَ جَمِيعَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَوَاطِرِ فِي طَبَقٍ، وَطَافَ بِهِ فِي السُّوقِ، لَمْ يَسْتَحِ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ.

إِذْ قَلْبُهُ طَاهِرٌ مِنْ بَوَاطِنِ الْإِثْمِ!

وَقَدْ سُئِلَ الْحَارِثُ الْمَحَاسِبِيُّ: «لِمَاذَا نَفَعَلُ الْحَسَنَاتِ ثُمَّ نَزَلْ، كَيْفَ لَا نَرَى ثَمَرَةً سَعِينَا فِي بَعْضِ النَّبَاتِ؟!». .

بِهَذِهِ الْحِيرَةِ سَأَلَ التَّلْمِيزُ أَسْتَازَهُ الْمَحَاسِبِيَّ..

فَرَدَّ الْعَالِمُ الْعَارِفُ بِحِكْمَةٍ هَائِلَةٍ: «مَثَلُكُمْ فِي ذَلِكَ كَمَنْ يَزْرَعُ فِي أَرْضٍ يَمْلُؤُهَا الشُّوكَ، مَا إِنْ تَنَبَّتِ الْفَسَائِلُ حَتَّى يَخْنَقَهَا الشُّوكُ الضَّارُّ!». .

نَظَّفُوا أَفْنِيَةَ قُلُوبِكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، حَتَّى تَتَمَرَّ لَكُمْ الْحَسَنَاتُ رِبِيْعًا دَائِمًا!
تَقْطُفُونَهُ ثَبَاتًا قَبْلَ مَوْتِكُمْ..

لِذَا تَرَى الْمُؤْمِنَ وَقَافًا، «وَقَافًا مَتَانٌ» حَتَّى عِنْدَ هَمِّهِ، إِنْ كَانَ لِلَّهِ أَمْضَاهُ.
وَقَدْ قَالَ الْقَوْمُ: «اتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ هَمِّكَ، فَأَوَّلُ الْعَمَلِ هُمٌّ وَنِيَّةٌ».

قَالَ التَّلْمِيزُ: وَكَيْفَ أَبْلُغُ دَرَجَةَ الْمُؤْمِنِ الْوَقَّافِ؟

رَدَّ الْمَحَاسِبِيُّ: «بِالْحَذَرِ» وَتِلْكَ هِيَ التَّقْوَى.

التَّقْوَى، أَنْ تَسِيرَ بِحَذَرٍ، وَلَا تَكُونَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ!

فَ«لَا تَجْعَلْ هَمَّكَ إِلَّا التَّقْوَى، فَإِنَّهَا رَأْسُ مَالِكَ، وَالنَّوَافِلُ هِيَ أَرْبَاحُكَ».

وَفِي كِتَابِهِ (رِسَالَةُ الْمُسْتَرَشِدِينَ) جَلَّى كُلَّ هَذَا الْمَعْنَى.

وقد قال السلف الصالح: «تمامُ التَّقوى، أن تتَّقِيَ ما يُرى أنه حلالٌ، خَشْيَةً أن يكونَ حَرَامًا!..»

ووالله ما زالتِ التَّقوى بالمتَّقِينَ، حتى تركوا كثيرًا من الحَلالِ مَخَافَةَ الحَرَامِ!

لقد كان عُمر -رضي الله عنه- أيامَ خِلافَتِهِ إذا أُتِيَ بالعِشاءِ، أطفأ السَّرَاجَ الذي أُشعلَ بزيتٍ من بيتِ مالِ المسلمين، وقال:

«لا أَكُلُ على سِرَاجِ العامَّةِ!»

خَشْيَةً أن يَجمَعَ اللهُ له قطراتِ الزَّيتِ، فيثَقُلَ له به ميزانُ السيئاتِ! ووالله لو بُيعَتْ، لأنكَرنا وأنكَرناهُ.

فكيف لو رأى أحدنا، وهو يَخْلِطُ التَّوسُّعَ في المكروهاتِ.. ويبحثُ عن الرُّخَصِ، وينتعلُ الآثامَ.. وكلُّما اشتهى من سوقِ المعاصي، اشترى!

التقوى سلوكٌ يُبَلِّغُ الحال

وما بعد الحال مقام.

فتفقدُ حالَكَ..

إذْ كُلُّ تَقْوَى لا تُنْجِ حَالًا دائمةً، لا يُعوَّلُ عليها!

وللأحوال لغةٌ كاشفةٌ، تقودُ إلى كُلِّ صالحة.

تلك اللُّغة، هي الحَذَرُ من مقارِبةِ الزَّلَلِ!

وإلا فإن قدر الرِّحلة نقصانٌ يتلوه نقصان.

وعُمالُ الآخِرَةِ لا يَقْطَعُونَ بِحُسْنِ الخاتمةِ، إلا بعد الموت!

لِذا..

عكف العارفون في أعمارهم على تَفْتِيشِ الأحوالِ، قبلَ أن تَعْبُرَ إليهم

رَجْفَةُ الحِسابِ!

انتَبَهُوا مُبْكَرِينَ..

أَنَّ سُفْنَ الْحَسَنَاتِ قَدْ يَكْسِرُهَا مَوْجُ الْمَحْرَمَاتِ، إِنْ اشْتَدَّ.
وَأَنَّ الْعَافِيَةَ، عَافِيَةُ الرَّحِيلِ إِلَى اللَّهِ دُونَ جِرَاحٍ!

فَطَفِقُوا يَتَخَلَّصُونَ وَيُخْلَصُونَ!

وَيَبْحَثُونَ عَمَّا تَحْتَ الْحَسَنَاتِ، مِنْ شَهَوَاتٍ خَفِيَّةٍ، أَوْ نِيَّاتٍ مَخْلُوطَةٍ، أَوْ
بِدْعٍ مُعْتَمَةٍ..

خَشِيَّةٌ أَنْ يَحْتَلَّهَا غَسَقُ الْحِرْمَانِ!
وَمَا الْقِيَامَةُ غَدًا..

إِلَّا زَمَنُ انتصاراتِ التَّقْوَى..
زَمَنُ يَكُونُ الْأَجْرُ فِيهِ، عَلَى قَدَرِ بَسَالَةِ الْجُذُورِ فِي الثُّبَاتِ!
وَكُلَّمَا اتَّقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ، ارْتَقَى..
فَيُنَالُ بَرَكَةً «سَيَرُوا إِلَى اللَّهِ، تَسِيرَ إِلَيْكُمْ حَوَائِجُكُمْ تَبَاعًا».

وَكَانُوا يَفْقَهُونَ..
أَنَّ الْغُرْبَةَ، غُرْبَةُ الْحِسَابِ..
فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ ﴿عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾!
وَيَا لِلنَّهَائَةِ إِذَا وُضِعَتِ الصُّحُفُ وَقِيلَ:
مَالِ الصَّحَائِفِ فِي عَتَمَاتِهَا زَبَدُ!
مَالِ الصَّحَائِفِ يَحْجُبُ نُورَهَا الْغُبْرَةَ!

يَا لِلسَّلَفِ..

إِذْ فَهَمَ أَحَدُهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَجَلَسَ يَبْكِي وَقَدْ تَلَا: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ
يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

يبكي، وحَالَ القلب يَقول:

مَنْ يَلْمُ شَعَثَ الصَّحَائِفِ حِينَهَا، إِنَّ الْمُبْعَثَرِ فِي الدُّنْيَا، مَلءَ التَّيْهَ غَدًا!

ووالله مَنْ لَازَمَ التَّقْوَى، لَمْ يَرِ فِي الضِّيقِ إِلَّا السَّعَةَ!
وَمَنْ فَارَقَهَا، سَلِبَ الْإِحْسَاسَ بِمَرَارَةِ الْعِقَابِ!

ولقد علّمتني رحلتي مع الله..
أَنْ ضَرِيبةَ التَّقْوَى، هِيَ أَهْوَنُ الضَّرَائِبِ..
وَأَنْ كَلِمَةً تَتْرَكُهَا لِلَّهِ، أَوْ خَطِيئَةً تَصْمَدُ أَمَامَ إِغْرَائِهَا..
أَوْ دَرَجَةً تَرْتَفِعُ بِهَا رَغْمَ كُلِّ آلامٍ قَدَمِيكَ، أَهْوَنُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ دَرَجَةً،
ثُمَّ تَفَاجَأَ بِأَنْ جَحِيمًا كَانَتْ تَغْلِي تَحْتَ قَدَمِيكَ، لَوْ أَنَّكَ صَعَدْتَ، تَجَنَّبْتَ كُلَّ حَرِيْقَهَا.

«جاء رجل إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّمَا جَاءَ لِيَسْأَلَ»
فَدَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْتِنَا عَنْ أَمْرٍ نَأْخُذُهُ عَنْكَ مِنْ
بَعْدِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِتُعْنِكَ نَفْسُكَ».

فَقَالَ: كَيْفَ لِي بِذَلِكَ؟

فَقَالَ: «تَدْعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ».

فَقُلْتُ: وَكَيْفَ لِي بِعِلْمِ ذَلِكَ؟

قَالَ: «تَضَعُ يَدَكَ عَلَى فُؤَادِكَ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَسْكُنُ لِلْحَلَالِ، وَلَا يَسْكُنُ لِلْحَرَامِ،
وَإِنْ وَدَعَ الْمُسْلِمُ يَدْعُ الصَّغِيرَ مَخَافَةً أَنْ يَقَعَ فِي الْكَبِيرِ».

قُلْتُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: «الَّذِي يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ».

قُلْتُ: فَمَنْ الْحَرِيصُ؟

قَالَ: «الَّذِي يَطْلُبُ الْمَكْسَبَةَ مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا».

قُلْتُ: فَمَنْ الْوَرِعُ؟

قَالَ: «الَّذِي يَقِفُ عِنْدَ الشُّبْهَةِ».

قُلْتُ: فَمَنِ الْمُؤْمِنُ؟

قَالَ: «مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ».

قُلْتُ: فَمَنِ الْمُسْلِمُ؟

قَالَ: «مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

ذاك رجل هرول بصدق السؤال..

والنَّيَّةُ السَّادِفَةُ فِي سُودَاءِ الْقَلْبِ، تُلْهِمُ صَاحِبَهَا الرُّشْدَ!

البس نعال التقوى، فهي على صعب الطريق أقوى.

وإيَّاك ونعال المعاصي، فإنَّ مآلها، ارجع على عقبيك، فاسأله، وقل:

يا مولاي، نعوذ بك من إديار، صَنَعْتَهُ خَطِيئَةً..

إِنْ قَلَمَّا أَدْبَرَ شَيْءٌ يَا مولاي، فَأَقْبِلْ!

اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا الْقَحْطَ فِي هَمَّتِنَا لَا يَشْفِيهِ إِلَّا الدُّعَاءُ..

هَذَا الْقَحْطَ لَا يَشْفِيهِ إِلَّا الدُّعَاءُ.

فاجبر اللهم ثلثة غيابنا، بتقوى تجمعنا عليك

نعوذ بك من عملٍ كالسَّرابِ، وقلْبٍ من التَّقْوَى خراب.

فإنَّ بَلَّغْتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى، فَالْزِمِ فِي سِيرِكَ التَّقْوَى

فإنَّ كُلَّ مَا تَفَرَّقَ مِنْكَ، جَمَعَهُ اللَّهُ لَكَ بِالتَّقْوَى، فَقَدْ وَعَدَكَ

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

فتأمل..



الخطوة السادسة

في سفر الآخرة
أن نعبد الله كما نريد، لا كما
نريد!



وبين ما تريد وما الله يريد، معنى الهداية!
 ومع الله لا أنصاف للطريق فأما الهدى وأما الهوى.
 وما سوى ذلك، التباس بين الهدى والهوى، وقلب منكوس.
 و«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تَتَّبِعُ، وأحكام تُبْتَدَعُ، يخالف فيها كتاب الله».
 حتى يكثر الابتداع في ثيابك ومسارك وخطوك، حتى كأنك الهوى..
 «وكلُّ ابتداءٍ كما مُنتَهاه».
 ولا دَرَبَ ثَمَّ!

وقد بلغنا عن ابن سيرين «أنه ما رابه شيء إلا تركه منذ نشأ، ولم يعرض
 له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما».
 وقال حماد بن زيد، عن أنس بن سيرين قال: «لم يبلغ محمدا قط حديثان
 أحدهما أشد من الآخر إلا أخذ بأشدهما»، قال: «وكان لا يرى بالآخر بأسا،
 وكان قد طوَّق لذلك».
 وقال هشام بن حسان: «ترك محمد بن سيرين أن يفتي في شيء ما يرون
 به بأسا».
 فاعبده بما يُحِبُّ، لا بما تُحِبُّ.
 وهُنا..
 مِحْنَةُ الْقُلُوبِ..
 وابتلاء النوايا!
 وما المَحَبَّةُ، إلا المُوَافَقَةُ في جميع الأحوال.

وَمَنْ أَتَى بِالصَّدَقِ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، فَالْقَبُولُ يَأْتِيهِ!

فَإِنْ طَوَّتَهُ الْأَكْفَانُ..

زُفَّ بِعَلَامَاتِ الْقَبُولِ، حَتَّى كَأَنَّ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يُعْلِيهِ!

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ إِنَّ الْقَبُولَ خَتَامُ الْعَبْدِ وَاللَّهُ يُبْدِيهِ..

سبحانه، تناصر الهدى، فإذا بك أنت الهدى، تلزم الطريق، فإذا بك أنت الطريق.

أنت السَّيْلُ وأنت سالكه..

ونحن دومًا نختار ما يشبهنا!

فاحذَرُ لُغَةَ التَّحَايِلِ عَلَيْهِ..

فإِنَّهَا لَا تَلُمُ الشَّمْلَ عَلَيْهِ!

احذر لغة التَّحَايِلِ وقد علمت الحرام والمكروه والمشتبهات.

وقد قال لك الله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِذِ الْهَوَىٰ
بعد العلم، يَفْرِطُ مَسْبَحَةَ الْوُصُولِ.

تُمْ يُبْعِثُكَ فِي أَشْتِهَاءٍ تَفْنَى.

وَالْفَنَاءُ انْقِطَاعٌ عَنْهُ!

أَتُنْذِرِي مَا الْهَوَىٰ؟

الْهَوَىٰ، شَرِيكَ الْعَمَى..

أَتُنْذِرِي مَا الْهَوَىٰ؟ الْهَوَىٰ، اسْتِنَازَافُ الْقَلْبِ فِي التَّحَايِلِ عَلَى الْأَحْكَامِ

حَتَّى تَهْلِكَ الْخَطَوَاتُ!

حَتَّى تَرَى صَاحِبَهُ قَدْ عَطَفَ الْحَقُّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يُصَغِّرُ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ

كَبِيرَ الْجَرَائِمِ.

يَقُولُ: أَقِفْ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعْ!

و«من استحوز عليه الهوى واتباع الشهوات، انقطعت عنه موارد التوفيق».

وفي الأثر: «ما من عبدٍ آثرَ هواه على هواي إِلَّا أَكْثَرَتْ هُمُومَهُ». ومن هوى الهوى، وعرت عليه طريقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه.

والتَّعَافِي..

أَنْ تَعْلَمَ مَاذَا يُرِيدُ اللَّهُ مِنْكَ!
وَمَنْ عَرَفَ كُلَّ شَيْءٍ وَمَا عَرَفَ مُرَادَ رَبِّهِ، فَمَا عَرَفَ..
فَتَتَّبِعَ مَوَاطِنَ رِضَاهُ، وَلَا تَكُنْ سَعِيًّا يَتِيَهُ دُونَ قَبَسِ يَهْدِيهِ!
فَلَا هُوَ يَبْلُغُ بِالشُّوْطِ، صَفًا وَلَا مَرُوءَةً، بَلْ كَأَنَّهُ يَسْعَى فِي نَقْصٍ يُرِيدُهُ.

لِذَا أَحْسَنَ الْإِصْغَاءَ لَصَوْتِ النُّوَايَا..
فَفِي خَبَايَا النَّفْسِ، لُغَةٌ مَلَأَى بِالْهَوَى!
قَالَ وَهَبُ: «إِذَا شَكُكْتَ فِي أَمْرَيْنِ، وَلَمْ تَذَرِ خَيْرَهُمَا، فَانْظُرْ أَبْعَدَهُمَا مِنْ هَوَاكَ فَإِنَّهُ»!
فَإِنَّ هَوَاكَ دَاوُكَ، فَإِنْ خَالَفْتَهُ فَدَوَاوُكَ..
لَكِنَّ الْمَصَابَ «إِذَا غَلَبَ الْهَوَى الْقَلْبَ، اسْتَحْسَنَ الرَّجُلُ مَا كَانَ يَسْتَقْبَحُهُ».

وهذا أَوَّلُ الزَّلَلِ

نَزِيفُ الرَّغْبَةِ بِشَهْوَةٍ تَكُونُ فِي الْبَدءِ بَيْنَ الْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ..
وَتِلْكَ وَاللَّهِ أَوَّلُ الْإِشَارَةِ..
ثُمَّ تَرَانَا بَعْدَهَا، نَبْحُثُ عَنْ عَتَبَاتِ التَّفَلُّتِ..
عَنْ فَتَوَى، تُبَرِّرُ عُرْيَ الْخَطَوَاتِ مِنَ التُّقَى!
وَمِنَ الْهَدْيِ إِلَى الْهَوَى أَحْوَالُ تَرَاهَا فِي ثِيَابِكَ، وَحَدِيثِكَ، وَاخْتِيَارِكَ..
وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الْأَهْوَاءُ أَهْوَاءَ، لِأَنَّهَا تَهْوِي بِصَاحِبِهَا فِي النَّارِ..
وَقَدْ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهْمَ: الْهَوَى يُرْدِي!

ثُمَّ تَهَجَّعَ النَّفْسُ فِي لَذَّةِ الْمَتَاعِ..
ثُمَّ مَاذَا؟!

ثُمَّ يَأْبَى الْقَلْبُ الْقِيَامَ..

فَقَدْ اعْتَرَاهُ صَدَأُ الْهَوَى!

وهناك في وَهْمِ النِّجَاةِ، وَوَهْمِ الْقَبُولِ، نَنْفَتُحُ عَلَى الْبَرِيقِ، وَتَتَلَاشَى
الْأَحْكَامُ، رُويْدًا رُويْدًا!

«وَمَنْ زَاغَ، سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ».

حَتَّى يَعْجَبُ الْقَوْمُ كَيْفَ زَلَّتْ فِيمَا كُنْتَ تَنْكُرُ وَتَنْهَى عَنْهُ!

«فَلَا تَنْقَدْ لِهَوَاكَ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشِفَا جَرْفِ هَارٍ».

وَالْخَرَابُ فِي بَدْئِهِ، شَهِيٌّ.

ثُمَّ تَرَاهُ فِي سُوءِ مَالِهِ، جَلِيًّا.

«فَاحْذَرِ نَفْسَكَ عَلَى نَفْسِكَ، فَالْهَوَى خَادِعٌ!»

وَلَا يَحْذَرُهَا، إِلَّا مَنْ مَيَّزَ الْهَوَى فِي نَبْضِهِ.

وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ، إِلَّا لِمَنْ اِمْتَلَكَ التَّقَى، فَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ تُشْفَى!

وَوَاللَّهِ، إِنَّ لِلَّهِ بَقَايَا مِنْ عِبَادِهِ، لَمْ يَتَحَيَّرُوا فِي ظُلْمَتِهَا.

مَا بَعْدَ الْهَوَى إِلَّا الْفِتْنُ..

وَمَنْ مَيَّزَ الْهَوَى جَانِبَ الْفِتْنَةِ، فَمَا الْفِتْنَةُ، إِلَّا اشْتِبَاهُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، حَتَّى

لَا تَدْرِي مَا تَتَّبِعُ!

وَمَنْ لَمْ يَتَعَاهَدْ النَّقْصَ فِي نَفْسِهِ، غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَى ثُمَّ تَرَاهُ يَخُوضُ فِي

الْفِتْنِ!

عندها ينهمك العبدُ في نسيان الاتِّباع، فلا يُخطئه ذئبُ الشَّيْطَانِ في مصيدة الهوى!

ذاك شَرُّكَ الخديعة.

وبها تبدأ جنازةُ العمر، فيقعُ عمره في فخِّ الوهم، أنه ممَّن ﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

فَيَنفَدُ زمانه، وهو يظنُّ أنه يَتَهَيَّأ لابتداءٍ لا يتمُّ!
تلك فِخَاخُ الشَّيْطَانِ، تصطادُّ الأعمار بَوَهم الإحسان.
ويظلُّ يوسوس لك، بِحُلُوِّ الأمانِي.
فإِذَا بك من أهل ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.
فيُزيقك السَّعي إلى الله، وهَمًّا، ثُمَّ لا تراه ثوابًا!
بل ﴿هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾.

وقد كان ذاك استدراجًا خبيثًا..
والشَّيْطَانُ يفتَحُ للعبيدِ تسعةَ وَتسعين بابًا من الخَيْر، يُريد بها بابًا من الشرِّ..

حتى يبلُغ بك حالًا، لا فِكاك..
لا فِكاك!

تتعبَّب من حالك، وتنسى أنَّ السُّقُوط لا يحدث كاملاً أَبَدًا، فتنبَّه!
وَإِذَا عَرَجَ بروحِ المؤمنِ إلى السَّماء، قالت الملائكة:
سُبْحَانَ الَّذِي نَجَّى هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ، كَيْفَ نَجَّا!

وذاك ورَبِّي بعضُ معنى ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَكَ﴾!
رَبِّمَا..

تنفتَحُ لك السُّبُل..

لكنَّها السُّبُلُ الَّتِي لا تَنْتَهِي إلى الله!

وَتَنَسَى..

أَنْ مِنْ غِيَابِكَ عَنْ مَوَاطِنِ الْهَوَى، عِبَادَة!

سبيل الثَّبات على الهدى

ربما لو أحسن مسلمُ اليوم أن يسبق كلَّ فعل، بسؤال نفسه: لماذا؟! لبلغ في غايته مبلغًا عظيمًا.

ذلك أن كلمة (لماذا)، هي أوَّل لبنة في صناعة بوصلته إلى حيث يجب أن يكون.

سؤال إن رافق المسلم في سيره، ظلَّ يصوبه ويحفظ خطوه من التَّيه والهوى.

وما أخطر أن يسير المرء طريقًا طويلًا، يبذل فيه ماله ورجحه..
ثمَّ يدرك بعد نفاد الزَّاد والعمر أنه بلغ ولكن إلى غير ما يريد!

فتنبَّه وقل:

اللَّهُمَّ ارزقنا عافيةً في ديننا..

في زمن تموج الفتن فيه موجًا، وتتغيَّر فيه القيم، وتتبدَّل فيه الأفكار.
وارزقنا عافية في أبداننا، تعيننا بها على إصلاح ما انهدم من أمر الدين.
وارزقنا سترك، فلا تفضحنا الصَّحائف..

فإنَّك إن رزقتنا ذلك كلَّه، فقد أتممت علينا نعمك، وحيزت لنا الدُّنيا من أطرافها.

يا كريم..

نحن الفقراء إلى الدُّعاء، نسألك العافية من الهوى!

ثم اثبت على الاتِّباع لنبيك ﷺ..

فإنَّ الأثر ينفي عنك خُذلان الخواتيم.

و«إنَّك لن تُخطئ الطَّريق، ما دُمْتَ على الأثر».

وهنا المحك، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فأكثِر من القراءة في سيرة النَّبِيِّ ﷺ وهديه وما أرى لك خيراً من كتاب (زاد المعاد).. و(في صحبة الحبيب ﷺ) لصاحبة الكتاب، فإنَّ فيهما هديه، وثباته، وهداه.

اجعل بالعلم حافِراً على حافر، وَقَدِّمًا على قَدَم!
فإنَّما يَسْتَمْكُنُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْعَبْدِ، إِذَا غَابَ عَنْهُ الْأَثَرُ!
ثُمَّ ماذا يَكُونُ؟
ثُمَّ لا يَكُونُ حُظُنًا مِنْ دِينِنَا إِلَّا سَرَابٌ، نَظْنُهُ اتِّبَاعًا.
ولكنَّكَ تَرى استلاباً بالهُويني!
لذا ثَمَّةٌ مَنْ يُريدُ لِسَنَةَ النَّبِيِّ ﷺ، أَنْ تَكُونَ بَيْنَنَا مَنَسِيَّةً!
ثَمَّةٌ مَنْ يُريدُ فَرَاغَ الْأَمَّةِ مِنْ صَوْتِهِ، وَمِنْ كُلِّ الْوِثَائِقِ الَّتِي تَحْمِلُ هَدْيَهُ!
فاحمل ذاتك على الحقِّ، واحفظ الهدى من طعنات الهوى، فإنَّها دَامِيَةٌ!
وقدَّمَ أمر ربِّكَ على هوى نفسك..
إنَّ أعظم الجهاد، جهادك هواك، فقاتل هواك!
وإنَّ الغالبَ لهواه، أشدُّ من فاتح الحصون وحده!

وقل:

«اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا طَاعَتَكَ، وَجَنِّبْنَا مَعْصِيَتَكَ، وَاكْشِفْ عَنْ بَصَائِرِنَا سَحَابَ الْاِزْتِيَابِ، وَاكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنَا أَغْشِيَةَ الْحِجَابِ، وَأَزْهِقِ الْبَاطِلَ عَنْ ضَمَائِرِنَا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا، واجعلنا على الهدى، فَإِنَّ الْأَهْوَاءَ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ، وَمَانِعَةُ الْمَنَاجِحِ وَالْمَنَنِ».

وبعد العلم بهديه، دَقِّقْ في باطنك واخش..

أَنْ تَهْلِكَ بِمَا اسْتَقَرَّ فِيكَ مِنَ الْهَوَى!

وَكُلُّمَا امْتَلَأَ الْقَلْبُ بِالْهَوَى، صَفُرَ فِيهِ الْخَوَاءُ!
واعلم أَنَّ بدايةَ التَّخَلِّي، هي في إفلاتِ رُوحك ممَّا عَلِقَ بها من خفايا
الهوى!

ويا للهدى تَراه يمتدُّ جُذورًا..
وكلُّ ما يبذله القلبُ في ذلك، يرتدُّ عليه!
تلك إرادة الله..
ربما تغيبُ الأشياءُ التي اعتدناها فينا، لكنها تنبثقُ في غيابِ الوَعْيِ.
في لحظةِ الاحتضار..
في لحظةِ اللاَّشعور..

تلك لحظةُ الحقيقةِ.

وتلك ما نُبعثُ عليه!

وتلك مشيئةُ الله أَنَّ كُلَّ مَخْفِيٍّ، فَسَيُظْهِرُ.
﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾!

ثم اسأله الثبات على ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.
تَوَجَّهْ إليه في غمرةِ الفِتنِ.
وَبُثِّ له التباسُ الحَقِّ، وَقُلْ:
بي ظمأُ إليك..
لَبَّيْكَ وَإِنْ فَاضَ الْهَوَى سَيْلًا..
لَبَّيْكَ لَا تَرُدَّنِي عَنْكَ إِلَيَّ!

وفي وحشة الطُّرُق، علِّمْ قلبي: {إِنَّا لله}.
فلا أُشْرِكْ بكْ هَوَى!

واجعلْ قلبي في يَمِينِكَ..
فإنَّ كِلْتا يَدَيْكَ يُؤْمِنُ ويمين.
وأعوذ بك يا مولاي من تَقَلُّبِ القَلْبِ في فَوْضَى الهَوَى!
أعوذ بك من أن أكون ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾.
أو ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾.
فـ ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَمَلَ إِلْكَبِ﴾.
اللَّهُمَّ ارزُقنا هِدَايَةً لَا عِوَجَ بَعْدَهَا..
واجعلنا مِمَّنِ ﴿نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾، فكانت ﴿الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

وبلَّغنا وَعْدَكَ الذي وعدت فقلت فيه..
«وَحَقُّ عَلَيَّ أَلَا أُضِلَّ عَبْدِي، وهو حَرِيصٌ على الهدى».
وَرَدُّ مَا اغْوَجَّ مِنْ خَطَوَتِي على الصُّرَاطِ إِلَيْكَ!
﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

وما الفرقُ بين النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بالهوى والنَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ بالثَّبَاتِ، إلَّا
رباطٌ على فرائض الوقت، حتَّى تستقيمَ لها الجَوَارِحُ في مُرَادِ الله،
فاتبع المعنى الآتي!



الخطوة السابعة

{وَفَرَضْنَاهَا}، إذ ما هلاك
الناس إلا في أمرين:
اشتغال بنافلة، وتضييع
مريضة!



﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، هَذِهِ الْآيَةُ فِي مُعْجَمِ السَّعْيِ

ما موقع مَعْنَاهَا؟

وَأَيْنَ تَكُونُ الْفَوَاصِلُ، قَبْلَهَا أَمْ وَرَاءَهَا؟

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾..

لِمَاذَا؟ كَيْ لَا تَرَى عُمْرَكَ سَعِيًّا ضَلَّ مِعْزَاجُهُ إِلَى السَّمَاءِ!

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾..

كَلِمَةٌ مَعْقُودٌ فِي مَعْنَاهَا الْهُدَى.

وَمِنْ أَوَائِلِ الْمَعْنَى، ابْتِدَاؤُكَ كَيْ تَتَّقِنَ اكْتِمَالَكَ.

وَالْأَصُولُ عَلَى مِغَارِسِهَا بِفِرْعَوْنِهَا، تَسْمُو!

وَمِنَ الْكَرَامَةِ أَنْ تَرَى عَمْرَكَ آيَةً.

فَافَقَهُ أَنْ قَدَرَ الْقَبُولَ مَرَهُونٌ، بِفَقْهِ الْبِدَايَاتِ!

بِفَقْهِ الْفَرَائِضِ وَتَرْتِيبِهَا!

وَحَسْبُكَ أَنْ الْهَزَائِمُ تَتَنَاسَلُ، كُلَّمَا غَابَتِ الْفَرَائِضُ، إِذْ مَا بَقَاءُ الْفَرْعِ إِذَا

ذَهَبَ الْأَصْلُ!

وَقَدْ قَالَ السَّلَفُ الصَّالِحُ:

«وَمَا هَلَكَ النَّاسُ إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ:

اشتغالٌ بناقلة، وتَضْيِيعُ فَرِيضَةٍ!
 كَرَّرَهَا، فهذا المعنى مَطَالَعُ التَّلَفِّ!
 وَرَبِّي إِنَّ هَذَا السَّطْرَ مِنْ كَلِمِ السَّلَفِ، سَطَرٌ يَتَوَضَّأُ الْخَطُو بنوره!

لِذَا..

إِنْ رَأَيْتَ الْخَطُو أَعْرَجَ، أَوْ رَأَيْتَ الْقَوْمَ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، فَاعْلَمْ: «أَنَّمَا
 مُنِعُوا الْوَصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأَصُولِ»!

وَالْمَحْرُوسُونَ مِنَ السُّقُوطِ، هُمْ الْمَسْكُونُونَ مُنْذَ ابْتِدَاءِ الْبَدْءِ بِالرِّبَاطِ
 عَلَى الْفَرَائِضِ، وَبِالْفَرَائِضِ يُورِقُونَ،
 إِذْ كُلَّمَا ثَبَتَ الْعَبْدُ، اسْتَعْلَى.
 وَهَذَا بَعْضُ الْمَعْنَى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝١٦﴾!

وَمَنْ قَدَّمَ الْفَرِيضَةَ طَوَاعِيَةً لِلَّهِ، وَرَكِبَ نَجَائِبَ الْفَرَائِضِ، عَامَلَهُ اللَّهُ بِالْإِقْبَالِ.
 فَقَدْ قَالَ لَكَ نَبِيكَ ﷺ مُحَدِّثًا عَنْ رَبِّهِ: «مَا تَقَرَّبَ عَبْدِي بِأَحَبِّ إِلَيَّ مِمَّا
 افترضته عليه»!

فافهم وصية السلف..

«وَإِذَا كُنْتَ تَسِيرُ إِلَى اللَّهِ، فَلَا تَأْخُذْ وَصْفَ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْهُ»!

فاشدد على الفرائض ثمَّ الفرائض ثمَّ الفرائض، ثمَّ النوافل!
 وَقَدْ عَلَّمَنَا السَّلَفُ أَنَّ «مَنْ طَالَ قِيَامُهُ وَفَاتَتْهُ فَرِيضَةُ الْفَجْرِ، فَتَكَ خَدِيعَتُهُ».
 لَقَدْ نَذَرَ الشَّيْطَانُ دُهوره للاستدراج، كَيْ يَنْقِلَكَ مِنَ الْأَصْلِ إِلَى النَّفْلِ.
 وَظَلَّ فِي الْخَفَاءِ يَتَرَبَّصُ بِكَ لِحِظَةِ الْاسْتِرْخَاءِ فِي وَضْعِ السِّلَاحِ، حَتَّى
 يَأْتِيكَ وَجُنْدُهُ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

لذا عَظَّم ما عَظَّم الله..

وانتبه لقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بنون العظمة الإلهية.

فإن الشيء إذا شَرَّفَ وعَظَّم في عَيْنِ الشَّارِعِ، كَثُرَتْ شُرُوطُهُ، وَشُدَّ فِي حُصُولِهِ، حَتَّى تُصْبِحَ الْمُسَارَعَةُ إِلَى الْفَرَضِ فَرَضًا!

وانتبه لفقهِ أَبِي هُرَيْرَةَ إِذْ قَالَ: «لَا تَدَعِ رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ وَلَوْ طَرَقَتْكَ الْخَيْلُ».

سَنَةُ الْفَجْرِ يَشُدُّ عَلَيْهَا.

فكيف لو أدرك مَنْ ينامُ عَنِ الْفَرِيضَةِ؟!

انْظُرْ إِلَى سُورَةِ النُّورِ..

كَمْ صِيغَةً أُمِرَ فِيهَا؟ وَكَمْ عَدَدَ التَّوَكِيدَاتِ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ، وَإِحْكَامِ الْحِجَابِ، وَسِتْرِ الْبُيُوتِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا نَسِيَهُ النَّاسُ!

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، هَكَذَا إِذْنِ يَوْفِقُكَ الشَّرْعُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ أَمَامَ الْفَرِيضَةِ، وَلَا عُبُورَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ غَابَتْ عَنْ عَمَرِهِ الْآيَةُ!

هَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، يَبْتَدِئُ يَوْمَهُ بِقَوْلِهِ: «أَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُ بِهِ يَوْمَنَا غَضُّ الْبَصَرِ».

تلك فريضةٌ مَنْسِيَّةٌ.

لكنه رَجُلٌ فَقِهُ فَرِيضَةُ الطَّرِيقِ!

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، هَذِهِ بَوَابَةُ الْخُرُوجِ مِنْ: ﴿وَقَفُّهُمْ﴾ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿١﴾. وَمَا سِوَى ذَلِكَ، عَرَاءُ الصُّحُفِ مِنَ الْإِجَابَةِ!

فَإِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْقِيَامَةِ، وَنُودِيَ عَلَى الْوَصَايَا، فَخَفَّ عَلَى السُّؤَالِ مِنَ السُّؤَالِ.

وَإِنَّ عَطَشَ الصُّحُفِ لِلْفَرَائِضِ، لَا تَرْوِيهِ النَّوَافِلُ!

وَجِنْسُ الْفَرْضِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ النَّفْلِ..

فَلَا يَعْرَنُكَ نَافِلَةٌ تَهْرَعُ إِلَيْهَا، فَإِنَّ جِنْسَ الْفَرْضِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ النَّفْلِ،
وَالنَّافِلَةُ لَا تَجْزِي عَنْ فَرِيضَتِهَا، وَدِينَارٌ صَدَقَةٌ، لَا يُغْنِي عَنْ دِرْهَمِ زَكَاةٍ.

وبرُّ بصديق، لا يغني عن برِّ والديك.

وحفظُ للقرآن، لا يغني عن رضا الزوج.

وسعيُّ لفقير، لا يغني عن إتقان عملك، فافقه ذلك كله.

وسعيُّ على دعوة، لا تُقدِّم على تربية أولادك.

وَاللَّهِ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، لَا مَا نَشَاءُ، وَهُوَ مَنْ شَاءَ الْفَرْضُ فَرَضًا!

وقد سُئِلَ ذُو النُّونِ:

«ما لنا لا نقوى على النوافل؟»

قال: لأنَّكم لا تتقنون الفرائض!..

فَفَتِّشْ عَنْ فَرِيضَتِكَ، زَوْجًا كُنْتَ، أَوْ أَبًا، أَوْ أُمًّا، أَوْ أَسْتَاذًا، أَوْ مَسْئُولًا،
أَوْ ابْنًا، أَوْ حَامِلَ أَمَانَةٍ!

فَفَتِّشْ عَنْ فَرِيضَتِكَ، فَاللَّهُ سَائِلٌ كُلًّا عَمَّا اسْتَرَعَاهُ!

سَمِّ فَرَائِضَكَ..

وإِيَّاكَ وَالتَّيَّاسَ الْخُطَى.

وَالْفَقِيه..

مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَائِضَ الْفَرْدِ، لَيْسَتْ هِيَ فَرَائِضُ الْجَمَاعَةِ.

وَأَنَّ الْعَاجِزَ عَنْ فَرِيضَتِهِ، عَاجِزٌ عَنْ فَرِيضَةِ أُمَّتِهِ.

ولربِّمَا انْتَهَى عُمرُهُ إِلَى شَيْخُوخَةٍ عَثِيَّةٍ الْخَطَوَاتِ، مَضَتْ بَيْنَ نَافِلَةٍ وَعَمَلٍ
أَدْنَى، وَقَدْ كَانَ الْوَقْتُ بِالْفَرِيضَةِ الْوَاجِبَةِ أُخْرَى!

اتَّخَذَ الْكَاتِبُ الرُّوسِي (أَنْطُونُ تَشِيخُوف) لِنَفْسِهِ بَيْتًا بَسِيطًا.

وأَمْضَى وَقْتَهُ فِي تَجْمِيلِهِ وَتَنْمِيقِهِ وَإِضْفَاءِ لِمَسَاتِ فَنِيَّةٍ عَلَى كُلِّ رُكْنٍ فِيهِ،
 زَارَهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَحَدُ النُّقَادِ، فَأَبْدَى انْبِهَارَهُ بِالْمَنْزِلِ الرَّائِعِ الْفَرِيدِ!
 فَقَالَ الْكَاتِبُ الْحَكِيمُ: «لَوْ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ اهْتَمَّ بِتَجْمِيلِ الرَّقْعَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي
 يَحْتُلُّهَا مِنَ الْعَالَمِ، لَعَدَا كَوَكَبُنَا هَذَا فِتْنَةً لِلْأَنْظَارِ!».

فَفْتُشْ عَنْ فَرِيضَتِكَ..

فَلَلْمَرَا حِلْ فَرَائِضُ، وَلِكُلِّ مَنَّا أَمَانَتُهُ، إِذْ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا
 وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾!

احمل مصباحك ولو كان خالياً، فالله يوقد ما كان ذابلاً، احمله ولا تخش
 العتمة..

فَإِنَّ الْفِتْنَ خَطَافَةٌ، وَالطَّرِيقُ زَلَقَةٌ، وَالشَّيْطَانُ يَسْقِي ذَوَابِلَ الْأَعْمَالِ، لِيَفُوتَ
 عَنْكَ الْمَعَالِي!
 لَذَا..

إِيَّاكَ وَغَفَلَةَ السَّعْيِ فِي النَّافِلَةِ.
 وَتَنَسَّى أَنْ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَجَبَ عَلَيْهِ تَعْجِيلُهُ.
 وَمَنْ خَانَ مَوَاعِيدَ الْفَرِيضَةِ، خَانَ النَّافِلَةَ!

أَحْصِ فَرَائِضَ عَيْنِكَ، وَجَبِّيكِ، وَزَوْجِكَ، وَأَهْلَ بَيْتِكَ، قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ الْمَسْبُوحَةَ.
 وَاتَّبِعْ نَبِيَّكَ ﷺ فِي فَقِهِ التَّدْيِينِ!
 انظر إليه، يتلمس رغبة عائشة من المباح المقدور عليه قبل تصريحها
 بطلبه، فيقول لعائشة:

«أَتُحِبُّينَ أَنْ تَرِي لِعِبْهَمِ؟» لِلْأَحْبَاشِ!
 يَقْدِّمُ حَقَّهَا عَلَى نَافِلَةٍ مَشَارَكَتَهُمْ دُونَهَا.

وَكَانَ الرَّبُّ يُبَاهِي بِقَوْلِهِ عَنْ زَوْجَتِهِ: «لَيْسَ تَرُدُّ الْقِيَامَةَ أَكْثَرَ
 كِبَاشًا مِنْهَا، ضَحَّيْتَ عَنْهَا سَبْعِينَ كَبْشًا»،

قَوْمٌ فَقَهُوا فِقْهَ الْعِبَادَةِ!
فَقِهَ حَقَّ الزَّوْجَةِ، فَقَدَّمَ لَهَا مِنْ مَالِهِ.
فَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَمْشِي فِي رَمَادِ الْفَرِيضَةِ، فَيَطُولُ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ!

لا تكن نافلتك استدراجًا

إِنَّ الشَّغْلَ بِالنَّافِلَةِ عَنِ الْفَرِيضَةِ إِغْرَاءُ الشَّيْطَانِ، كَيْ يَنْقِلَكَ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى..

فَتَفْقَدَ سَعِيكَ، أَهْوٍ فِي فَرِيضَةٍ، أَمْ هُوَ فِي نَافِلَةٍ!
تَفْقَدُهُ حَتَّى لَا تَكُونَ مِمَّنْ يَسَاقُ لِلنَّافِلَةِ اسْتِدْرَاجًا عَنِ الْفَرِيضَةِ.

وَلَا يَفْقَهُهُ فَرِيضَةَ الْبَدءِ، إِلَّا مُبْصِرٌ

فَاسْأَلِ اللَّهَ بِصِيرَةِ الثَّبَاتِ!
وَأَذْكُرْ يَوْمًا تَرَى السَّعْيَ زَبَدًا مُرْهَقًا، إِذَا خَلَا مِنْ وَاجِبِهِ.
فَأَوْصِدْ بَابَكَ عَنِ نَافِلَةٍ، تَسْتَدْرِكَ وَتُغْرِكَ.
وَمَا يَثْبُتُ وَاللَّهِ عَلَى الْفَرَائِضِ.. إِلَّا مُوَفَّقٌ!

وَمَنْ يَزْعُ خُشُوعَ صَلَاتِهِ وَبِرَّ وَالِدَيْهِ وَحَقَّ أَهْلِهِ، يَزْعُ فِي أَجُورِ نَعِيمِهِ.
وَمَنْ عَرَفَ فَرَائِضَهُ، فَقَدْ فَتَحَ الْبَابَ بَعْدَ الْبَابِ إِلَى مَا لَا يَشْرَحُ!

فَتَفْقَدَ وَعِيكَ بِقَضَايَا الْأُمَّةِ قَبْلَ ذِكْرِكَ..
وَزَوْجَكَ قَبْلَ صَدِيقِكَ..
عِيَالَكَ قَبْلَ قِيَامِكَ!

وَاللَّحْظَةَ مُتَعَبَةً فِي رَفْعِ قَوَاعِدِ دِينِكَ أَوْ إِطْفَاءِ بَاطِلٍ وَإِخْيَاءِ حَقٍّ شَاهِقَةٍ
أُجُورَهَا، فَلَا تَدْعُهَا لِنَافِلَةٍ ذَكَرَ.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: «كُنْتُ عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَقُمْتُ لِلصَّلَاةِ وَأَنَا أَنْظُرُ فِي الْعِلْمِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَمَعْتُ كُتُبِي وَقُمْتُ لَأَرْكَعَ النَّافِلَةَ، فَقَالَ لِي مَالِكٌ: مَا هَذَا؟! قُلْتُ: أَقُومُ لِلصَّلَاةِ، قَالَ: إِنَّ هَذَا لَعَجَبٌ فَمَا الَّذِي قُمْتَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلَ مِنَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ فِيهِ!».

فَمَدَّ مِنَ الْفَرَائِضِ إِلَى الْفَرَائِضِ حَبْلَهَا، وَأَوْتَقَ بِهَا عُرَى ثَبَاتِكَ، وَشَدَّ بِالْفَرَائِضِ مِنْ دِينِكَ مَا ارْتَحَى.

وإِيَّاكَ أَنْ تُطِيلَ الْقِيَامَ فِي نَافِلَةٍ، وَتَعْجزَ عَنِ الْقِيَامِ عَلَى عِيَالِكَ!

وَقَدْ قِيلَ:

«يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُكْرِهَ وَلَدَهُ عَلَى الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْهُ!»

فَتَفَقَّدَ فَرَائِضَكَ، وَانْشَغَلَ بِهَا تَبَاعًا.

وَمَنْ قَرَّبَ مِنْ بَعْضٍ، وَصَلَ إِلَى كُلِّ!

وَأَفَقَهُ..

أَنَّ مَا بَيْنَ أَعَالِي الْأَجُورِ وَالْخَسَارَاتِ، نَافِلَةٌ يَزِينُهَا لَكَ الشَّيْطَانُ لَتَظَلَّ فِي

الْهَامِشِ الَّذِي لَا يُسْتَدْرَكُ!

ذَاكَ وَرَبِّي غَبَشُ الطَّرِيقِ، يَبْقَى السَّيْرُ مُرْتَبِكًا.

تَخَفْتُ أَجُورَكَ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْبِي مَوَازِينَ فَارِغَةً إِلَّا مِنْ

فَضْلَةِ أَجْرٍ!

ثَمَّةَ سِرِّي فِي قَوْلِهِ: «مَا تَقَرَّبَ عَبْدِي إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ مِنِّي أَوْ تَرْضَاهُ عَلَيْهِ».

فَتَهَجَّ خَطَى الْعُبُورِ.

وَأَقْرَأَ مِنَ أَلْوَاحِ الْمَعَانِي سِرَّ الْقَبُولِ.

الخطوة الثامنة

وأعظم الفرائض إقامة الصلاة،
وليس كلّ محلّ مُقيماً!



﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾..

لَمْ يَرِدِ الأَمْرُ بِالصَّلَاةِ، إِلَّا وَجَاوَرَهُ الأَمْرُ بِالإِقَامَةِ.

كَأَنَّ الصَّلَاةَ مَعْنَى مُتَلَبِّسٍ بِالإِقَامَةِ وَلَيْسَ بِالْأَدَاءِ!

فَالْإِقَامَةُ، تَحْمِلُ مَعْنَى اللَّبْثِ فِي الْمَكَانِ، وَتَوْفِيَةِ الشُّرُوطِ مِنْ قَوْلِهِمْ: «قَامَتِ السُّوقُ».

وَلَا تَقُومُ السُّوقُ وَتَنْتَضِبُ، إِلَّا إِذَا اكْتَمَلَتِ أَرْكَانُهَا، وَتَجَارَتْهَا، وَشَدَّتْ بِالْحَبَالِ أَسْوَارَهَا!

لِذَا قَالَ السَّلَفُ فِي تَفْسِيرِ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

لَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِمَجَرَّدِ صِفَةِ الصَّلَاةِ دُونَ إِقَامَتِهَا، لِأَنَّ الْمُؤَدِّينَ كَثُرَ، وَالْمُقِيمِينَ قَلِيلَ!

وَقَدْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا قَالُوا..

فَقَدْ كَانَتْ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فِي فَهْمِهِمْ كَأَنَّهَا أَسْبَابُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي تَقُولُ: بِهَذِهِ الصَّلَاةِ تَبْنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ إِقَامَةً لَكَ، لَا زَوَالَ لَهَا!

إِذَا كَانَ ذَلِكَ بَعْضُ وَعْدِ اللهِ.

إِنَّ مِنْ أَقَامَ لِلهِ صَلَاتَهُ، أَقَامَ اللهُ لَهُ حَيَاتِهِ!

فَهَلْ إِذَا بَلَغَتْ الصَّلَاةُ، خَلَعْتَ الدُّنْيَا مَعَ نَعَالِكَ؟

وَهَلْ تَزِيدُكَ الْإِيَّامُ اجْتِمَاعًا عَلَى اللهِ!

هَذِهِ صَلَاةُ عَبْدٍ يَعْضُذُ نَفْسَهُ عَلَى رَبِّهِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ.
صَلَاةٌ بَلَغَتْهُ عَافِيَةُ الْعَاقِبَةِ، وَأَطْفَأَتْ لَهُ فَتْنَةَ الدُّنْيَا، فَمَضَى وَلَمْ يَغْمَسْ فِي الْفِتْنَةِ يَدِيهِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾..

إنَّ ثَمَّةَ خطوةٍ أولى إذا تعلَّمتها، ستستسلم لك باقي الخطوات!

ثَمَّةُ ترتيل في قيام طويل يتبعه انحناءات كثيرة..

قيامٌ سيجعل العروج الفلكيَّ إلى الله، مختزل في سويغات!

وثَمَّةُ نوح خفيٍّ في مزاميرك الخاصة، ستجعل الذَّرات تنتظم حولك،

وربَّما ستفهم ساعتها معنى التَّسخير!

ستلتقط حينها معنى: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، ﴿وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً﴾.

وكان ذلك بعد إن بلغ مقام: ﴿يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾!

وربَّما تقترب من أنفاس الملائكة وهي تملأ المحراب بالبشارة على زكريَّا

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

ولعلَّك تفهم لماذا ظلَّ الأمر بـ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ من بعد وليس بـ «أدَّوا»،

فسَّره النَّبِيُّ ﷺ بـ قدمين نزلتا من طول الوقوف وكثرة التَّرتيل.

لذا، كانَ بعضُ الصَّالحين حين يهرع إلى صلاته، كأنَّما يمسك بخيوط

خَفِيَّةٍ، تَنسِجُ له عَبَاءةَ السَّتر، أو عَبَاءةَ اللُّطف، أو قُلَّ عَبَاءةَ من فَيْضِ الحَنَّانِ

الْمَنَّانِ.

كان أحدهم إذا وقَّف لصلاته، يَتَماسك وهو يَتَسامى إلى مقام المُناجاة!

فإذا قرأ الفاتحة تَنَاغم مع الصَّوْتِ الجليل وهو يَرُدُّ عليه: «ولِعَبدي ما

سأل».

وقل لي بربك أيَّ هدم، وأيَّ مَعاول تَصِلُ البنيان الذي شُدَّتْ أوتاده في

أَسرار «ولِعَبدي ما سأل»؟!

تراه يَمِيد، وهو يستلم مفاتيح الخير، ثمَّ يغوص بَعدها، في كلِّ الأمالِ التي

استَبِيحت له.

حتَّى كأنَّه يمسك بدفءٍ هائل، فقد زالَ لهيبُ الشَّمسِ من حياته!

نقرأ في أخبار السَّلف، فنذكر أنَّ أحدهم كان لا يُصَلِّي، بل كان يَتَّصِل!

فإذا سَجَد سَجْدَةً، أودَّعها أَسرار مُحَبٍّ يَتَمَنَّى.

وكان لاستغراقهم في ذلك معنى عظيم، معنى يشي بأن بينهم وبين الله حديثاً طويلاً.

كان الواحد فيهم يتنفس تسابيح، حتى تحس إذا بلغك شيئاً عن صلاته، أن نعمة شيئاً كان يسري في رُوحه من تراتيله!
كانت الصلاة في أعمارهم معنى القرب!
ولقد قالها الصالحون:

«قُرْبُ بَيْتِكَ مِنَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، كَقُرْبِ قَلْبِكَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا».
فاقترب منه اليوم، حتى لا يبقى بينك وبينه إلا قُرب الآخرة!
اسع إليه سعيًا.

واذكر أنك لو جئتته مشيًا، لأتاك هرولة!
«لأتاك»..

أَوَاهُ لَوْ تَتَمَلَّاهَا لَطَرَّتْ إِلَيْهِ.
وطويت الروح في جنبه.
وبللت قلبك بدمع المحب!

وإن ذقت وصلًا به، فهمت لماذا بكى إبراهيم حتى قال العلي عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوْهُ مُنِيبٌ﴾.

وقد قيل:

«مأوى روحك ما هويت»، فانظر بالله عليك ماذا عشقت!
صل له اليوم..

بهرولة القدوم على الحبيب!
صل له..

متوضئًا بالشوق!

واعبر من الفرش المسجى تحتك ماشيًا، وراكضًا، ومتعجلًا.

وقل له: ﴿وَعَجِلْتُ﴾!

إياك أن تحبوا..

إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَتَّرَ!

رَبِّمَا تَبْدُو لَكَ كُلُّ خَطْوَةٍ وَلَادَةً عَسِيرَةً.

لا بأس..

فبعدها

ستلَهْتُ الجَدَاوِلُ فِي إِثْرِكَ..

وَسَيَغِيضُ الْبَحْرُ إِذَا قُورِنَ بِفَيْضِ الْمُنَى عَلَيْكَ..

كَأَنَّهَا جُودُ السَّحَابِ مِنْ عَلَيَّيْنِ إِلَيْكَ!

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾..

هي الصَّلَاةُ إذن وصف بها أهل الفردوس مرَّتين دونًا عن باقي الصِّفَاتِ

في سورة المؤمنين.

وخرجت الرُّوح الطَّاهِرَةُ وهي توصينا بها، وهي أوَّل سؤال لنا في أوَّل

لقاء بالله!

فلنبداً إذن من حيث يحبُّ هو، فهي الَّتِي كَلَّمَا أَكْثَرَتْ مِنْهَا، جاءك الوعد،

كنت بصره، وكنت سمعه، وكنت يده..

في زمن الفتنة والتَّيَّة، وفي رغبة الطموح والإنجاز، وفي وقت الضَّعْف

والعجز، سيكون هو السَّمْع واليد والقُوَّة الممنوحة لك، لتعبر الطَّرِيق!

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾..

آية ما زلتُ أمرُّ عليها في تلاوتي، ثم أطفو بجانبها من تشتتي وجَزَع

انقطاعي.

وما زلتُ كَلَّمَا قرأتها أبحثُ عن الحَلَقَةِ المَفْقُودَةِ، بيني وبين هؤلاء

المتَّصلين.

ثُمَّ أَتَمَّمْتُ وَأَنَا أَحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنْ قَاعِ سَحِيقٍ:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾..

وأوصلني يا واصل المنقطعين كَيْ أَتَّصِلَ!

فإن سألت:
لماذا لا أخشع في صلاتي؟

فاعلم أن هذه فسحةٌ من العمر فيها الكاف والنون.

لكنك تأوي إليها، وأنت بكامل غيابك.

تأوي إليها، وأنت مزدحمٌ بشتاتك!

تمضي في حواراتك.

والله سميعٌ لغفلتك عنه!

أنسى تصل إليه، وأنت تزيد المسافة إليه!

اصمت في عمقك بضع دقائق.

واجمع يمين القلب على الشمال.

وصف المواجه شطر اليقين، وقل:

الله أكبر.

ورددها: الله أكبر!

وقل: ما لهذا القلب في فرط الصيام بين يدي من يملك زمزم الأمنيات؟!

اثبت، وأسبل عجزك وفقرك..

وطأطأ حتى تلامس بـ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كُلَّ حُطَامِكَ!

وفي ملكوت الله..

طُف بياسك، وامنح هزائمك أسرار البوح مع الله!

هي دقائق، بها بدء خواتيم ما أهمك!

الصلاة لا تهبك خزائنها، إن كنت عابراً سبيل فيها!

فاسأله بكل جوانحك ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.



الخطوة التاسعة

احذر خفي الافتتان، ولا
تنس أن في الحسنات ربيتنا
ومرؤوسنا



فَمَا بَعْدَهَا، إِلَّا رَحِيلُ الْمَقَامَاتِ.
يَأْتِيكَ خَفِيُّ الْافْتِتَانِ، فِيمَا لَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْلَمُ..
لِذَا قَالَ لَكَ: ﴿وَأَعْلَمُ﴾!

خَفِيُّ الْافْتِتَانِ يَأْتِيكَ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ تَسْتَغْرِقُ فِيهِ، وَتَنْسَى أَنَّ فِي
الْحَسَنَاتِ رَئِيسًا وَمَرُؤُسًا، فَتُزَاحِمُ الْمَنَاقِبَ فِي أَعْمَالٍ سَاقَةِ الْقَوْمِ، وَتَخْلُو
مِنْكَ طَرِيقٌ، هِيَ الْأَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ.
وَتِلْكَ فَتْنَةٌ، يَفْقَدُ الْعَبْدُ فِيهَا فِي سَوْقِ الْمُرَابَحَةِ الْكَثِيرِ الْكَثِيرَ!

افقه مراتب الأعمال عند الله
إِذْ يَجِيئُكَ إِبْلِيسُ وَأَنْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ، فَيُشِيرُ عَلَيْكَ دُونَهُ لِيَرْبَحَ عَلَيْكَ
شَعِيرَةً!

وَيَفُوتُ عَلَيْكَ أَجْرُ السَّبْقِ، وَيَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْمَسِيرِ!
وَقَدْ قَالَ لَكَ اللَّهُ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

فإياك ومحقرات الأرباح وقد شاءك خيارًا من خيار.
وفي يوم التغابن يبصر المرء السهم الأخبى من السهم الصائب.
فقل:

اجعل اللهم السعي جيلًا يتلوه جيل وشواهد إلى يوم الدين، ولا تجعل زمن
الهباء ولا الصحائف، سفر الخواء.

لِذَا اعْتَزِلْ مَا يُنْقِصُكَ، وَلَا تَلْتَفِتْ

فَمَا بَيْنَ حَسَنَةٍ عَلِيَا وَحَسَنَةٍ أَقْلٍ: مَسَافَاتٌ تُسْتَثْمَرُ الْأَعْمَارُ فِيهَا!
وَقَدْ أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾
[الزمر: ١٨].

فَاقْدَحْ فِي خَاصَّةِ قَلْبِكَ نَوْرًا، تَمَيِّزُ بِهِ الْأَعْمَالُ وَمَرَاتِبُهَا عِنْدَ اللَّهِ.
فَلَا تَبْلُغْكَ حَسْرَةُ الْجَهْلِ وَفَوَاتُ السَّبْقِ!
وَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمْ:

«بَحِثْتُ عَنْ مَوَاطِنَ رِضَا اللَّهِ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا عَظِيمُ أَجْرِهِ فَوَجَدْتُهَا فِي
فَرَحَةٍ أَمْ أَدْهَشْتُهَا هَدَايَا الْعَطَاءِ».
حَتَّى فَاضَتْ بِالْإِدْعَاءِ لَكَ فَغَمَرَتْ غَيْثَهَا كُلَّ مَا أَجْدَبَ فِي حَيَاتِكَ.
وَغَسَلَ كُلَّ مَا تَلَوَّثَ مِنْ ثِيَابِكَ.
وَزَحَزَحَ الصَّخْرَةَ الَّتِي أَغْلَقْتَ أَبْوَابَكَ.
فَلَزِمْتَ مَقَامَهَا وَصَلَّيْتَ فِي مَحْرَابِهَا وَقَلْتَ: عِنْدَ بَاطِنِ قَدَمَيْهَا ثَمَّةٌ جَنَّةٌ،
وَإِنِّي لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ مُحْتَاجٌ وَفَقِيرٌ.

وَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ السَّيْرِ وَالسَّبْقِ، إِلَّا إِدْرَاكُ الْأَهَمِّ فَالْمُهْمِّ.
فَمَيِّزْ مَوَاطِنَ الْقَدَمِ..
فَإِنَّ فِي بَعْضِ الْحَسَنَاتِ مِنَ الْبَرَكَةِ، مَا لَا يَدْرِكُهُ الْخِيَالُ.
وَفِي سَاعَةِ الْفَضْلِ، فَوْقَ مَا يُرْتَجَى.
تَبْلُغُ بِهَا مَقَامَ ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾!

وَبَعْضُ الْخُطَى، أَلْفُ خُطْوَةٍ لَا تَدْرِكُهَا.
تَسْتَجِدِي اللَّحَاقَ، وَلَا تَلْحَقِ.
فَلَا تَزْدَحِمُ بِمَا لَا يَشْتَغِلُ لَكَ ثَوَابًا عَالِيًا!

وما بين وهن الخطوة وبراق السعي، فقه الأهمّ فالهمّ
وتلك هي الغنائم!

وما أسرع القبول، ممّن يتشبّث بالربّح المقيم.

ومن امتلك صهوة الفهم، ارتفع.

فاسأل الله، وقُل:

يا ربّ..

سَيِّرْنَا فِي أَقْرَبِ الطَّرِيقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ، وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الَّذِينَ هُمْ بِالْبِدَارِ
إِلَيْكَ يُسَارِعُونَ!

ثمّ تأمّل حكاية الإمام عبد الله بن وهب المِصري -أحد كبار تلاميذ
الإمام مالك رحمه الله- كَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مُرَابِطًا، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ
نَشْرَ الْعِلْمِ، فَقَالَ:

«هَذَا بَلَدُ عِبَادَةٍ» فَتَرَكَ الْجُلُوسَ لَهُمْ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ، وَأَقْبَلَ
عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْحِرَاسَةِ.

فبعد يومين، أتاه إنسانٌ فأخبره: «أَنَّهُ رَأَى نَفْسَهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،
وَالنَّبِيُّ ﷺ فِيهِ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ يَمِينِهِ، وَعُمَرُ عَنْ شِمَالِهِ، وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفِي
الْمَسْجِدِ قَنَادِيلُ تَزْهَرُ أَحْسَنَ شَيْءٍ وَأَشْدهَا ضِيَاءً، إِذَا طَفِيتْ مِنْهَا قَنْدِيلًا
فَانْطَفَأَ، فَقَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

قُمْ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَوْقِدْهُ، فَأَوْقِدْتَهُ، ثُمَّ آخَرَ كَذَلِكَ..

ثمّ أقمتُ أيامًا فرأيتُ القناديلَ كُلَّهَا هَمَّتْ أَنْ تُطْفَأَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ
اللَّهِ: أَمَّا تَرَى هَذِهِ الْقَنَادِيلَ؟ فَقَالَ ﷺ: هَذَا عَمَلُ (عَبْدِ اللَّهِ) يَرِيدُ أَنْ يَطْفِئَهَا.
فبَكَى ابْنُ وَهْبٍ، وَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: جِئْتُ لِأُبَشِّرَكَ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ يَغْمُكُ لَمْ
آتِكَ.

فقال: خير، هذه الرؤيا وعظمتُ بها نفسي، ظننتُ أنَّ العبادة أفضل من نشر العلم!..

فترك كثيرًا من عمله للعلم، وحبس نفسه لهم يقرؤون عليه ويسألونه!

فَقَدَّمَ الْأَهَمَّ عَلَى الْمَهْمِ..

وكن في قلب يونس، يوم باح بدمعه في أسرار الظلمات:

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١٧) ..

إذ ترك دعوته ﴿مُعَاضِبًا﴾!

فترك الأهم والأعظم.

هذا الدين، جراحه مفتوحة..

فأين أنت من صوت عبد القادر:

«وما أحبُّ أنَّ الإسلام يُشاك بشوكة، وأنا في بيتي جالس»!

فاسأل الله دلائل الطريق إلى حيثُ تَفْنَى الأعمار ولا تَفْنَى أجورها!

وفقه المقامات، ألا تقعات السراب وأنت تظنُّه ماء.

دع عنك أضغاث الشَّتات، وأبصر من أثر الرُّسول ﷺ خطوة، واقبض بكفِّ عمرك على ميراثه، وانبذ عنك ما سوى «عالمًا أو متعلِّمًا».

وقل:

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ، وَقَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعِيدَ مِنْ مَقَامَاتِ الْقُرْبِ،
وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسِيرَ الشَّدِيدَ!

إِنَّ الفهم عن الله، أن تدرك ماذا ينتظرك عند الله بعد نهاية الرحلة. ولقد رُئيت (منيفة) بعد موتها في المنام، فقيل لها: يا منيفة، ما حال النَّاس هناك؟

فأقبلت وقالت: «عن أي حالهم تسأل؟». الدار واحدة لأهل الطاعة، يتعالون فيها بتفاوت الأعمال! فخذ سعيك إلى زمزم الأجور، واقبس من وجه النبي ﷺ نورك، ويمم حيث يمم.

ولا قرب بعد قرب الأنبياء، إلا لمن حمل ميراث الأنبياء!

وأنصتْ لعبد القادر الجيلاني، إذ يقول: «أراد الله مني منفعة الخلق، فقد أسلم على يدي أكثر من خمسمائة، وتاب على يدي أكثر من مائة ألف، وتلك طريق مُحَمَّد!». والإمام أبو الفرج -وهو تلميذ ابن عقيل- يقول سبطه أبو المظفر عنه: سمعته يقول على المنبر في آخر عمره: «كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهوديً ونصرانيً»، وهذا من التَّحَدُّثِ بالنَّعم.

و إن أَوَّلَ الغياب عن مرتبة السَّبق
وفَقَدُ الفهم لهذه المعاني، هو أَوَّلُ الغياب عَن مرتبة السَّبق.
﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.
وَمَنْ كَانَ بِلَا بَصِيرَةِ الْعِلْمِ، اسْتَدْرَجَهُ الشَّيْطَانُ بِالزَّلَلِ!

أَلَا تَرَى (جُرَيْج) فِي نَافِلَةِ الصَّلَاةِ، لَا يَكْفُ عَنْ الذِّكْرِ، وَلَا تَكْفُ أُمُّهُ عَنِ النَّدَاءِ.

وَعَفَلَ أَنَّ «لَهَا قَدَمًا فِي الْجَنَّاتِ سَقْفٌ». فما قالت إلهي، حتَّى رُمِيَ بِتُهَمِ الْمُومَسَاتِ!

إِنَّ الْحَسَنَاتِ رَئِيسُ وَمَرُؤُس..

وَالْفِتْنَةُ، أَنْ تَكُونَ فِي حَسَنَةٍ قَائِمًا مَرَابِطًا، وَلَوْ كُنْتَ فِيهَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا،
لَأَفْرَغْتَ سِلَاحَ الْأَجْرِ فِي صَحَائِفِكَ الثَّوَابِ!

وَمِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَدْرِكَ أَنَّهُ، «لَا يُقَدَّمُ الصَّالِحُ عَلَى الْأَصْلَحِ إِلَّا جَاهِلٌ بِفَضْلِ
الْأَصْلَحِ، أَوْ جَاهِلٌ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَا بَيْنَ الْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ».

انظر كيف تدنو الصحابة من رسولٍ بالهمم الثقّال، وتَسأله:

أَيُّ الْأَعْمَالِ (أَحَبُّ) إِلَى اللَّهِ؟

أَلَا تَرَى الْهِمَمَ مُتَعَلِّقَةً بِأَزْمَانِ الْفَرْدُوسِ؟

وَلَقَدْ فَقِهَ الثَّوْرِيُّ أَحْوَالَ الْقَوْمِ، فَقَالَ:

«أَخَذُوا بِرَأْسِ الْأَمْرِ، فَصَارُوا عِنْدَ اللَّهِ أَيْمَةً وَرُؤُوسًا!»

وَلَوْ نَقَصْتَ مِنْهُمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ بُرٍّ، تَحَسَّرُوا.

وَمَنْ ذَا يَلُومُ أَهْلَ السَّبْقِ، عَلَى حَسَرَاتِ الْفَوْتِ!

لِذَا اقْرَأِ الْمَفْقُودَ فِي عَمْرِكَ مِنَ الْأَجْرِ، تُبَصِّرْ!

إِنْ قَدْ يَنْتُرِكَ الشَّيْطَانُ فِي حَسَنَاتٍ، فِيهَا احْتِمَالُ النِّجَاةِ.

يُشْغَلُكَ بِالْأَدْنَى عَنِ الْأَعْلَى.

وَقَدْ قَالَ السَّلَفُ:

وَإِنَّ مِنَ التَّوْبَةِ: التَّوْبَةُ مَنْ تَرَكَ الْحَسَنَاتِ الْمَأْمُورُ بِفَعْلِهَا!

وَعَلِمْنَا السَّلَفُ أَنَّ «التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْمَطْلُوبَاتِ مِنْ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرِّ
الْمَفَاسِدِ، لِذَلِكَ انْقَسَمَتِ الطَّاعَاتُ إِلَى الْفَاضِلِ وَالْأَفْضَلِ، وَانْقَسَمَتِ مَصَالِحُهَا
إِلَى الْكَامِلِ وَالْأَكْمَلِ»!

فَابْحَثْ عَنِ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ.

رَبِّمَا تَنْتَعِلُ امْرَأَةٌ خَطَوَاتِهَا عَلَى رِمَالٍ بَعِيدَةٍ عَنْ بَيْتِهَا...

تُضْني رُوحها في سَعْيٍ، يُبَلِّغها قارعةً طريق الأجر.

وما علمت.. أَنَّ خديجة بُشِّرَتْ «ببيتٍ من قصَبٍ لا نصَبٍ فيه ولا تعبٍ» لما

أفاضت على النبي ﷺ من نعيم السَّكن!

تلك حسنة عليا، لا يدانيها عمل، وما سواها لا يبلغها!

وقليل من تتقن صناعة السَّلام في بيتها، وقليل هم!

فاحذر خَفِيّ الافتِتان، ولا تنسَ أَنَّ في الحسنات رئيسًا ومَرؤوسًا.



الخطوة العاشرة

وتعلم واجب الوقت،
وفريضة المرحلة



إذ في فضاءات العمر، مواسم لا تحتل التأجيل، وفي دورة الحياة، مواعيد لا تقبل التأخير..

فلهفة طفلٍ على صدر أمّه، وشرّاع سفينة في بدء إبحارها!
وحرف يرتسم في سطر حكاية زواج ملهمة، وغياب في كهف من العزلة،
لصناعة ذاتٍ مؤثرة..

وزمن من البناء لعتبة مشروع بعيدًا عن ضجيج الحياة..
كلُّ ذلك يعني واجب الوقت، وفريضة المرحلة، التي بها تتفاضل الأعمال،
وتنال الحياة معنى ثمينًا.
ففتّش عن واجب وقتك..

فَلِلْمَرَاكِحِ وَاجِبَاتٌ، وَلِكُلِّ مَنَّا أَمَانَتُهُ، إِذْ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا^ط
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ^ق﴾.

واجب الوقت

أن تدرك أنَّ للطُّرق واجباتها، وللمراحل واجباتها، وللمواسم حسناتها..
وفرق بين واجب الوقت، وواجب ينتظره الوقت!
واجب الوقت: أن تعرف ماذا ينبغي أن تفعل الآن.
وما بعد الآن هو ضياعها!

تتسرَّب منك اللَّحظة، تنفلت منك، ثمَّ تنتظرك في القيامة تطلب حقَّها.

«عندما يشبُّ حريق في بيت، ويدعوك أحدهم إلى الصَّلَاة والتضرُّع إلى الله لإطفاء الحريق، ينبغي لك أن تعلم أنَّها دعوة خائنة، أطفئ الحريق ثمَّ صل! إن ترك الحريق خيانة!»!

والفقه كلُّ الفقه أن تعرف أنَّ في كلِّ مرحلة مهمَّة، فلا تأجيل ولا تضييع، والموفق من رأى ببصيرة قلبه واجب وقته.
فاحمل نفسك على سَفَرٍ يزيدك قربًا وبَسْطَةً في النِّعَم، وقُل: حيَّ على فقه التَّدَيُّن.

حيَّ على فقه الطَّرِيق!
ويا لسرابِ الخطي..
إذا لم نفقه أينَ واجب الوقت.
فيصبح السَّعي كأنَّه الصَّلَاة الفائتة!
ويا لانصبابِ العُمر، في صلاةٍ ليس هذا وقتها.

فافهم واجبَ الوقت، إذ هو سَجَلُ النِّجَاة..
وكلُّ سعيٍ سواه، وهنَّ على وهن!
ففتش عن واجب الوقت في كلِّ مرحلة من عمرك، ولكلِّ عبادته وأمانته، فلا تكن مع القطيع!

قال العزُّ بن عبد السَّلام سلطان العلماء:
«تَنَقَّسِ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدُ إِلَى نَفِيسٍ وَخَسِيسٍ، وَدَقِيقٍ وَجَلٍّ، وَكُثْرٍ وَقُلٍّ، وَجَلِيٍّ وَخَفِيٍّ، وَاجِلٍ أَخْرَوِيٍّ وَعَاجِلٍ دُنْيَوِيٍّ»، وبينهما مراتب ومراتب!

ويا خيبةَ العُمر..
إنَّ كان يومًا في المِيمنة، ثمَّ صار في المَشْأمة..
لقلَّةَ الفهم عن الله!

وإنَّ النَّفْسَ إذا اسْتَوَطنَها وِباءُ الجَهلِ، فرَّتْ منها الأسرار..

فَكُنْ مَمَّنْ لا يَنْقُضُونَ المِيثاقَ، ويغيّبون عن واجب الوقت وفريضة المرحلة!

وما الطَّرِيقُ بينَ أعلاه وأسفله، إلَّا أنْ تَسُدَّ البابَ، وتَقطَعَ على تلبّيسِ إبليسِ الأسبابَ!

اقطَعَ الطَّرِيقَ، وإنْ خَلا..

وعلى مشارفِ الخِتامِ، سَتَرى ﴿ثَلَاثَةً مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾.

أولئك مَن اصْطَفَى!

اصطفى بالعلم والفهم والسير..

وَمَن لَزِمَ فِقهَ السَّيرِ، عادَ من الفَراغِ مَليئًا.

ولا تَنْتَظِرُ الزُّحامَ، فبعضُ الطُّرُقِ ليس فيها إلا أنتَ.

وما كُشِفَ للعبيدِ النُّقصانُ في حاله، مثل القراءة في كتب السلف الصالح

فقد أوتي كلهم نُورًا!

واقراً كتاب (قواعد الأحكام) للعزُّ بن عبد السَّلام، تدرك أنْ واجب الوقت

عبادة لا تُنال إلَّا بالعلم!

وإنَّما يَنْشَطُ الشَّيْطانُ في الصُّوارفِ عن رئيسِ الحسنات وليس

عمَّا دونها

فَتَحَرَ السَّبَقُ..

والخاسِرُ، مَن تَرَكَ رِبْحًا!

وارْصُدْ يَقْظَتَكَ للقواطعِ المُباغِثَةِ.

واحْذَرْ دُعاةَ خطواتِ الشُّرودِ..

فإنَّه يَتَّبِعُ بعضها بعضًا، فلا تَرى نفسك بعدها إِلَّا هاوِيًّا!
 احْذَرِ مِنْ حَسَنَةٍ مَحْبُوكَةٍ بِالْهَوَى، تُجَقِّفُ لَكَ ضُرُوعَ الْأَجْرِ.
 احْذَرِ خَفِيَّ الْاِفْتِتَانِ، وَلَا تَنْسَ أَنَّ فِي الْحَسَنَاتِ رُئِيسًا وَمَرُؤَسًا.
 أَتَرى مَنْ يَقِيمُ حُرُوفَ الْقُرْآنِ، مِثْلَ مَنْ يَقِيمُ بَنِيَانَ الْإِسْلَامِ؟!
 شَتَّانَ شَتَّانَ!

قَوْلُ قَلْبِكَ رَبِّكَ، وَقُلْ:
 اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا أَرَائِكَ السَّابِقِينَ..
 وَاجْعَلْنَا فِي قَدَرِ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٨﴾﴾!
 هَذِهِ آيَةٌ تُشْعِلُ النُّورَ فِي بَصِيرَتِكَ.

وإِيَّاكَ وَتَرَادُفَ الْغَفَلَاتِ فِي الْعَمَلِ.
 إِيَّاكَ وَتَرَادُفَ الْجَهْلِ فِي مَعْرِفَةِ فَرِيضَةِ الْوَقْتِ.
 وَمَا يَجْرُ الْقَلْبُ لِلتَّلَافِ، مِثْلَ فَتْنَةٍ تَعْمِي صَاحِبَهَا، فَيَهْلِكُ بِهَا وَهُوَ لَا يَدْرِي
 مِنْ أَيْنَ كَانَ مَقْتَلُهُ!





الخطوة الحادية عشرة

إِيَّاكَ وَالْمَفْضُولَ، فَإِنَّ أَكْمَلَ
الْعِبَادَاتِ مَا حَازَ أَكْثَرَ أَسْبَابِ
التَّفْضِيلِ



إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَتَوَهَّ قَلْبُكَ عَنْ قَمَحِ الْآخِرَةِ..
وَتَطَوَّقَكَ هَزَائِمُ الْخُطَى فِي الْمَفْضُولِ، وَيَمُوتَ السَّبْقُ عَلَى أَعْتَابِ الدُّونِ.
عَلَى أَعْتَابِ الْمَفْضُولِ!

إِنَّ أَكْمَلَ الْعِبَادَاتِ مَا حَازَ أَكْثَرَ أَسْبَابِ التَّفْضِيلِ، وَتِلْكَ خِيُوطُ يُمْدُدُّ بِهَا الْعَمْرَ
مَدًّا مَدًّا، فَلَا تَرَى فِيهِ رَقْعًا، وَلَا تَرَاهُ رَثًّا..

وَعَرِبَالُ الْوَقْتِ، يَعْنِي: أَنْ تَفْقَهُ أَنَّ الْعَمَلَ الْمَفْضُولَ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ مَقْدَّمٌ
عَلَى الْعَمَلِ الْأَفْضَلِ.
مَقْدَّمٌ عِنْدَ رَبِّكَ، وَهَذَا فَقَهُ التَّدِينِ!

فَإِنْ رَأَيْتَ فَعَلًا، فَقُلْ: حَنْطَلَةٌ أَوْ تَبْنَاءُ!
وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ قَالُوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾، فَسَقَطُوا فِي مَتَاهَةِ اللَّيْلِ!

فَتَهَجَّ الْفَهْمُ فِي دِينِكَ..
إِنَّمَا يَقَعُ التَّخْيِيرُ بَيْنَ الْوَاجِبَاتِ إِنْ تَسَاوَتْ، فَإِنْ تَفَاضَلَتْ، قُدِّمَ الْأَفْضَلُ
عَلَى الْمَفْضُولِ.

وَفِي الْقِيَامَةِ تُسَمِعُ الْمَوَازِينَ تَفَاضُلَ الْحَسَنَاتِ.
رُبَّ حَسَنَةٍ تَسْتُرُ عُرْيَ صَحَائِفِكَ، وَرُبَّ حَسَنَةٍ مَا لِثَوَابِهَا مُنْتَهَى..

ولا شيء ينجيك إلا اشتعال الأجور، فاحمل من الدنيا ما تهوّل به في الآخرة.

والمسافات هناك ولود ولود، وحسرة الوجد في ألا تلحق، وقد كنت لحوقاً..
فلا تغرق في فوضى الأعمال، وترتد عن الصّف الأوّل.
تلك هزيمة الآخرة لو اطلّعت على الغيب، والهزائم هناك مضاعفة!
وهذا هو فقه السلف وعلم العلماء وسير السابقين!
فقه ميّزوا به بين الفاضل والمفضل..
وكلّما كان اللّيل حالكا، بحثنا عن الحسنة الأشدّ إضاءةً ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ
دُرِّيٌّ﴾!

وقد قال العلماء: «وإنّما المراد من الأمور عواقبها، لا عوایجها».
فلا تشتتّك الجهات الضّائعة، ولا تدخّر خطواتك، إذا عثرت على مسارك.
والخريطة المحبوكّة، ليس فيها خيط يلتهم خيطاً، بل هي نسيج الوصول،
فلا تُبقِ عمرك احتمال النّجاة بين الفوضى!

ولربّ حسنة هي ألف ميل في نعيم الجنّة، لذا قال السلف: «إنّ التّسوية
بين فعلين بينهما تفاضل، من الظلم العظيم».
فلا تغبن عمرك! فإنّ التّرك مع القُدرة، خُذلان! وبعض الوصول يوم
القيامة، تأخّر!

وبضع دقائق في عمل فاضل، قد تتبعك بعدها جحافل الأجور...

وقال ابن عباس: «تذاكر العلم بعض ليلة، أحبّ إليّ من إحيائها».
أولئك قومٌ، سدّدوا لجوامع الأجور..
ورابطوا على ثغور القرب..
وفقّهوا قول الله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وكان ذلك بعض معنى: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فَكُنْ فِي غُرَّةِ الصَّفِّ، وَقُلْ:

اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِلْفَاضِلِ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَيْسَ لِلْمَفْضُولِ!

والفاضل ما فهمه أبو الدرداء -رضي الله عنه- إذ قال: «لَأَنْ أَتَعَلَّمَ مَسْأَلَةً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ»!

وقد كان ذلك ما رآه ابن شهاب الزهري -أمير الحديث- يوم دَخَلَ الشَّامَ، فرأى حَلَقَاتِهَا تَضُجُّ بِطَلْبَةِ الْعِلْمِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ، كان العلم عبادة الأمة! كان في كُلِّ بَيْتٍ مَكْتَبَةٌ عَامِرَةٌ.. وَإِنَّ بَعْضَ الْقَوْمِ لَمْ يَرْحَلْ مِنْ دَارِهِ، لَكثْرَةِ كُتُبِهِ وَثِقَلِ حَمْلِهَا.

وَيُحْكِي أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ دَارَهُ وَقْفًا لَطَلْبَةِ الْعِلْمِ فَيَأْتُونَ إِلَى بَيْتِهِ، ثُمَّ يَقْرَأُونَ مَا شَاءُوا، وَيَنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَالِهِ، مُحْتَسِبًا ذَلِكَ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وذكر التاريخ: أَنَّ الْأَعْيَانَ وَالشُّرَفَاءَ كَانَتْ مَكْتَبَاتُهُمْ تَفُوقُ مَكْتَبَاتِ الدَّوْلَةِ، وَتُضَاهِي مَكْتَبَاتِ الْخُلَفَاءِ، وَكَانَتْ الدُّكَائِكِينَ تَعُجُّ بِالْحَوَارَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي اسْتَلْهُمُ مِنْهَا الْجَا حَظُّ الْكَثِيرِ مِنْ عِلْمِهِ.

وكلُّ ذلك إدراكًا منهم للفاضل من العمل في تاريخ الأمة!

يقول الشاعر الأمريكي راي برادبري:

«إذا أردت أن تدمر حضارة، لا تحرق الكتب، فقط اعمل على أن تتوقف الناس عن القراءة».

فسدّد لجوامع الأجر، فما الأعمال إلا مراتب.

وما يرى ذلك إلا من وهب نور الفتوح..

فتراه يلمُّ أطراف النِّعيم، بسعيِّ مُوفِّق.

وتلك جادَّة القَبول، وأولُّها التَّوفيق!

وتراه في إقبالِ القلب على مقام: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾!

مقام من انشغلَ به، فقد بلغَ ما لا يدانى من مراتب الفضل، بلغَ ميراث النُّبوة!

فإنَّ وصلَ مقام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، فهذا والله قَبول الأبد!

ومَن فاته هذا القُرب، طالَ بُعده، ثمَّ زاد تخبُّطه.

وإنَّما يوزَن المرء، بمن كان له وليًّا!

فتشبَّث بوصلِ سُمِّي: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾.

وافهم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾!

يقول عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو:

«إنَّ المعرفة والعلم هما اللذان يهبان الجيل القدرة على التَّحليل والتَّفسير

والفهم، وتلك هي أدوات التَّغيير الرَّشيد»، فتفطَّن للفاضل واسع فيه.

«وحسب الطامح لبلوغ الأثر»، أن يبذل الأسباب في هذا السباق.

سباق، لا تخرج منه خاوي الوفاض.

«عسى كليل السَّير يلحق الشَّهب»، وقد يسبق المتأخَّر، إذا شمَّر عن

الهِمَّة!

وإنَّ أشدَّ الخسران والله، ترك الرِّبح وأنت عليه قادر.

ثمَّ اعلم: أنَّ القُرْبَةَ المتعدِّية، أفضل من القاصرة...

وكان ﷺ إذا لبس جديدًا، أعطى خلقَ ثيابه مسكينًا..

ثمَّ يقول: «ما من مسلم يكسو مسلمًا من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله، إلاَّ كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واره حيا وميتًا».

ويقول الإمام الجيلاني قدس سره: «فتشت الأعمال كلها، فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطَّعام، وإنِّي أودُّ لو كانت الدُّنيا بيدي فأطعمها الجياع»...

فإن خشيت أن تحصدك الأيام وما أنجزت، فاسمع: إنَّ زيادة العمل، توجب زيادة الفضل والأجر، فأقرب النَّاس من رسول الله ﷺ وأولاهم به في الدُّنيا والآخرة، أحرصهم على الدَّعوة إلى الله، وأكثرهم شغلًا بها.

وقد قال السَّلف: «إذا لم تقدِرْ على قيام اللَّيْلِ وصيام النَّهار، فكن حسن الأخلاق، فإنَّ صاحب الخُلُق الحسن، يعادل الصَّائم القائم»... وكلُّ هذه الحسنات هي من بعض معنى: العمل الفاضل!

فلا تشتتْكَ النِّدَاءات عن أصل الطَّريق، فلملم بعضك وكلَّك على فقه دينك. واختر أفضل رُتَب المندوب ممَّا أمر به الله...

وقد كان هذا قلق السَّلف، وسؤال الصَّحابة ومنه: «يا رسول الله، أيُّ الكلام أحبُّ إلى الله تعالى؟

فقال: ما اصطفى الله تعالى لملائكته: سبحان ربِّي وبحمده، سبحان ربِّي

وبحمده»...

وعند التّزاحم في الأعمال الفاضلة، يُقدّم ما وَجِبَ بأصل الشّرع على ما أوجبه الإنسان على نفسه...

وعند التّزاحم، يُقدّم ما ليس له بدل على ما له بدل...

وعند التّزاحم، يُقدّم ما يمكن قضاؤه على ما لا يمكن قضاؤه...

هذه قواعد الشّرع، فاحفظها وافهم دينك، فليس المفضلون كالفاضل.

فقل:

اللّهُمَّ أعني على السّير بنفسي على الصّراط المستقيم...

هذا جهاد محمود يبلّغ بالنهايات نهاياتها... يبلّغ جوابًا عن عمره فيما

أفناه...

فهل سعيك كذاك وهل تملك للقيامّة إجابة مطمئنّة؟

ولعلّ غيرك حينها في مزيد من مزيد.

النّاس في ظمأ الحشر وحضيض أعمالهم، وغيرك أجره في ذرى شاهقة.

وعلى مقربة من خطي الأنبياء، تفور الصّحف، فلا تسأل عن الموازين ما لها.

تُسكَب الحسنات، فتراها زمزماً في مائها، وآثاره كأنّها مدّ موجٍ متسارع.

تتلو الملائكة على الموازين أزمان التّعب، فهنيئاً لمن حلّ عقد رحاله على

أعتاب الجنّة وقد شدّ مع الله حبلاً لم ينقطع.

فإن رأيت ازوراراً عن الطّريق وتحوّلاً وميلاً للأدنى عن الأعلى، فاعلم أنّ

«تحول الظّاهر، دليل على ضعف الباطن!».

اهدني وسدّني، دعاء البوصلة

إذا ما أقسى أن يذرف القلب دمعهُ إذا أدرك في اللّحظات الأخيرة أنّ حياته

كلّها كانت رمياً غير مُسدّد، وكانت في الاتّجاه الخاطيء!

فَقُلْ:

اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَيْكَ..
اهْدِنَا، فَلَا يَنْتَهِي الْعُمْرُ يَا مَوْلَايَ فِي وَعَثَاءِ الشَّتَاتِ!

يَا مَوْلَايَ..

نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقَنْطِ فِي الصَّبْرِ عَلَى غُلُوِّ الْمَهْمَاتِ، عَلَى الثَّبَاتِ.
ونَعُوذُ بِكَ مِنْ قِلَّةِ الْحِيلَةِ فِي بُلُوغِ الْمَقَامَاتِ.
لَا تَمْتَحِنِ اللَّهُمَّ قُلُوبَنَا بِمَا لَا تَمْلِكُهُ، وَإِنْ أَدْعَتِ الْأَلْسُنُ غَيْرَ ذَلِكَ!
اللَّهُمَّ انْفُضْ عَنِ الْقُلُوبِ ظِلْمَاتَهَا، عَسَى تَمْلِكَ الْخَطِيءَ خَرِيطَةَ الْهَدْيِ!
أَعُوذُ بِكَ يَا رَبُّ مِنْ خَدِيعَةِ الْخُطِيِّ.
وَخَيْبَةِ الْخَاتِمَةِ بَعْدَ عُمْرٍ مِنَ السَّعْيِ!

وإِنَّهُ مَا يُبْتَلَى بِقَوَاطِعِ الْخَوَاتِيمِ، إِلَّا مَنْ فَقَدَ الْبَوَصْلَةَ
وما يَنْجُو، إِلَّا أَهْلُ الْعَافِيَةِ.

وما سِوَاهُمْ فِي مَهَالِكِ الطَّرِيقِ مَا يَدْرُونَ آخِرَ الشُّوْطِ!

ذَلِكَ أَنَّ السَّائِرَ..

بَيْنَ سَعْيٍ فِي ضَلَالِ الْإِتِّجَاهِ، أَوْ عَجْزٍ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَغْلَالِ!
وسَدَادِ الْخُطِيِّ، هُوَ تَوْفِيقُهَا فِي السَّيْرِ إِلَى رَبِّهَا.
لِذَا تَرَى الْمُسَدَّدَ، سَعْيُهُ لَا يَنْقَطِعُ.
وغيثُهُ يَظِلُّ يَجْرِي!

ويَظِلُّ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْهَدَايَةِ، كُلَّمَا دَعَا: (اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي)!
فَعَلَّمَ الْقَلْبَ الصَّلَاةَ بِهَا، حَتَّى يَبْلُغَ خَتَامًا مُسَدَّدًا.
وعَلَى قَدَرِ صَدَقِ الدُّعَاءِ، يَتَّسِعُ لَكَ الْعَطَاءُ!

الخطوة الثانية عشرة

وأضِلَّ القبول، غَيَّبَ البواطن!



إِنَّ السَّبْقَ فِي الْآخِرَةِ، سَبَقَ الْقُلُوبَ، لَا سَبْقَ الْأَقْدَامِ.
فَاغْرِشِ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ بِحِظِّكَ مِنْ قَلْبِكَ، فَتَلَكَ هَرُولُهُ إِلَيْهِ!
وَلَا تَكُنْ حَبِيسَ الظَّاهِرِ، تُزَيِّنُ أَدَاءَكَ.
وَتَنْسَى، أَنَّ الْقَبُولَ خَبِيئَةُ الدَّاحِلِ!

فَإِذَا انْتَبَهْتَ، خُذْ قَلْبَكَ إِلَيْهِ، إِلَيْهِ فَلَا شَيْءَ إِلَّاهِ، فَاغْمِضْ إِلَيْهِ!
هَبِ اللَّهُ قَلْبَكَ، يَهْبِكْ عَوْنَهُ.
فَالْحَسَنَةُ تَتَّبِعُ أُخْتَهَا.
وَالسَّيْرُ إِلَى اللَّهِ، تَذَلُّ لَهَ الْجَوَارِحِ، وَمَنْبَعُهُ فَرِيدٌ..
مَنْبَعُهُ الْقَلْبُ!

فَأَقْبِلْ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا فِي قَلْبِكَ مِنْ شَجَرٍ، يُورِقُ.
وَأَطْعِمْ آخِرَتَكَ إِيمَانًا، يَسَعُ.
لَا عَرَجَ فِيهِ، وَلَا تَلَكُّوْا وَلَا عَجْزُ!

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٧﴾﴾.

واسقِ آخرتك سلامَ قلبك، سلامًا من كلِّ رياءٍ حتَّى ترى الحَسنة به نورًا يتلألًا.

فكأنَّك في ثوابك يوم القيامة: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾!

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ».

وقد كان الربيع يدخل عليه الدَّاخل وفي حجره المصحف يقرأ فيه، فيُغْطِيهِ.

وكان يقول: «كل ما لا يُراد به وجه الله، يضمحلُّ».

وكان التَّابعي العظيم خالد بن معدان إذا عظمت حلقتة قام، كراهة الشُّهرة.

تعرج الأعمال إليه، تشمُّ الملائكة الصُّحف المُرْتَفعة، وتتفَقَّد طيبتها.

والله وحده مَنْ يقول:

ضَعُوهَا فِي عَلِيِّينَ، أَوْ ضَعُوهَا فِي سَجِّينَ!

فَالْحَذَرُ مِنْ قَلْبِكَ..

فَاللَّهُ لَا تَلْتَبَسُ عَلَيْهِ الْبَوَاطِنُ.

وَالْخَفِيُّ عِنْدَ اللَّهِ، هُوَ الْجَلِيُّ!

تلك حَقِيقَةٌ ومعنى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾!

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

فانتبه، إِنَّ القلوب..

ابتلاء الدُّنيا، وَجَزَاءُ الْآخِرَةِ!

أما سمعت، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٣٢).

لِذَا، فِي السَّفَرِ إِلَى اللَّهِ، كُلُّ سَبَبٍ يُصْلِحُ قَلْبَكَ، فَحَرَامٌ فِيهِ الْإِثَارُ!

وَالْعَبْدُ حَتَّى يَصِلَ..

يَظَلُّ بَيْنَ وَجِيبِ الْقَلْبِ، وَبَيْنَ نَظَرِ الرَّبِّ!

فَ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وَمَا يَكُونُ الْقَبُولُ غَدًا، إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَتْهُ نَوَايَا الْبَاطِنِ..

فَانْغَمَسَ فِيهَا حَتَّى خَلَصَ لِلَّهِ..

فَهُوَ يَزِيدُ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ!

أُولَئِكَ قَوْمٌ..

يَتَضَلَّعُونَ مِنَ الطَّهَارَةِ لِقُلُوبِهِمْ.

وَيَسْتَقِيمُونَ فِي حَرَكَةِ بَوَاطِنِهِمْ.

فَلَا تَرَى الْقُلُوبَ، إِلَّا رِيَّانَةً تَتَفَجَّرُ فِيهَا يَنَابِيعُ مَا كَانَتْ لَدَيْهِمْ فِي الْبَاطِنِ!

وَتَزِيدُ فِي الْغَدِّ، ثَبَاتًا، فَيَقِينًا، فَاتِّصَالًا.

وَقَدْ قَالَهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «كَانُوا أَبْصَرُ فِي دِينِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ مِنْكُمْ فِي

دُنْيَاكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ».

وَكَلَّمَا انْشَغَلَ الْعَبْدُ بِبَاطِنِهِ، اكْتَمَلَتْ لَهُ الْمَعْرِفَةُ، فَلَا يَنَالُ الشَّيْطَانُ مِنْ قَلْبِهِ

مَا يَكْدُرُ قَبُولُهُ!

فَافْقِهِ وَصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مَعَاذُ، أَخْلَصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ».

قَلِيلٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَثِيرٌ.

وَتِلْكَ وَاللَّهِ بَرَكَةُ الْقَبُولِ!

القبول، وما أدراك ما القبول!

إن رضي الله العمل، تقبَّله، فما هو القبول؟

القبول، هو المسافة بين حقول ينتابها الجذب، وحقول لا تعرف الشَّيْخوخة!

حقول تظلُّ خضراء يصبُّ قمحها في موازين صاحبها حتَّى قيام السَّاعة. القبول، هو معنى «وإذا وقع النَّداء من الله بمحبَّة عمل أو محبَّة فلان، قبلته جميعُ البواطن»!

هكذا دون تفسير ولا منطق ولا أسباب! فقط لأنَّ الله «وضع له القبول في الأرض».

وهذا يكفي، يكفي كي يقول السَّلف بعدها كلمتهم العميقة: «أَيُّهَا الْمَقْبُول، هنيئًا لك، أَيُّهَا الْمَرْدُود في سعيه، جبر الله مصيبتك!»، لماذا؟

لسبب واحد يعلنه القرآن ألا وهو: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

لذا قال أحد السَّلف: «لو عَلِمْتُ أَنَّ الله تَقَبَّلَ مِنِّي سَجْدَةً واحدة، أو صدقة درهم واحد، لم يكن غائبٌ أَحَبُّ إِلَيَّ من الموت». هذا المعنى كان يكفي كي يقول عليٌّ -رضي الله عنه-: «لا تهتَمُّوا لِقَلَّةِ العمل، واهتَمُّوا لِلْقَبُول».

عبد انتبَهَ لمنايات القَبُول، فانشغلَ بِالْغَرَسِ الْمَقْبُول. فتراه يرفعُ لقلبه قِلاعًا، يواجه بها غاشيات الشَّيْطَان إذا تسوَّر عليه المِحْرَاب!

يُفْتَشُّ في عُمقِ المَوَاجِع، ويجدُّ ما كادَ ينفد. ويخافُ الهَزِيمَةَ المفاجئة، تلك التي تكبو فيها الرِّجال في مَيدانِ النَّفْس.

القبول، هو حياة العلماء الَّذِينَ ما زال صدى خطواتهم منذ مئات السنين في مسامعنا!

القبول، ليس نجاح اللحظة الرَّاهنة، وليس لقطة الكاميرا البرّاقة، أو نقطة مجدٍ عابرة..

بل هي لحظة متجدّرة في العمق، متجدّرة في ملامح الكون، وفي ضمير الوجود.

والَّذين يدركون الفرق، هم من يعرفون كيف يحفرون حضورهم بإتقان مذهل عبر حبة عرقٍ سخية تظلّ تفور في تضاريس الفعل البشريّ حتّى تصبح شللاً أو ربّما طوفاناً غامراً.

أولئك الذين تتغيّر بعدهم الكثير من المعادلات، ويحتار الشيطان في بصيرتهم وفهمهم لمعاني القرآن، هؤلاء هم الذين تظلّ حروف أسمائهم ترن في عمر الأجيال كلّها.

تأمل فقط كيف تعيش كلمات عالم مئات السنين وتظلّ مئذنة باقية، لأن صاحبها كان يغرسها لله..

لله وحده.

وما كان لله، دام وأتصل، وما كان لغير الله، انقطع واضمحل، وكان عمره سنوات قليلة!

لذا احرص على كتم حسناتك، فإنّ الكيس لا يحتملُ سُوس الخطايا، وسُوس التخليط!

وقد كان السلف الصالح أحرص على كتم حسناتهم من كتم سيئاتهم! إن كانوا يقولون: واللّه ما صدّق الله عبداً إلا سرّه ألا يشعر أحدٌ بعمله، ولا صلاته، ولا حتّى تسبيحه من تسبيحاته!

فإنّه لا يجد حلاوة الآخرة، من أحبّ أن يعرفه النَّاسُ!

فهل فهمت!

وَلِلْقَبُولِ، لَوَائِحُ وَرَوَائِحُ..

فَمَا إِشَارَةُ أَوَّلِ الْقَبُولِ؟

كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَقُولُونَ: «مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ وَدَّهَمَ».

وَتِلْكَ هِيَ الْإِشَارَةُ، فَلَا تَرَى الْمَقْبُولَ إِلَّا عَبْدًا يَقْتَاتُ النَّاسَ مِنْ وَجْهِهِ، وَمِنْ كَلِمَاتِهِ، وَمِنْ سُلُوكِهِ، مَا يَقِيمُونَ بِهِ أَوْدَ الْقَلْبِ!

تَحُلُّ الْبَرَكَةُ فِي جَوَانِحِهِمْ، وَهَمَّهُمْ، وَلُقِيمَاتِ الطَّعَامِ فِي مَحَالِّهِمْ!

يَفِيضُ الْأَمَانُ مِنْ مَلَامِحِهِمْ.

كَأَنَّمَا هُمْ أَمَانٌ مِنْ زَلَّاتِ الطَّرِيقِ!

وَمَنْ أَرَادَ لِلَّهِ..

أَرَادَ اللَّهُ لَهُ!

حَتَّى يَنَادِيَ عَلَيْهِ: مَخْلُصٌ نَاجٍ مِنْ إِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ.

أُولَئِكَ عِبَادٌ تَكَادُ تَرَى الْعَمَلَ لَهُمْ، مَطِيَّةٌ مُسْرَجَةٌ هَانَ عَلَيْهِمْ قِيَادَهَا.

وَكَأَنَّهُ بَسَطَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مَوْضِعًا لَنْ يُطَوَّى بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَدْ قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «عَلَى قَدَرِ خَوْفِكَ مِنَ اللَّهِ، يَهَابُكَ

الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدَرِ حُبِّكَ لِلَّهِ، يَحُبُّكَ الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدَرِ شُغْلِكَ بِاللَّهِ، يَشْتَغِلُ الْخَلْقُ

بِأَمْرِكَ»!

ذَلِكَ وَاللَّهُ مَعْنَى:

﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾!

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾.

وَقَدَّرَ اللَّهُ فِي الْبَوَاطِنِ، أَنَّهَا لَا تَقْبَلُ الْحَصْرَ.

فَلَا تَرَاهَا إِلَّا فَيْضًا ظَاهِرًا.

حَتَّى كَأَنَّكَ تَشْمُ رِيحَهَا وَمِسْكُهَا!

وما السُّلوك من بعد، إِلَّا إيقاع الرُّوح!

وَإِذَا «ثَبَتَ الْأَصْلُ فِي الْقَلْبِ، أَخْبَرَ اللِّسَانُ عَنِ الْفُرُوعِ».

ثُمَّ يَكُونُ الْقَبُولُ، يَرَاهُ الْعَبْدُ قَبْلَ الْخَوَاتِيمِ!

انْظُرْ إِلَى الْبَخَارِيِّ وَمَا وُضِعَ لَهُ مِنَ الْقَبُولِ، حَتَّى قِيلَ فِيهِ:

«لَوْ كُتِبَ اسْمُهُ عَلَى وَرْقَةٍ بِيضَاءَ، لَاشْتَرَاهَا النَّاسُ حُبًّا لَهُ وَقَبُولًا!»

وَأَفْهَمَ الْمَعْنَى عَنِ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، قَبُولُ جَعَلَ

مِنَ الطُّفْلَةِ مَعْجِزَةً ظَلَّتْ حِكَايَةُ التَّارِيخِ!

لِذَا كَانَ أَوَّلُ السَّيْرِ مِنْ صِلَاحِ الْبَوَاطِنِ وَيَسْلُمُ لَكَ كُلُّ شَيْءٍ!

وَوَاللَّهِ مَنْ سَلِمَ قَلْبُهُ..

سَلِمَ لِسَانُهُ، وَسَلِمَتْ جَوَارِحُهُ، وَسَلِمَتْ صَحَائِفُهُ!

وَإِنْ أَطْعَمَ اللَّهُ فِي السَّرِّ، أَصْلَحَ قَلْبَكَ، شِئْتَ أَمْ أَبَيْتَ!

وَإِذَا اسْتَقَامَ الْبَاطِنُ عَلَى حَالٍ، فَمَا أَيْسَرَ نَفْضَ مَا عَلِقَ بِالسُّلُوكِ مِنْ

غُبَارٍ!

البواطن البواطن..

فَإِمَّا أَنْ تَذْهَبَ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّكَ، وَإِمَّا أَلَّا تَأْتِيَ تَسْأَلُ الْمَقَامَاتِ وَقَدْ اتَّقَيْتَ

فِيمَا أَرَدْتَ، وَعَبَثَ بَاطِنُكَ فِيمَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ سَتَرْتَ!

و«كُلُّ وَرَعٍ مَقْصُورٌ عَلَى أَمْرٍ دُونَ أَمْرٍ، لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ»!

يَقُولُ أَحَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَنِ الْعَبْدِ:

«تراه يتحرَّج من تركِ واجبٍ من واجبات الأبدان، وقد ترك ما هو أهمُّ واجبات القلوب وأفرضها، ويتحرَّج من فعل أدنى المحرِّمات، وقد ارتكب من محرِّمات القلوب ما هو أشدُّ تحريمًا وأعظم إثماً!»

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ، سَمِعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ يُرَائي، يُرَائي اللَّهَ بِهِ».

فَالله في السَّرَائِرِ..

وَالله في صَلَاحِ الْبَاطِنِ..

وَحِينَ سئلَ التَّسْتَرِي: «أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ؟»، قَالَ: «الإِخْلَاصُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيهِ نَصِيبٌ».

فَإِنْ سَأَلْتَ: كَيْفَ نَمُدُّ الرُّوحَ نَحْوَ الْقَبُولِ؟!

ذَاك سَوَّالُ جَوَابِهِ بَاطِنُ النِّيَّةِ «فَإِنَّمَا يُحْفَظُ أَثَرُ الرَّجُلِ فِي الْأَرْضِ، عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ».

لِذَا قَالَ السَّلَفُ:

«تَعَلَّمُوا النِّيَّةَ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ الْعَمَلِ!».

إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ «عَوْنَ اللَّهِ لِلْعَبِيدِ عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ، فَإِنْ تَمَّتْ، تَمَّ لَهُ الْعَوْنُ».

وَيَقُولُ سَفِيَانُ الثَّوْرِي: «مَا عَالَجَتْ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ».

إِنَّ لِلنِّيَّةِ آثَارًا مِنْ بَعْضِهَا: مَا مِيرَاثُكَ؟ مَا حَالُ الْقَبُولِ؟

وَهَلْ فِي الْخَطْوِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْبَقَاءُ؟!

فَافْقِهِ عَنِّي..

هَذَا سَفَرُ أَوَّلِهِ.. عِبَادَةُ الْخَلَوَاتِ، وَصَلَاحُ الْخَفَايَا، وَبَوَاطِنُ

الْأَعْمَالِ..

وَتِلْكَ أَمَارَةُ الْإِخْلَاصِ!

فَاخْذَرِ..

«دَسَائِسُ السُّوءِ الْخَفِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَوْجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ!».

قال يحيى بن معاذ -رحمه الله-: «رضي الله عن قوم، فغفر لهم السيئات، وغضب على قوم، فلم يقبل منهم الحسنات».

والله ما كان أصلُ الإثم، إِلَّا وَهْنُ الْبَاطِنِ وفقد الإخلاص.

فانْكَرْ مَقُولَةَ أَحَدِ الصَّالِحِينَ: «لَا قَلِيلَ مِنَ الرِّيَاءِ، فَإِنَّ مَعَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِثْمِ!».

يعيدها ويكرِّرها على قلبه وينكفي عليها.

ويظلُّ يرددها على نفسه، ليظلَّ بها يَقْضًا!

وفي قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَعَاءَنَرَهُمْ﴾.

تلك الآثار التي تَظَلُّ تَنْبُضُ وَلَا تَفْنَى، ولها في الحِسابِ شَهَادَةُ مَسْمُوعَةٍ! تلك آثار..

كان خَطُوهَا فِي الصُّدُورِ، قَبْلَ الدُّرُوبِ!

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾.

كَأَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ لَكَ: «وَكُلُّ حَسَنَةٍ لَا جَذْرَ لَهَا، لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهَا!».



الخطوة الثالثة عشرة

كرامة القلب أن يظل ممّا
سوى الله خاليا



كرامة القلب أن يظلَّ ممَّا سوى الله خاليًا..
 خاليًا من ذاته، حتَّى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا.
 ولمَّا حانت وفاة الجيلاني -رحمه الله-، دخل عليه والده فسأله: «ماذا
 يؤلمك من جسدك؟» فقال: «جميع أعضائي إلَّا قلبي!».
 أولئك المرابطون على توهُّج النُّور في قلوبهم لا ينطفئون.
 تراهم في عصمة وعُروة وثقى، يحار الشَّيطان في فكِّها.
 وما تكون الرِّزلة في نسيان الآخرة إلَّا عند الغفلة.

وكرامة القلب أن يرى..

وبين البدء والفناء، يرى المبصر ما لا نرى، فلا تتوزَّعه الأيام سدًى!
 والنَّاظر في المآلات، جاهز للجواب يوم القيامة عن السُّؤالات.
 ومحفوظ من مآلات الزُّبد.
 وله في الآخرة مدى الدَّهشة!

وإنَّ الذي يملك قلبه، يملك ناصية الحرِّيَّة.

والحرِّيَّة، تعني أن تستعلي على كاميراتهم، ووظائفهم، ودرامهم، وما
 تلفظه ألسنتهم من فكر مغشوش وقيم، يُروِّج لها، وأن يظلَّ القلب ممَّا سوى
 الله خاليًا.

وبعض النَّاس تمضي نصف أعمارهم في إبهار النَّاس، والنِّصف المتبقِّي
 في القلق ممَّا قالوه!
 فخذنا يا الله منَّا إليك!

والقلب الحرُّ يعرف ما يريد

وما يكون ذلك إلا لمن عرف المراد، فترى قلبًا يعرف ما يطارد.

ومن عَرَفَ ما يريد، عَرَفَ نفسه.

فهو في السَّعي كروح الحياة في ساعة الفجر، قد استجاب لأمر الله بالإعداد، ثم جثا على ركبتيه طالبًا من ربِّه النَّصر والإمداد.

القلب الحرُّ..

هو القلب الَّذي يفيض بمعنى ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، نجا من مقبرة ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾، مُسَيِّج قلبه بسورة الكهف ومعنى: ﴿وَأَنَا لَجْجِعُلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْرًا﴾، حتَّى ترى القلب ممَّا سوى الله خاليًا.

نحن اليوم مسكونون بنوع الموبايل، منطقة السَّكن، ماركة ثيابك..

الأثاث وكثير من تفاصيل الدَّيكور، السَّيارة وطقوس العرس، طريقة الضَّيافة..

بطاقة الدَّعوة للزَّواج، والكثير من الكلام المبالغ فيه، هو الَّذي يحدِّد قيمتك اليوم!

قيمك، مبادئك، ماذا يحمل رأسك من أفكار، إنتاجيتك للبشريَّة والحياة، كُلُّها لا تساوي قيمة بدلتك، أو حذاءك، أو خاتم ألماس في يد سيِّدة ما في وطني العربيِّ الكبير.

وقمَّة الألم أن تنتعل حذاء يؤلمك، لأنَّه يعجب غيرك!

ومن حرِّيَّة القلب، ممارسة الأسباب بعيدًا عن سُلطة الأسباب

مارس الأسباب مع يقين ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾.

ترى الخلق متعلِّقين بالأسباب، والعارف متعلِّق بوليِّ الأسباب.

لذا قيل: «ليس الشأن أن تترك الأسباب، إنما الشأن أن تمارس الأسباب، ولا تركز إليها».

وعلى مقدار شدة التصديق، يخفُّ ثقل التكليف.
ومن تأمل سائر المقامات، وجدها في ترك الالتفات إلى المسببات.

ربّما دون أن تدري تمدُّ قلبك بساطاً لكثيرها، فتزيد الليل ليلاً.
فقل: اللهمَّ برِّد قلبي، وارزقني قلباً يرضى بالخيرة.

وحرّر قلبك من الأنا

واعلم أنه ما أدخلك الله فيه، تولّى إعانتك عليه..

وما دخلت فيه بنفسك، وكلّك إليه.

وكم ضرّ امرأً أمرٌ توهم بأنه ينفع!

فردد ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

ومن نسب شيئاً إلى نفسه، فقد زلّ وضلّ.

ومن نسب الأشياء إلى خالقها المنعم بها، كان في الزيادة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَسَجِّزِ الشَّاكِرِينَ﴾.

وما لم يكن بالله، لا يكون..

وما لم يكن لله، لا ينفع ولا يدوم.

وكلُّ من تعلّق بشيء غير الله، انقطع به أحوج ما كان إليه.

ومن حرّية القلب، تجاوز الماضي..

وسجين المواجه لا فكاك له.

تتشبَّث بالماضي، فتوغل في نقصك.
وكَلِّمًا طلبت الرِّفعة، اتَّضعت، ويظلُّ ماضيك يقاسمك أَسَى الذِّكريات.

وتنسى أَنَّ القلب الَّذي يترك لله، يكثر عليه عطاء الله.
تظلُّ بالقلق مليئًا، فتبذر أفكارك هباءً.
وتنسى أَنَّ من يبعثر أمسه، لا يملك غده.
وَأَنَّ الجراح الَّتِي تشبُّ في الطَّرِيق، توقده، تزهو الآلام فيه كسنابل قمح.
تختبئ في معانيه ألوان الورد القاني، تظهره العين كالدم.
وما هو إِلَّا احمرار وردة قُضي لها أن تنفتِّح!

فإذا خدشت الأقدار سوار يديك، فاعلم أَنَّها تريد أن تُهديك عرشَ علو.
وإذا أنقصت الأقدار لُقيماتك، فلأَنَّ مائدة تُعدُّ لك في الغيب! وما نقص
من فرحك شيء، إِلَّا لِيُزاد لك في أفراح الآخرة الأزلية، فردَّد: «وفي كل جرح
حديقة»، تنتظر من يبصرها.

حرَّر قلبك من الخوف

ولو عارَكتك دُسرٌ وألواح، فلا تقف إذ خلف الشوك قدر.
ربَّما يدفعك وسواس القلق فتراك في قيدك تتردَّد، وما كان له من سلطان
عليك، ولكنَّك في وهن العجز مرتَهَن.
وتخبطُ في فوضى الواقع بجهلك، ولو كنت في العلم مشمَّرًا، لكنَّك مبصِّرًا.
ولعلمت أَنَّ ما بعد المكاره إِلَّا المكارم..
وَأَنَّ السَّفح للخائفين.
ومن يصعد أَلَمه، يصل.
فدقِّ أعلامك فوق الذُّرى.

حرّر قلبك من متاع زائل

وتعاسة القلب أن يمتلكه المتاع، تائه بين أن يمتلك الأشياء أو يفقدها، عالق في متاعها.

أولئك المسجونون في أنفسهم والقلب على نوافذ المقارنات واقف. يجفّفهم قلق المزيد، والجري وراء طوفان الأشياء، ومع اللهاث تظماً الرُّوح وتشكو الرّحام، كلّما ازداد هذا المتاع.

حرّر قلبك من أعين الناس

وبعض القوم همّه أن يعبر إلى أعين النَّاس في الرّحيل وفي المقام. فإذا انطفأ بريقه بالاعتیاد، جرى إلى نشوة التّجديد عساه يشتعل في أعين العباد.

مفتون بكلّ صورة تمتحن إيمانه، مفتون بكلّ صفراء فاقع لونها... وفي قلبه يزيد هوس الألوان والأشياء... يا لله ما أوسع مآتم الآلام الخفيّة في روحه! وكرامة القلب وربّي أن يظلّ ممّا سوى الله خاليًا!



مكتبة

t.me/soramnqraa

الخطوة الرابعة عشرة

إن شئت أسرار التأييد، هذه
سبيلك، كي تدرك كمالك!



يَمُدُّ اللَّهُ صَوْتَكَ، حَتَّى يَبْلُغَ الْآفَاقَ..
 وَيَكْشِفُ لَكَ الْحُجُبَ، وَيُؤْتِيكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا، إِنْ كَانَ هُمْكَ عُمَرِيًّا، وَهَجَرْتُكَ
 عُمَرِيَّةً، وَصَوْتُكَ عُمَرِيًّا!
 يُوجِّهْ عُمَرَ جَيْشًا إِلَى أَرْضٍ بَعِيدَةٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ فِي الْمُسْلِمِينَ فِي
 الْمَدِينَةِ، جَعَلَ يُنَادِي: «يَا سَارِيَّةُ الْجَبَلِ الْجَبَلِ»..
 فَبَلَغَ اللَّهُ بِصَوْتِ عُمَرَ، وَسَمِعَ سَارِيَّةُ الْأَمْرَ، فَأَسْنَدَ الْمُسْلِمُونَ ظَهْرَهُمْ إِلَى
 الْجَبَلِ، وَنَجَوْا مِنَ الْهَزِيمَةِ!
 وَمَا دَرَى عُمَرُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اسْتَعْمَلَ صَوْتَهُ سِتَارًا لِقُدْرَتِهِ، وَكَرَامَةً لَصَوْتِ
 اتَّسَقَ فِي بَوَاحِ لِه.
 ذَاكَ صَوْتُ أُعْتِقَ مِنَ الْهَتَافِ لِغَيْرِ اللَّهِ!

يُمْسِكُ صَحَابِيٌّ بِيَدِ ابْنِ أَخِيهِ الصَّغِيرِ وَيَقُولُ لَهُ:
 لَوْ كُنْتُ أَنَا وَأَنْتَ بَبْدَرٍ، لَأَرَيْتُكَ الشُّعْبَ الَّذِي خَرَجْتُ عَلَيْنَا مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ.
 تَكَ وَاقِعَةً اسْتَوْدَعَ فِيهَا الرِّجَالُ أَسْرَارَ الْفَوَاتِحِ!
 وَدَوَّنُوا فِيهَا أَنَّ تَهْلِيلَ الْمَلَائِكَةِ يَنْضُمُ لِلْقَوَافِلِ الَّتِي غَادَرَتْ زَمَنَ الْجَاهِلِيَّةِ
 بَلَا تَرَاوِعَ!

يَقْرَأُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ الْقُرْآنَ فِي فَنَاءِ دَارِهِ، فَيَلْتَفِتُ، فَإِذَا مِثْلَ الْمَصَابِيحِ
 مُدْلَاةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَيَخَافُ وَيَصْمِتُ..
 ثُمَّ يُخْبِرُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَقُولُ لَهُ:
 «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِسَمَاعِ صَوْتِكَ، أَمَا أَنْتَ لَوْ مَضَيْتَ، لَرَأَيْتَ الْعَجَائِبَ!».

ولو أفتفينا خطاهم، لانطلقَ لنا خيلُ الملائكةِ، وانفتقَ لنا زمنُ النصرِ.
وما هوى علينا السَّقْفُ مَخْذُولًا!

تَنكسرُ سَفِينَةُ مَوْلى رَسولِ الله ﷺ في عَرَضِ البَحْرِ، وتَطرحُهُ في أَجمَةٍ
فيها أَسَدٌ، فيَقْبَلُ عليه، فما يَكُونُ مِنَ الصَّحابي إِلا أَنْ يَقولَ لَهُ:
«أنا مَوْلى رَسولِ الله»، فيطأطئُ الأَسَدُ رَأْسَهُ، وَيَقْبَلِ على مَوْلى رَسولِ الله
يَدْفَعُهُ، حَتَّى يَضَعَهُ على الطَّرِيقِ!
وقد قيلَ: «إِنَّمَا يُسَلِّطُ على ابنِ آدَمَ ما خافَهُ، ولو لَمْ يَخَفْ إِلا اللهَ، ما سُلِّطَ
عليه أَحَدٌ!».

وقد كانتْ مَخافَةُ اللهِ هِي وَجيبُ قُلُوبِهِم!

هذه ترنيمةٌ مقدَّسةٌ توحَّدوا بها، فانفجرتْ لهم يَنابيعُ الدَّهْشةِ، وكتبها
التَّارِيخُ ذَهولًا!

يُحاصرُ عِثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، فيرى رَسولَ الله ﷺ في مَنامِهِ يُدلي لَهُ دَلْوَا،
فَيَرتوي حَتَّى يَجِدَ بَرْدَ المائِ في صَدْرِهِ..

يَتَدَلَّى لَهُمُ التَّأْيِيدُ، وتُصَبُّ لَهُمُ قَرَبُ الجَنَّةِ شَوْقًا لَهُم، قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوها.
وَيَمضي عِثْمَانُ في آخِرِ النِّهارِ، صائِمًا يُفطرُ عندَ رَسولِ الله في الجَنَّةِ!

يَعومُ جَيْشُ سَعْدٍ في دَجَلَةٍ على ظَهْرِ الخَيْلِ، وما يَبْلُغُ المائِ أَعقابَ الخَيْلِ،
وليسَ لَهُمُ إِلا قولُ:

«حَسْبُنَا اللهُ وَنِعَمَ الوَكِيلُ»!

تَرْتَفِعُ الخَيْلُ على المائِ، وتَسْتريحُ إِذا تَعَبَتْ، كأَنَّها على الأَرْضِ.

وليسَ للجَيْشِ حَدِيثٌ إِلا التَّسْبِيحُ..

وكانَ ذلكَ أَعجَبَ يَوْمٍ في المَدائِنِ

يَفْعَلُ اللهُ ذلكَ لِقَوْمٍ قالوا لَنَبِيِّهِم:

«لو أَمَرْتَنَّا أَنْ نَخوضَ البَحارَ لَخُضْنَاها، دونَ تَلَكُّو ولا تَرَدُّدٍ».

استقاموا، فاستقام لهم موج البحر!

تلك ملحمة لا انكسار فيها ولا خراب، وقف الدهر فيها يشهد أسرار العهود مع الله، كيف تحل للجيش أعتى وثاق وأعتى حصار!

رأى عوف بن مالك الجنة، فسمع قائلاً يقول له:

«لو أشرفت على هذه الرؤية، لرأيت ما لم تر عينك، وما لم تسمع أذنك، ولم يخطر على قلبك، أعداه الله - سبحانه وتعالى - لأبي الدرداء، لأنه كان يدفع الدنيا براحتيه كلها!».

فلقد كانوا يتسابقون على الآخرة، فإذا حضرت الدنيا، غابوا ولم تلمح لهم ظلاً!
لذا..

كانت الحياة في سبيل الله أصعب مُصابرةً من الموت في سبيله!

قومٌ قيل فيهم:

«إنهم يوفون بالعهد، ويتناصفون بينهم، حتى لا تكاد تجد مثل عودٍ من الظلم بينهم!».

إذ كانوا يعلمون أن أسوارنا تنهد إذا خالطتها جارة الظلم.
تضيّق البيوت، وتئنُّ الزقاق، وتنطفئ المصابيح، إذا انصب في الزيت شيءٌ من قوارير الظلم!

يا لله..

ما أهون الخلق على الله، إذا هم تركوا أمره.

وها أنت تسمع من حالنا وترى!

يموت الصفار، وكان أحد ملوك خراسان، فيرى في المنام، فقيل له:

«ما فعلَ اللهُ بِكَ؟».

فقال:

«غفر لي!».

ف قيل له:

«بماذا؟».

قال: «صَعِدْتُ ذِرْوَةَ جَبَلٍ يَوْمًا، فَأَشْرَفْتُ عَلَى جُنُودِي، فَأَعْجَبْتَنِي كَثْرَتُهُمْ، فَتَمَنَّيْتُ أَنِّي حُضِرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْنَتُهُ بِجُنْدِي، وَنَصَرْتُهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لِي صِدْقَ نِيَّتِي وَغَفَرَ لِي!».

فَقَدْ قِيلَ:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ الْقَوْمَ إِلَّا بِصِدْقِ نِيَّاتِهِمْ!».

هَذِهِ جُذُورُكَ، وَهَكَذَا ارْتَفَعَ النَّخِيلُ، حَتَّى عَانَقَ الْهَيْلَالَ!
وَإِنَّمَا تُبْنِي النُّفُوسُ، عَلَى قَدَرِ أَحْلَامِهَا، وَتَوُتِي الْمَقَامَاتِ، عَلَى قَدَرِ
أَصْحَابِهَا!

فَعُضُّ عَلَى ثَبَاتِكَ وَإِيَّاكَ وَالْأَعْذَارَ الْفَارِغَةَ، تِلْكَ اغْتِيَالُكَ وَتِلْكَ مَهْلَكَةُ مَالِكَ.

إِنَّ هَذِهِ سَبِيلُكَ، كَيْ تَدْرَكَ كَمَالَكَ!

لَا تَتَنَفَّرِطْ، فَقَدْ جَاءَ دِينُكَ، كَيْ يَخْلُقَ فِيكَ بَدْرًا، وَغُمْرًا، وَسَعْدًا!
جَاءَ يَكْشِفُ لَكَ، أَنَّكَ قَادِرٌ أَنْ تُعِيدَ حِكَايَةَ التَّارِيخِ الْأُولَى، لَوْ قَطَفْتَ الْمَعْنَى
مِنْ كَفِّ التَّارِيخِ!

فَالْتَقِطْ بَدَايِيتَكَ، وَاعْجَنْ مِنْهُ مِيرَاثَ نُورِكَ الْأَبَدِيِّ.

وَلَا تَأْذَنْ لِلْغَسَقِ أَنْ يَهْبِطَ فِيكَ!



الخطوة الخامسة عشرة

وإنما فُرادة الجراء لمن
سَدَّد سهامه ولم يلتفت،
فاستقم!



سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ مَعْنَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، فَقَالَ:
لَمْ يَلْتَفَتُوا!

والاستقامة ثبات ودوام في صَحَّةِ مسار.
وما تنبت الاستقامة إِلَّا بامتلاء القلب بحُبِّ الطَّاعَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ
الله.

فلا تلتفت..

وَكُنْ خَيْرَ الْأُمَّةِ وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ!
وَكَلِّمًا شَاخَتْ حِكَايَةُ مَجْدِنَا، كُنْ أَنْتَ رَبِّيعُهَا الْآتِي!
وَأَنْتَ مَعْنَى الثَّبَاتِ، إِذَا اعْتَرَتْ الْقُلُوبُ تَقَلُّبَاتُهَا!

لا تلتفت..

وَكُنْ أَنْتَ حَارِسَ الشَّرِيعَةِ، إِذَا أَشْعَلَ النَّتَارُ فِي قَمَحِنَا اللَّهَبَ!
كُنْ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ أَسْلَمَ فَأَسْلَمَتْ لَهُ الْخَطِيءُ!
ومعنى:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ..

لَا شَتَاتَ عَنْكَ، وَالْعُمَرُ كُلُّهُ إِلَيْكَ!

لا تلتفت، وَكُنْ مَعْنَى هَاجَرٍ فِي هِجْرَةٍ، لَمْ يَلْتَفِتْ فِيهَا الْقَلْبُ!
لا تلتفت، وَكُنْ أَنْتَ إِسْمَاعِيلَ..

إِذْ طَوَىٰ نَفْسَهُ وَاسْتَوَىٰ أَمْرَ اللَّهِ وَقَالَ: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾!
 لَا تَلْتَفِتْ، وَكُنْ أَنْتَ يَوْسُفُ عَلَى خَزَائِنِ أَفْكَارِنَا.
 وَمُوسَىٰ فِي يَقِينِ الْقَلْبِ، إِذَا احْتَشَدَ السَّحَرُ، فَرَابِطٌ عَلَى وَعْدٍ ﴿تَلْقُفْ مَا
 يَأْفِكُونَ﴾!

لَا تَلْتَفِتْ عَنْ غَايَاتِكَ
 وَإِنَّمَا فَرَادَةُ الْجَزَاءِ لِمَنْ سَدَّدَ سِهَامَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ.
 وَتِلْكَ السَّهَامُ الثَّابِتَةُ، هِيَ مَدَارِجُ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.
 وَذَٰكَ وَاللَّهِ هُوَ التَّوْفِيقُ، أَنْ ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

ثُمَّ اسْتَقَامُوا وَثَبَتُوا، فَتَرَىٰ عَمَلُهُمْ دَوْمًا دِيمَةً..
 وَلَا تَرَاهُ إِلَّا مَرْفُوعًا فِي (صَحَائِفِ الثَّبَاتِ)!
 وَأَعْمَارُهُمْ تَمْطُرُ غَيْمَاتِهَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَدَبِيبِ النَّعَالِ صَدَاهَا فِي
 الْجَنَّةِ!

فإِيَّاكَ أَنْ تَشْطَّ بِكَ الْمَنَازِلُ..
 وَتَقْنَى مِنْ عَمْرِكَ الْقَوَافِلُ..
 فَيَنْتَهِيَ الْوَقْتُ، وَمَا غَنِمْتَ.
 وَقَدْ كَانَ الْفَرْدُوسُ عَلَيْكَ مَعْرُوضًا!
 وَأَوْجَعُ مَا فِي الْعَمْرِ فَوَاتِ الزَّمَانِ، فَلَا يَكُنْ عَمْرُكَ سَرَابًا مَهْجُورًا.
 لَا يَكُنْ عَمْرُكَ سَفَرًا بِلَا مَعْنَى، ذَاكَ عَمْرٌ عَقِيمٌ.
 وَقَدْ قَالَ لَكَ مَوْلَاكَ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

لَا تَلْتَفِتْ، طَوْرًا تَزِيغَ، إِنْ كَانَتْ مَزْنَةٌ بِلَاءٍ، وَطَوْرًا تَسِيرَ، إِنْ كَانَتْ دِيمَةً
 رِخَاءٍ تَغْرِي..

هيهات هيهات.

ما طريق الله كذلك!

لا تلتفت، واسكن عنده في موطن الوصل.

وإياك أن تتذبذب.

فإن المقامات لا تحب الأفلين!

ولا تلتفت، وأنت تصلح نفسك، وتصلح للأمة المسارات.

كي لا تتعثر الأجيال في طرقاتها!

فإن رآك الله في الطريق عازماً، كان لك مئبئاً.

فلا تخش وحشة الطريق..

إنك «إن سددت الباب، وقطعت الأسباب، وجالست الوهاب»، آتاك من

فضله بلا حساب!

﴿وَالْوِاسْتَقْلَامُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾.

فشمّر وسابق أنفاسك، وألق الدنيا في نحر أصحابها، وقل:

«إلهي ارفعنا بعفوك، وعاملنا بفضلك، وتحنن علينا بوذك، حتى نبُغِ وضلك».

واسأله من عميق فورك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

واذكر أنه قليل من يُتقن العبور إلى المُنتهى، رغم بعدها.

ويقاوم أن يزيغ البصر عنها.

وذاك تفرّد مقام نبيك، لو تنتبه في قوله تعالى:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

فخذ من المعنى مقامك!

فاجعل عملك ديمة، فالدوام، يُبقيك على قيد الوصال.

وإِيَّاكَ وَسَعَى الْفُورَةِ..

فُورَةٌ تَتْلُوها فُورَةٌ، تَلْحَقُها فُورَةٌ، ثُمَّ تَنْتَهِى إِلَى صَمْتِ الْانْقِطَاعِ!

تلك جُذُورٌ، لم تَرْتَوْ صَوَابًا.

وتلك أَعْجُوبَةُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَنَّها تَحْتَاجُ إِلَى الْارْتِواءِ بِمائها الْحَقِيقِيِّ حَتَّى تَنْبِت.

وَكُلُّما تَشَبَّعتْ بِالْخَيْرِ، فَاضَتْ بِقِطَافِها!

فَإِذا بَلَغَتِ النَّفْسُ سَكِينَةَ الثَّبَاتِ، لَنْ يَلْحَقُها خَسَفُ الذُّنُوبِ وَلَا كَسْفُها!

والله هو الْعَلِيمُ مِنْ بَعْدِ مَنْ يَبْذُلُ صِدْقَهُ، وَمَنْ يَبْذُلُ لِلَّهِ تَرَدُّدَهُ.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

هذه آيَةٌ كَاشِفَةٌ.

فَأَرِ اللَّهَ مَاذَا قَامَ فِي قَلْبِكَ!

وما هو الطَّرِيقُ وَاللَّهُ..

إِلَّا خُطْوَةٌ لَا تَكُلُّ، وَعَزِيمَةٌ لَا تَتِنُّ، وَثَبَاتٌ لَا يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ.

وَيَقْظَةُ شَعَارِها: «الْيَوْمَ الرَّهْمَانُ وَالْعُمَرُ السَّبَّاقُ، وَالْجَنَّةُ الْغَايَةُ»!

فِيا «مَنْ أَعَدَّ الرَّاحِلَةَ، وَوَاعَدَ نَفْسَهُ بِالْمَسِيرِ..

قَوَافِلُ أَهْلِ السَّفَرِ لَا تَنْتَظِرُ، وَقَوَاطِعُ الْهِمَمِ لَهَا هُجُومٌ مُبَاغِتٌ»، فَلَا تَلْتَفَتُ!

لَا تَلْتَفَتُ، وَلَوْ كَانَ الْامْتِحَانُ تَأَخَّرَ مَوَاعِيدُ الْعِطَاءِ، فَهَذَا امْتِحَانُكَ!

اثْبِتْ عَلَى يَقِينِكَ، وَلَا تَلْتَفَتْ عَنْ ثَبَاتِكَ..

وَقُلْ لَهُ:

يَا مُوَلَايَ، يُحَاصِرُنِي كَلَامٌ بِحَجْمِ الْفَقْدِ الَّذِي يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَحْدَهُ.

بِحَجْمِ مَا أَخْشَى أَنَّهُ يَتَاكَلُّ فِي دَاخِلِي.

وَبِحَجْمِ تَنْهِيدَةٍ ثَقِيلَةٍ يَسْمَعُ أَنْيْنُها اللَّهُ!

انتظرتُ حتَّى مُنتصف الطَّرِيق.

ولكنَّ شيئاً لم يحدث!

كنتُ أظنُّ أنَّ المواعيد المُتأخِّرة، يُمكن تَجاوُزها.

لكنَّ هذا لم يكن!

أَعَلِمَ أَنِّي رَأَيْتُ الخَرْقَ فِي السَّفِينَةِ..

لكنِّي أبحرتُ، لأنَّكَ أنتَ مَجْرِيها!

لا أدري كيفَ صمدتُ في وجهِ العاصفة!

لم أَلْتَفَتُ سوى لوجهك الكريم..

ولا أدري حتَّى اللَّحظة كيفَ أَفَلْتُ مِن كُلِّ السَّهامِ القَريبة؟!

وكيفَ صَمَتَ الضَّجِيجُ في داخلي؟!

وبدت الطَّمَأَينَةِ، والعُمقُ قَدَره القَلقُ!

وكَلِّما اشتدَّ الفَراغُ كنتُ أعودُ إليكَ..

لأنَّكَ مَن يملكُ أمانَ الطَّرِيق!

يَكفِيني..

أَنَّ المَفقودَ هُنا، مَوجودٌ هُناكَ!

عندكَ أنتَ حيثَ تُشبهنا أَجورنا.

في دارٍ لا تعرفُ مُفردة الدُّموع، ولا حُرُوفها، ولا مذاقها، ولا أسبابها!

لَكَ الحمدُ أَنَّكَ تَمُنحنا الإجابةَ مَناماً وبقِظَةً، وحناناً مِن لَدُنكَ نَعرفه إذا هبَّت رِياحُ الأَلَم!

إليكِ وجَّهتُ وجهي ويَمَّمتُ قلبي..

وحقكَ ما التفتُ القلبَ لسواكَ سؤالاً ولا انتظاراً ولا سعيّاً

ثَبَّتَنِي في وحشةِ المسيرِ

وكنَ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفرِ والطَّرِيقِ.

واملاً عينِ قلبي بك، ونبضِ قلبي لك، وبلَّغني مقام: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

﴿١١﴾، فلا أَلْتَفَتُ عنكَ!

الخطوة السادسة عشرة

الخلوة، ميقات الغسل للنفس
من أدرانها



﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾.

أربعون ليلة..

كانت ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمَهَا بِعَشْرِ﴾ فتَمَّ له موعد التكليم.

أربعون ليلة، نسج فيها لقلبه رداء لا خيط فيه منفرد.

هناك كان فوق التَّسامي حتَّى نودي من هناك..

عكف، واعتكف، ورابط، وربط بُراق قلبه حتَّى ينال مقام ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾،

فهل استوقفتك الدَّلالة؟

هذا الغياب الصَّامت بعده فيض العطاء.

هذا انسحابٌ يُمزج فيه الصَّبْر بالوقت.

انسحابٌ يعالج فيه جراحات عميقة، ويثني ركبتيه على غاية تبدو بعيدة.

وما يبلغ المقاصد إلَّا القاصد..

يُسدل ستارةً غيبه، ويكاد يبدو خيالاً في أعين النَّاس.

لكنَّه في المعتكف يدوّن ما جرى للقلب، ويسمع صوت خطو القرب،

ويصلُ الدَّمع بالدَّمع، ويكرّر الأوبة وراء الأوبة.

يتزوّد، ليزاّجم سبق العمر.

ونحن نقول في نصف سطر: «كان فلان في عزلة» وما ندري أنَّ فلانًا كان في سَكينة الميلاد، في عزلةٍ راشدة.

وعند الفجر، ينبلج المحال، بطيء الثَّمَر عظيم الأثر!

تراه يتفقد فلتات الزَّلل، حتَّى لا يستصغر العظام.

أولئك ضنائن الله، يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية.

وأعلى العافية، العافية ممَّا يسرق المقامات، يهبه الله ما لا ينفد به الجود، فقد كان هاربًا من الأدنى.

في العزلة نحن نغادر قليلًا، كي نكون!

وما دون ذلك إلَّا دجى موصولًا بالدُّجى.

يفنى زمان الانسحاب، ويبقى ما بعده.

فتأمل ابن خلدون، إذ اعتكف سنواتٍ أربعًا، فكان كتابه في العمران خالدًا ما بقي الزَّمان.

وفطن البخاري لمهمَّته، فجمع صحيحه في ستَّة عشر عامًا، طاف فيها الأرض.

ومن أتعبه المآل، تجرَّد له في الحال.

وإنَّما ينضح القلب، بما استودع في غيب الغياب.

ومن عبرة الحياة أنَّ في اليابان شجرة تبقى بذورها تحت الأرض أربع سنوات تامَّة، يتعاهدونها بالرَّعاية والسَّقاية وقد يمرُّ المارُّ ولا يعلم أنَّ في تلك

البقعة بذرة مخفية!

فإذا أنهت سنواتها الأربع، ظهرت دفعة واحدة بما يوازي غيابها، ثم تنمو نمواً مضاعفاً عن بقية الشجيرات من حولها، ولقد غدت في الثقافة اليابانية رمزاً لمعنى الخلوة الواعية.

اعتزل لصناعة ذاتك

والخلوة لبناء الذات في كل المراحل اعتزال مؤقت، وصفه ابن عطاء الله السكندري بقوله:

«ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن، لا يتم نتاجه»،
والتغير قدره.

تلك خلوة مثمرة تنفق فيها معنى الادّخار للآخرة في صمت!

والخلوة إذا كانت وفق موازين الآخرة، تؤتي أكلها، وتحفر في الروح آثارها!

والزّوال سنة الله في كلّ نتاج، لا تعرف جذوره اصطباراً!

فالخلوة في فقه السلف: ميقات الغسل للنفس من أدرانها.

وأراها مشقة النضج، لما يكابد صاحبها في صناعة ذاته، وقد قيل:
«عذاب الجذوع، هو السبيل لرواء الفروع!».

وفي العزلة اقرأ ذاتك

إذ في الخلوة تعرف ذاتك، وهذا أعظم العرفان.

إذ معرفتك من أنت، هي قاعدتك التي لا تنهدم!

لقد كان ابن حزم -العالم الأندلسي الموسوعي- يحصي معايبه، ويعدّ أخطاءه من الحول إلى الحول، ويعترف بنقصه، ويجهد في ترميم ما انهدم منه.

وكان ذلك من معرفته بنفسه!

هذه عزلة تخبرك من شدة نورها على أي قارعة أنت!

هل أنت من أهل: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾، أم أنت ممّن ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾!

ودومًا ثَمَّة من يلتقي بذاته، وثَمَّة من يرتدي موت القيود.
ولا يزال المرء أمّيًا، حتّى يقرأ ذاته!
ثمّ تكشفُ لك الخلوة صوتَ أعماقك، ودبيبَ ملامحك من الدّاخل!

«تعتمد الثقافة اليابانيّة على فلسفة تؤمن بالتّطور سلوغيًا دائمًا للحياة.
وتترجم هذه الفلسفة في حياة الياباني بأسئلة ثلاثة لا بدّ من استحضارها
دومًا.

وإعداد الجواب لها في جميع مستويات حياته.
أولها: كيف يمكن أن أجعل ما أحمله من مسؤوليّة أفضل ممّا هو عليه؟
وثانيها: كيف أصبح أكثر فاعلية؟
وأخرها: كيف أجعل ما أحسن أكثر نفعًا لأمّتي؟
ولعلّ تكرار السّؤال بـ(كيف) ليؤكد أنّ فلسفة تؤمن بالتّطور النّوعيّ
سلوغيًا نافعًا للحياة، لا بدّ أن تترك لها بصمة على الحياة!

فحذار، أن تموتَ وأنتَ وإهم، أن بعض الغبار فقط علق بك!

هذا الضّجيجُ البشريّ من حولك، يُشبه الطّوفان.
يقودك من حيث لا تدري.

ثق أنّهم يصنعون بينك وبين السّماء فجوة، وقد كان بينك وبينها لو
انتبهت، خطوة!

لذا، ادفنْ وجودك في أرضِ الخمول، فما نبتَ ممّا لم يُدفنْ، لا يتمّ نتاجُه،
ولن يتمّ نتاجُه!

إنّ شجرة ﴿أصلها ثابتٌ وفرعها في السّماء﴾، تكون لمن تجذر طويلاً..



واعتكفَ على ذاته، حتَّى طالتْ قامَتُهُ، وَقَبَضَ السَّحَابَ!

وأنصت لما استقرَّ فيك

فإن شئت أن تعرفَ مقامك عنده

وأردت أن تعرفَ قَدْرَكَ عنده، فانظرْ في ماذا يُقيِّمُك، فهو لا يُقيِّمُ

أولياءه إلا على مدارجِ الوصولِ!

فانجُ بالخُلوة من سنواتِ خادِعات، تُريك من نفسك خيرًا..

ولا تُغريك الدُّروب بِخَطوها.

فإن بين يديك أسئلة، تشكو فقدَ جوابها!

فأنصت لنفسك ودبيب خفاياها، وألقِ السَّمْعَ لعميق ما استقرَّ فيك!

ثِقْ، أن الذين يهتدونَ للخرابِ الَّذي في داخلهم، هم من يكتملون.

وصمت الاعتزال يجلي الحقيقة لك ناصعة، أن ثمةَ خطأً كثيرًا فينا!

فلا تعتذرْ لنفسك، ولا تتشبَّثْ بالخُيوطِ الواهنة.

تلكَ الخُيوطُ، هي حبالُ مشنقتك!

والله ما يحفظ لك بقِيَّتَكَ، إلا خلوة تَجْمَعُكَ على ذاتك، وتُبَلِّغُكَ المُبتَغى.

من القبول والرضا والأثر.

املاً خلوتك

وكلُّ اعتكاف في الخلوة يبعثُك، يوقِفُكَ في الصَّمتِ، وأوَّلُ الطَّرِيقِ الصَّمتُ.

ويثمر النَّبْتُ، إذا كانت الوحدة مُمتلئةً بِعِلْمٍ نافع، وعلى خُطى ﴿وَرَتِّلْ

الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾!

تقرأ فيها قراءة تنقذنا من الغرق.

قراءة تهدينا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قراءة توقفنا على ولادتنا، وعلى شمس انبعاثنا.
واعمد إلى قراءة عميقة، تركز على قلم يُسَطَّرُ بصبر، وعقل يلتهم الصَّعب
لا السَّهل البسيط!

فوالله ما إن يذيقك الله طعم الخلوة به وبالعلم، حتَّى تنفر نفسك ممَّا
سواه.

وَحَقُّ لِمَنْ مَلَكَ الْوَحْدَةَ الْمَمْتَلِئَةُ، أَنْ يَضُنَّ بِهَا، فَتلك الخلوة غناءٌ عن الخلق!

وما أدراك مَا المبتغى؟
مَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَلْتَقِطَ الْمَقْصِدَ مِنْ وَجُودِكَ، «فلا تَنشغل بِالْعَطَاءِ،
قَبْلَ إِتْمَامِ الْبِنَاءِ».

اقرأ ورتِّل القرآن على عمقك، واسمع عيسى في المَهْدِ يقول ﴿إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ﴾!

ولا تَظْهَرْ فِي حِلْيَةِ ذَاتِكَ، وَتُشَابِهِ الشَّيْطَانَ يَوْمَ قَالَ ﴿أَنَا﴾!
وَلَنْ تَبْلُغَ ذَلِكَ حَتَّى تَبْلُغَ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ وَتَبْلُغَ مَعْنَى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ
مَا رَأَى﴾.

فالقلبُ المضْقولُ، تنعكسُ فيه الْحَقَائِقُ جَلِيَّةً!

هل تَدْرِي..

كَمْ هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ هُمُكَ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْعِبَادِ مَرْتَبًا، وَبَيْنَ أَنْ
تَصِيرَ عِنْدَ اللَّهِ مَرْضِيًّا؟!

الفرقُ، هُوَ بَيْنَ هُوَّةِ الضِّيَاعِ وَقِمَّةِ الْاِكْتِمَالِ!

وقد قالوا في قراءة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

فهو مقامٌ، رفيعٌ أَنْ يُنَالَ، وحاشَى له أَنْ يُمَالَ!

وما يكون ذلك، إلا باستقامة لا يدرُكها إلا مَنْ أَتَقَنَ تَقَقُّدَ السَّبِيلِ.

فترَاهُ يَزِدُّهُمْ فِي صَمَتِهِ، وَتَرَاهُ مِنْ بَعْدِ نَسِيحٍ وَحْدَتِهِ، يَغْرِسُ فَعْلَهُ.
فَإِذَا أَشْرَقَ عَلَيْهِ صَبَاحُ التَّمَكِينِ، رَأَيْتَهُ مِثْلَ جَدُولٍ يَنْسَابُ.
وَكُلُّ نَحْتٍ فِي الْخَفَاءِ، عَاقِبَتُهُ ثَبَاتُ!
وَمَنْ لَمْ يَثْبِتْ فِي صَمَتِ خُلُوتِهِ، عُبِثَتْ بِهِ الْعَوَاصِفُ.

وَفِي الْقَحْطِ، تُعَرَّفُ الشَّجَرَةُ الَّتِي ارْتَوَتْ طَوِيلًا.
وَفِي غَمْرَةٍ مَا لَا يُرَى، تَنْقُصُ النَّفْسُ مِنْ أَطْرَافِهَا حَتَّى تَهْلِكَ.
تِلْكَ نَفْسٌ مَا مَنَحَتْ ذَاتَهَا فِقْهَ الْخُلُوةِ!

تَبِيحُ لِكَ الْخُلُوةِ حِمَى خَصْبَةٍ، وَتَبْلُغُ بِكَ تِلَاعًا لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا مَنْ خَاضَ مَعَ
النَّفْسِ مَعْمَعَةَ الْوَعْيِ، فَنَفَضَ مَا عَلِقَ بِهَا مِنْ آثَامِهَا، وَرَمَمَ مَا هُوَ بِهِ عَلِيمٌ مِنْ
ثَغَرَاتِهَا، وَقَطَعَ الْمَفَاوِزَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ!

فَإِنْ رُزِقْتَ عِلْمًا فِي خُلُوةٍ، وَدَمْعَةً نَائِيَةً عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ، وَصَمْتًا تَسْمَعُ بِهِ
دَبِيبَ الشَّرْكِ فِي قَلْبِكَ، فَتَنْفِي عَنْهُ مَا عَلِقَ بِهِ مِنْ خَفِيِّ الْأَرْبَابِ وَتَعُدُّ الْأَلْهَةَ،
وَتُعْلَنُ فِي عُمْقِكَ: أَحَدٌ أَحَدٌ، كَفَّارَةٌ تَخْلِيطٍ مَضَى، فَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكَ!

عاقبة الخُلُوةِ..

خَلَّاصُ النَّفْسِ مِمَّا يُهْلِكُهَا، وَانْفِلَاتِ الرُّوحِ مِنْ كَيْدِ الْمَصِيدَةِ، وَمَنْ غُبَارِ
الْفَوْضَى!
لِذَا..

لَا تَبِكْ عَلَى مَنْ سَقَطُوا فِي الظُّلْمِ، فَانْصَفِ الْجِرَارَ لَا تُقَطِّعْ بِهَا الصَّحْرَاءُ!
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَذُودُ الْفِتْنَ عَنْ صَدْرِهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا لَبُوسُ نُسُجٍ فِي اخْتِلَاءِ
أَوْ خَفَاءِ!

تلك الزرد تقيك وَهَجِ الْفِتْنَةِ، إِذَا اشْتَعَلَتْ، وَحَرَّ نِيرَانِهَا، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ فِي
ضَجِيجِ الْحَيَاةِ غَارِقُونَ، حَتَّى إِذَا أَضْنَتِ الدُّنْيَا قُلُوبَهُمْ، رَأَيْتَهُمْ غَابُوا، وَلَوْ وَقَفُوا
فِي مَفَاصِلِ الْعُمَرِ وَاحْتَشَدُوا فِي خَلْوَةٍ، مَا نَقَصُوا، وَلَا فَقَدُوا مَا فَقَدُوا!

فَإِذَا شَعَرْتَ بِرُوحِكَ تَتَحَاشَى الْعِزَائِمَ، وَلَيْسَ مَعَكَ أَثَارَةٌ مِنْ ثَبَاتٍ تَتَبَلَّغُ
بِهَا، فَاعْتَزِلْ، حَتَّى لَا ﴿تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾!

فَإِذَا جَفَّتْ مِنْكَ السَّوَاقِي، فَارَوْهَا بِالْخُلْوَةِ الْمَحْمُودَةِ.
تلك سِرَاجُ الْمُدْلَجِينَ، وَحَبْلٌ مُفْتُولٌ يُتَوَصَّلُ بِهِ، إِلَى أَنْ تَبْلُغَكَ ﴿وَمَا بَدَلُوا
تَبْدِيلًا﴾!

ثُمَّ تَرَقَّى بِكَ إِلَى مَعْنَى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾!

تَحْمِلُكَ الْعُزْلَةَ، فَتَقْطَعُ بِكَ الْمَسَافَاتِ الطَّوَالَ.
وَفِي سَكِينَتِهَا، تُسَاقِطُ عَنْ رُوحِكَ مَا لَا تُطِيقُ.
إِذْ فِيهِ يَبْلُغُ الْمَرءُ أَنْ يَرَى مَلَامَحَهُ، فَيَجْهَدُ.
ذَاكَ مُكْتُ، يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَتْهُ الْخَطَايَا!
وَاحْذَرِ أَنْ تُفْسِدَ خُلُوتَكَ بِفِرَاقٍ يَعِصِفُ بِكَ حَتَّى يَلْقِيكَ يَبَاسًا هَالِكًا.

وَكُلُّ مَنْ رَأَيْتَهُ حِلًّا وَمُرْتَجِلًا، وَمُقْبِلًا وَمُذْبِرًا لَا يَثْبِتُ قَلْبُهُ عَلَى سِرَجِ
الْمَسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ، فَاعْلَمْ أَنَّ مَالَهُ نَقْصٌ لَا يَكْتَمِلُ!
ذَاكَ عَبْدٌ لَا يَتَفَقَّدُ نَفْسَهُ بِخُلْوَةِ مَحْمُودَةٍ!

الخلوة ومعنى التركيز

واعلم أَنَّ النُّورَ الْمُنْتَشِرَ، لَا يَضِيءُ الْبَصِيرَةَ.

والخلوة تهديك معنى التركيز، فتجمع لك منحك الربانية في بؤرة، تؤهلك
لامتداد لا ينقطع!
فاعكف على اللب من العلم، يثمر سقيك، واهرب من القشور.
 واجمع عقلك على أصول العلم النافع، وعلى عبادة تقيك أن تكون في مهب
الفتن ريشة!

إن الانسحاب المؤقت سلوك، لا يتقنه إلا الكمّل
فدع عنك الثروة في كل ما يثار، فإن العمر لا يحتمل كل هذا الطحن.
ولا تقضي عمرك في كل سطر على صفحات الإعلام، وأتقن فضيلة
الصمت.

فإن القوم تهوي بهم الكلمات، وما يدرون!
فإن تحيرت والتبست عليك الطرق، فالزم الأمر كما بدأ، وتفرغ له، فقد
كان أول الأمر خلوة تبعها: ﴿اقْرَأْ﴾!



الخطوة السابعة عشرة

وفي خلوتك فتش عن
خفي عيوبك



وَقَدْ قِيلَ لَكَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ:
أَفْلَحَ مَنْ تَعَنَّى وَتَأَنَّى.
تَعَنَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّفْسِ..
وَتَأَنَّى فِي إِصْلَاحِهَا!

وَأَوَّلُ فَرِيضَتِكَ، بَلْ هُوَ فَرِيضَةُ الْبَدءِ، مَعْرِفَةُ نَفْسِكَ.
وَذَلِكَ هُوَ الْإِنْعِتَاقُ الْمُبَكِّرُ!
ابْحَثْ عَنْ نَفْسِكَ وَسَطِ كُلِّ هَذَا الرُّكَّامِ الزَّائِلِ، وَحَدِّدْ مَا هِيَ تَكِ.
وَقَدْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: كَيْفَ اكْتَمَلْتَ؟ قَالَ: «مِنْ حَيْثُ نَقَصَ الْآخَرُونَ».
فَاجْعَلْ نَقْصَهُمْ زِيَادَتَكَ، وَتَعَلَّمْ مِنْ عَثَرَاتِهِمْ.

تَفَقَّدْ عَيُوبَكَ قَبْلَ عَيُوبِ غَيْرِكَ!
قُلْ لِنَفْسِكَ فِي خُلُوتِكَ:
إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَقِدُونَ الْآخَرِينَ، مُثْقَلُونَ بِالْأَنَّا.
مُثْقَلُونَ بِإِحْسَاسِ السُّمُو!
وَكُنْ عَبْدًا، عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ عَيْبًا فَاَنْشَغَلَ بِهَا حَتَّى أَسْكَنَتْهُ عَنِ الْإِنْشَغَالِ
بِنَقْصِ الْقَوْمِ.

وَقَدْ كَانَ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ:
«وَإِنِّي لِأَعْرِفُ عَيْبَ نَفْسِي، كَثْرَةُ الْكَلَامِ»!
ذَاكَ رَجُلٌ فَتَّشَ، فَأَبْصَرَ.

والعبدُ لو تحمَّل الشُّقَّةَ في التَّدقيق، لكان على نَهج النُّبوة في كثرة الاستغفار!

فابدأ من نفسك بالأدنى، ثمَّ الأدنى، حتَّى تبلغَ كُلَّ صغائرها!
واحذر من البحث عن صورتك في أعين الآخرين.
وألِقِ الألقاب وما ابتكر القوم من ديباجات في نُحور عبادها!

وازهَد في حُظوظ نفسك..
وأعْتَق قلبك من عبادةِ الذات، وقُل: أَحَدُ أَحَدٍ!
ثمَّ رَمِّ ما انهدمَ منك.
وفتِّش عن نَقصك، وأسبابِ نقصك
فإنَّ النِّقص سيِّئَةٌ!

وتخلَّص من عَمتك، وتفقد من ظلمتَ
فإنَّ حُمولة الظُّلْمة، تُثقل وُصولك!

اتَّخِذْ لَكَ وَرْدًا من مواجهةِ الذات، وسائِلها في خلوتك:
كَمْ حَظُّكَ مِنَ التَّوَّاضِعِ؟
وكم حَظُّكَ مِنْ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾؟!

وقل لها: يَا نَفْس..
إِنَّ قَدَرَ الْأَنَا، التَّلَاشِي.
فاحذري من أُولِ يُبَاغِتْكَ!

وَمَنْ يَرِ فِي الْكَوْنِ ذَاتَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى!

ثُمَّ سَأَلَهَا، كَمْ يَغْضُ الْقَلْبُ طَرْفَهُ عَنْ رُؤْيَا ذَاتِهِ، وَكَمْ حَظُّهُ مِنْ: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

تلك ملكيَّة مَنْ لَا يملك.

فكان المآل: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ﴾!

وَقُل: يَا نَفْس..

كُلُّ اسْتِكْثَارٍ، عِلَامَةُ الْقَلَّةِ.

وَالنَّفَقَةُ، بَرَهَانُ الْحُرِيَّةِ.

وَمَا سِوَى ذَلِكَ، إِلَّا قَيْدٌ أَوْ رِقٌّ!

وَتَفَقَّدَ مِنْ بَعْدِ كَلِمَتِكَ..

فَإِنَّهَا صَوْتُ قَلْبِكَ.

وَكُلُّ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِ ﴿عَلِمْتُ﴾، فَقَدْ خَالَطَهُ الرِّيَاءُ وَمَا يَدْرِي!

وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ، تَكْشِفُ الْخَبَايَا.

وَقَدْ قِيلَ: «لَا تَسْتَعْجِلِ النُّطْقَ، فَإِنَّ الصَّمْتَ أَوَّلَ سَبِيلِكَ إِلَى إِيَّاسِ الشَّيْطَانِ

مِنْكَ!».

وَأَيَّةُ سَبَرِ أَغْوَارِ النَّفْسِ، أَنْ يَلْحِظَ الْإِنْسَانُ نُطْقَهُ.

ثُمَّ لَا يُفْرِحَنَّ مَا بَلَغَتْ، فَتَقَعُدَ مَعَ سَابِلَةِ الطَّرِيقِ، بَلْ أَتِمَّ وَقُلْ لِنَفْسِكَ:

كَمْ حَظُّكَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لِرَجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ

وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»!

تلك أُمِّيَالٌ تَوْزَنُ فِي الْمِيزَانِ اسْمُهَا: سَيْرُ الْقَلْبِ!

فهل تراك في ذاك المسير؟

وَمَنْ تَوَجَّعَ لِعَثْرَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، فَذَاكَ دَلِيلُ صَلَاحِ قَلْبِهِ.

فَهَلْ هَكَذَا قَلْبُكَ؟

وَكَمْ هُوَ ظَنُّكَ، أَنْ تَكُونَ فِي الْقِلَّةِ مِمَّنْ ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وَإِذَا انْهَارَتْ نَفُوسُ النَّاسِ بِمِصَائِبِهَا..

هَلْ تَرَاكَ مُنْشَرَحًا كَأَنَّكَ مَنْ قِيلَ لَهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾!

وَهَلْ فِي قَلْبِكَ لَا تَهْدَأُ مَكَامِنَ الشُّوقِ لَزْمِنِ: ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِّن قُرْءَانٍ أَعْيُنٍ﴾.

وَلَوْ أَجْدَبَتْ الطُّرُقُ عَلَى الْقَوْمِ..

أَتَرَاكَ مُفَوِّضًا مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ عَلَى الْأَسْبَابِ؟!

تِلْكَ وَرَبِّي قُلُوبٌ أَفْرَغَتْ لِلَّهِ.

وَانْغَمَسَتْ فِي (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)!

وَهَلْ تَرَاكَ قَلْتَ لِنَفْسِكَ:

كُلُّ نَدَبَاتِ التَّعَبِ فِي مَدَافِعِ الْأَذَى عَنِ الْقَلْبِ، إِنَّمَا هِيَ أَسْبَابُ تَهْيِئَتِهِ لِلْمَقَامِ.

وَمَنْ تَرَكَ مَقْعَدَ لَغْوٍ، اسْتَحَقَّ مَقْعَدَ صِدْقٍ!

فَاعْكُفْ عَلَى ذَاتِكَ

وَانزَعْ مِنْهَا زَيْفَهَا..

وَاخْلَعْ دَنَسَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُكَ كُلَّكَ، فَلَا تَعْرُجْ إِلَيْهِ بِبَعْضِكَ!

لِذَا..

عَدَّ أَحَدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الْيَقْظَةَ، أَوَّلَ الْمَقَامَاتِ!

فَتَنَّبَهُ..

كَيْفَ أَنْ فَرَيْضَتَكَ الْيَقِظَةُ، وَمَعْرِفَةَ ذَاتِكَ قَبْلَ مَعْرِفَةِ غَيْرِكَ..
تلك عبادة، تستنفر الحواس!

وَكَلَّمَا اقْتَرَبْتَ مِمَّا يَنْقُصُكَ، دُقَّتْ لَكَ الْأَجْرَاسُ كَأَنَّهَا نَاقُوسُ الْحَذَرِ، أَنَّ
نَقْصَكَ هُوَ زَلَلَ غَيْبِكَ!

السُّقُوطُ يَبْدَأُ مِنَ الدَّاخِلِ

فَالْعَبْدُ لَا يَسْقُطُ، إِلَّا مِنْ هُوَّةِ نَفْسِهِ..

وتلك حقيقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿﴾.

لكن كما قيل «ما هلاك الإنسان، إلا في النسيان».

إِنَّ الْهَآوِيَةَ أَوْلَاهَا: هُوَّةُ الذَّاتِ.

فَانْشَغِلْ بِثَغْرَاتِكَ، قَبْلَ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْكَ الشَّيْطَانُ..

«وَعَلَى الْعَبْدِ الْعَزْمُ، وَبِيدَ اللَّهِ التُّبَاتُ»!

اخْلَعْ جِهْلَكَ فِيمَا مَضَى، وَتَوَجَّهْ.

وَأَعْتِقْ خَطُوتَكَ مِنْ أَغْلَالِ التَّلْبِيسِ، بِالْمِرَاقَبَةِ.

وَلَكِنَّ اكْتَشَفْتَ نَفْسَكَ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ، فَسَابِقْهَا حَتَّى تَعْجَزَ عَنِ اللَّحَاقِ

بك!

وَالنُّهَآيَاتُ، تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْبَدَايَاتِ..

فَاحْذَرِ أَنْ يَمْضِيَ الْعُمْرُ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ نَقْصَهَا.

فَلَرُبَّمَا تَعَثَّرْتَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْهَا بِفَاجِعَةٍ، فَتُصِيبُ مِنْكَ مَقْتَلًا!

وَيُذْنِدُنَ النَّاسُ: سَقَطَ فُلَانٌ.

وما سقط الآن.

فَقَدْ كَانَ مُنْذُ زَمَنٍ فِي عُمَقِهِ سَاقِطًا!

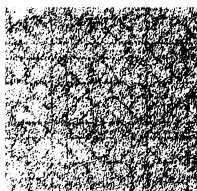
وَمَنْ لَا يَتَّقِي زَلَّاتِ قَلْبِهِ، يَتَعَثَّرُ، وَذَاكَ هُوَ مَعْنَى:
﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلُهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾!

إِذْ «مَنْ أَخْفَى خَبِيئَةً، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثِيَابَهَا» وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.
وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْمَهَامِ قَبْلَ النَّظَرِ فِي النَّفْسِ، مَهَامٌ قَاجِلَةٌ.
وَكُلُّ ابْتِدَاءٍ مِنْ خَارِجِ الذَّاتِ، مَالُهُ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾!

وَمَا يَكُونُ حِظُّكَ مِنَ النَّجَاةِ، إِلَّا عَلَى قَدَرِ حِظِّكَ مِنَ الرُّعَايَةِ لِنَفْسِكَ!
يَبْتَلِيكَ، لِيَكْشِفَ حُسْنَ الظَّنِّ مِنْكَ.
وَيَخْتَبِرُكَ، لِيَرَى صِدْقَ الْمَحَبَّةِ لَهُ.
وَيُثْقَلُ عَلَيْكَ، لِتَخَفَّ إِلَيْهِ!

انْزِعْ سِتْرَ الْمَعَازِيرِ.
وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبَعُ رُخَصَ الْأَحْوَالِ، فَتَنْظِلُ فِي التَّبَرِيرِ.
وَعَاقِبَةُ التَّبَرِيرِ: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ فَرَحًا لَنْ يَطُولَ!





الخطوة الثامنة
عشرة

﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾



فانظُر ماذا أُشرب قلبك؟!

هنا، مقطعُ آيةٍ يحملُ بلاغةً قرآنيَّةً باهرةً، في وصفٍ موقِفٍ نفسيٍّ!
ففي حديثٍ عن سلوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بعد تحرُّرهم من العبودية، يصفُ
القرآنُ تعلُّقهم بعبوديَّةٍ داخليةٍ، أقسى وأشدَّ من العبودية الخارجة!
﴿وَأَشْرَبُوا﴾..

وكان الظنُّ القول: (وأكلوا)، فهذا الذي يناسب العجل، لكنَّه عبَّرَ بالشُّرب،
إشارةً إلى تغلُّغ العجل في كلِّ خلية من خلاياهم، وفي كلِّ نواحي قلبهم!
ثم كان المُتوقع أن يقول: حب العجل، فقال فقط: العجل.
وهي صورة غليظة، ماديَّة ثقيلة، توقفك على بلوغ العجل بكلِّ مايتَّصل
به، من عبوديته، وحبِّه، وتقديسه، وزينته إلى كلِّ مساحات قلوبهم!
حتَّى كأنَّ العجل بكلِّ ضخامته، يُسقى في قلوبهم، وهي تشربه على
عظمه!

والغريب..

أن الماديات لا تُشرب.

ولكن التعبير كشف عن أنَّ المادة تُعشق في القلب أوَّلاً، وتَسْتَبِيح الفؤاد
بداية.

لذا، تسيل له كأنَّها ماء العطاشى!

وأشربوا العجل بكُفْرهم، فهو بفعلٍ سبق، أدَّى إلى خاتمة شنيعة.

فالمُقَدِّمات، تُبلِّغ المرء النهايات!

والكُفْر هنا، رغم وجود موسى وفَيْض المعجزات في تاريخهم، وظاهر الإيمان عليهم، فإنَّه كان مَسْتَكْنًا مستقرًّا، خفيًّا في أعماق الفؤاد. لذا، ناسبه أن يستقرَّ معه العجل في صميم الدَّاخل، حيث لا شيء يَخفى على العليم الخبير!

تبدو الأفكار غائبة عن نظر الرَّاأي، وغائرة في عُمق الرُّوح الإنسانيَّة، مُتغلغلة في النَّبْض والأنفاس، حتَّى كأنَّها ماءٌ تشرَّبه المرء، فيستقرُّ في صميم القلب، ويكون من بعد، هو صوت الحَقِيقَة فيك!

يقولُ العلماء:

«إنَّ الجسد يتفاعل فيزيائيًّا مع الصُّور العقليَّة الَّتِي يتخيَّلها الإنسان، ويفكرُ بها، ويهتمُّ لها، ويتجاوب كيميائيًّا مع هذا الحبُّ للفكرة.

ففي (33 ثانية) من التَّركيز على مشهد ما، أو الاقتناع بفكرة معيَّنة لمدَّة (21 يومًا) مستمرَّة، فإنَّ ذلك كلُّه يكفي لبرمجة باطن الإنسان داخليًّا، ومن ثَمَّ تجاوب الجسد، لتحقيق الصُّورة المتخيَّلة، أو الفكرة الَّتِي تدرَّب عليها العقل، في هيئة سلوك، أو عبادة، أو سعي، نحو ما استقرَّ في عُمقه!».

إنَّ السُّلوك يستجيب لندائكِ الداخليِّ، وتلك هي: «براعم الحقيقة»!

فانظر ماذا أُشرب قلبك؟!

يقول أحد السلف الصالح: «إنَّ النَّفس الإنسانيَّة عندما تعجُّ بوساوس الشرِّ، وتضطرب بها أساليب الفكر، فليس يصلحها تغطية هذه العيوب بثوب من المراسم والمناسك.

وإنَّ التَّركية المنشودة لا تتحقَّق إلا بالشفاء من هذه الآفات وهذا معنى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝٢﴾. إنَّ التَّدِين المغشوش، أو التَّدِين المغلوط، هو أساس

مشكلتنا!

فما قيمة الشّعائر وما تحت الجبّة والجلباب والعمّة، يحتاج إلى إصلاح، بل إلى تبديل!».

ثمّ يقول دون مجاملة:

«لا طريق لنصرة الحقّ وغلبة الخير إلّا الجهاد المضني، لجعل عادة حسنة تغلب عادة رديئة! وتقليد صالح يغلب تقليدًا فاسدًا! وتيارًا نقيًا يغلب تيارًا ملوثًا».

صدقته..

وما يُزهر في الآخرة، إلّا مُتَزَوِّد لا يَشْبَع!



الخطوة التاسعة عشرة

ثم اعتق نفسك من مساوئها



فإن عكفت فعرفت من نفسك ما عرفت، فأعتق نفسك من مساويها
وأول ذلك ما صرّح به كتاب ربك:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ﴾.

تقرأ كتاب الله، فلا تملك إلا أن تقول:
سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ فِي الْقُرْآنِ عِتْقَ النُّفُوسِ مِنْ مَسَاوِيهَا.
وجعل في الكلمات وفرة معانيها.
كأن في كل كلمة قرآنية ألفاً من القيم.
وكأن القيم دون القرآن يتيمة!

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

فلا تنثن نحو إخفاق الداخل.
نحو الكبر!

فنحن نسمع للأقدام ما ترف به القلوب، وفي الجوانح تبدو حقائق
المسير، حتى كأن في صدى الخطو، صوت الروح!
والقصد في الشيء، هو الاعتدال فيه، فحملت الآية الأمر بالاتزان والتواضع!

كان الشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي مؤسس المعهد العالمي للفكر
الإسلامي، ومؤلف 25 كتاباً منها (أطلس الحضارة الإسلامية) الذي بلغ 800
صفحة، عدا عن مائة بحث مهم..

جلس أمامه القساوسة والباحثون تلاميذ في حضرة علمه الواسع..
وكان أديبًا وكاتبًا بارعًا في ثلاث لغات هي: العربية والفرنسية والإنجليزية،
ومات شهيدًا عام 1986م.

سأله صحفي ذات يوم عن هذا العلم الموسوعي، وعن هذه العقلية البارعة
من أين له بها؟

فردَّ قائلًا: «إنَّما أنا عالة على أفكار علماء الحضارة الإسلامية! ليس لديَّ
شيء! أفكارى ليست من صنعى!».

وكان خالد بن معدان يقول: «لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتَّى يرى النَّاس في
جنب الله أمثال الأباعر، ثمَّ يرجع إلى نفسه، فيكون لها أحقر حاقر».

﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾.

أَيَّ كَفِّهِ، وَاخْفِضْهُ، وَاكْسِرْهُ!

وَجَاءَ الْغَضُّ بِـ(مَنْ)، لِلتَّبْعِيضِ.

فِيخْفِضْ مِنْهُ، بَحِثْ لَا يَكُونُ مُرْتَفَعًا، فَيُؤْذِي، وَلَا يَكُونُ هَمْسًا، فَلَا يُسْمَعُ!

﴿وَأَغْضُضْ﴾.

كَأَنَّ الصَّوْتَ يَحْمِلُ صَوْلَةَ الدَّاحِلِ الْإِنْسَانِيِّ، أَوْ يَكْشِفُ عَنْ سَلَامِهِ.

وَكُلُّ صَوْتٍ، إِنَّمَا يَحْكِي فِي ضَوْضَائِهِ صَمْتَ الْخَفَايَا!

فَإِذَا ارْتَفَعَ وَجَالَ..

كَأَنَّ عَلَى الصَّوْتِ مِنَ الرُّوحِ دَلِيلٌ، بِأَنَّ الْفَمَّ كَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى لَهَبِ الْكَلَامِ.

الصَّوْتُ فِي ارْتِفَاعِهِ.

فِي تَدْفُفِهِ.

فِي نَبْرَتِهِ يَكْشِفُ تَوَقِيعَنَا.

يَكْشِفُ مَا تَحْتَ الْمَعَاطِفِ!

وَذَاكَ مَا يُلَمِّحُ لَهُ الْقُرْآنُ.

﴿وَأَغْضَضْ﴾.

أمرٌ يوحي لك بأنَّ الصوت في فضاء تعاملاتنا، ريشة لا ينقصها سوى أن ترسم ما يُشبهنا، ترسم ما يشاكل ضجيجنا!
وكَلَّمَا نَقَصَ الْغَضُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ، طَالَ الطَّرِيقُ إِلَى الْقُلُوبِ، إِذْ لَا يَقْطَعُ الصَّوْتُ الدُّرُوبَ نَحْوَ الْأَفْبَّةِ، إِلَّا إِذَا كَانَ مُتَعَاْفِيًا مِنْ لَوْثَةِ الْكِبَرِ!
هكذا إذن، يربط القرآن بين مفاصل السلوك، ويحفظ المرء من ترنُّح السُّقُوط.

فتبدو في القرآن المشية والصَّوت والنَّظرة، هي دلالات الدَّاخل.
حيثُ تكتسي الأصوات والخَطَوات، حُلل القلوب.
لذا، حينَ وَصَفَ الصَّحَابَةُ النَّبِيَّ ﷺ قالوا:
«فَإِجِيءْ مِنَ اللَّيْلِ، فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمَعُ الْيَقْظَانُ»، صوتٌ فيه خفض التَّواضع، وذلك من رقيٍّ أدبه ﷺ!

يغفل النَّاسُ عن أنَّ سُلُوكِيَّاتِ الْمَرْءِ تَتَقَاطَعُ مَعَ مَشَاعِرِهِ، فَتَلْبَسُ مَا نُسِي مِنْ الْبَقَايَا فِي زَوَايَاهُ.
ولا يكونُ فعلُ السُّلُوكِ، سوى أَنَّهُ يَفْتَحُ عُرَى الْقُلُوبِ، وَيَسْكُبُ مَا فِيهَا!

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

لماذا هذا التشبيه تحديداً؟!

تكشفُ بعضُ الدراساتِ الْعِلْمِيَّةِ..

أَنَّ أَقْصَى مُدَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهَا الْإِنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ الْأَصْوَاتِ، مَحْدُودَةٌ.
فَإِذَا وَصَلَتْ شِدَّةُ الصَّوْتِ إِلَى قِيَاسِ (45) دَيْسِيْبِل، عِنْدَهَا لَا يَسْتَطِيعُ الْفَرْدُ الْعَادِي أَنْ يَنَامَ فِي هُدُوءٍ.
وعند قِياسِ (85) دَيْسِيْبِل، تَبْدَأُ آلَامُ الْأُذُنَيْنِ.

فإذا وصلت شدة الصوت إلى (90) ديسيبل، لا يستطيع الإنسان أن يتحمل ذلك لأكثر من ثماني ساعات.

فإذا زادت إلى (100) ديسيبل، فإن هذه المدة تتناقص إلى ساعتين فقط.

وإذا وصلت إلى (110) ديسيبل، تناقصت مدة سلامة الإنسان إلى نصف ساعة فقط.

أما إذا وصلت شدة الصوت إلى (160) ديسيبل، فإن الإنسان يُصاب بالصمم التام.

فإذا علمت أن نهيق الحمار يتعدى في شدته مائة ديسيبل، فإنه يعتبر من أشد الأصوات إيذاءً لأذن الإنسان. وهنا..

تتضح لمحة الإعجاز العلمي في هذا التشبيه القرآني الكريم!

﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

اللام هنا للتأكيد..

ووجد الصوت، ولم يقل أصواتاً.

وإن كان مضافاً إلى الجماعة، لأنه مصدر، والمصدر يدل على الكثرة، وذلك لبيان شدة الأذى، ولبیان شدة البشاعة!

يا لله، كأن المرء بالكبر والعلو، يكشف عن ذاته! يبدو ذلك..

في تساقط الصوت الصاخب من أوتاره.

في تساقط الخطوات المنتفشة من أقدامه.

ثم لا يشابه في نهاية الأمر، إلا البهائم!

لذا..

صَدَقَ السَّلَفُ فِي قَوْلِهِمْ: «مَا دَخَلَ قَلْبُ امْرِئٍ شَيْءٌ مِنَ الْكِبَرِ قَطُّ، إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ بِقَدَرِ مَا دَخَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَلٌّ أَوْ كَثْرًا».

ولقد قال ابن مسعود -رضي الله عنه- مُنَبِّهًا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ عَلَى التَّحَلِّيِ بِأَدَبِ الْقُرْآنِ قَائِلًا: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ، بَاكِيًا، مَحْزُونًا، حَكِيمًا، حَلِيمًا، سَكِينًا، وَلَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ، جَافِيًا، وَلَا غَافِلًا، وَلَا صَخَّابًا، وَلَا صَيَّاحًا، وَلَا حَدِيدًا».

حركة الظاهر هي حركة الباطن!

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

إِحْسَاسٌ مُتَنَامٌ بِزَهْوٍ دَاخِلِيٍّ، مَسْكُونٌ بِمَحْتَوَى يُمَطِّرُهُ فِي حَرَكَاتٍ، تَشِي بِجَبَلٍ شَاهِقٍ مِنَ الْكِبَرِ الدَّاخِلِيِّ!

يَحْكِيهِ لَنَا الْقُرْآنُ، مِثْلَ سُؤَالٍ لَا جَوَابَ لَهُ، إِلَّا طَرِيقَةُ ذَهَابِكَ وَإِيَابِكَ! وَكُلُّ مَنْ اتَّكَلَ عَلَى غِنَاهِ الدَّاخِلِيِّ، افْتَقَرَ..

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

وَأَصْلُ الصَّعْرِ، دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ فِي أَعْنَاقِهَا، أَوْ فِي رُؤُوسِهَا، حَتَّى تَلْفُتْ أَعْنَاقُهَا بِرُؤُوسِهَا!

وَالْمَعْنَى..

وَلَا تَمَلْ وَجْهَكَ مِنَ النَّاسِ تَكْبُرًا، وَلَا تَعْرِضْ عَمَّنْ يُكَلِّمُكَ اسْتِخْفَافًا بِهِ! تَمَامًا، وَكَأَنَّ فِي عُنُقِكَ دَاءً مِنْ أَدْوَاءِ الْإِبِلِ!

وَيَا لَهُ مِنْ تَشْبِيهِ، يُحَاكِي بِهِ الْمَرءَ فِي رُوحِهِ رُوحَ بَهِيمَةٍ!

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

بِشِدَّةٍ وَطَاءٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَطَاوُلٍ فِي بَدَنِ الْمَاشِيِّ.

وَقَدْ قِيلَ:

«كُلُّ انْتِفَاشٍ فِي الظَّاهِرِ، هُوَ انْكِمَاشٌ فِي الْبَاطِنِ!».

يَسِيلُ الدَاخِلُ فِي خَطْوَتِكَ..

فِي التَّفَاتَةِ وَجْهَكَ.

فِي حَرَكَةِ جَسَدِكَ.

وَلَعَلَّكَ لَوْ أَعَزَّتْ الْأَرْضُ سَمْعَكَ، لَالْتَقَطْتَ صَوْتًا خَشِنًا يُشْبِهُ خِيفَةَ الْإِبْلِ

وَهِيَ تَطْحَنُ الرَّمَالَ، وَلَا تَتْرَكَ بَعْدَهَا أَثْرًا!

مِثْلَ دُرُوبِ مَطْلِيَّةٍ بِأَقْدَامٍ، لَا جُذُورَ لَهَا!

لِمَاذَا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وَتِلْكَ تَكْفِي، كَيْ يُصْبِحَ صَوْتُ السَّعْيِ فَنَاءً!

كَيْ يُصْبِحَ صَوْتُ السَّعْيِ هَبَاءً!

لِذَا كَانَ بَيْنَ: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، وَبَيْنَ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ﴾ فَارَقُ

دَقِيقٌ، هُوَ صَوْتُ الْخُطْوَةِ فِي غَايَتِهَا!

فِي الثَّانِيَةِ..

ثَمَّةٌ مَا يَطْحَنُ الْأَرْضَ مِنْ ثِقَلِ الاسْتِعْلَاءِ!

وَفِي الْأُولَى..

شَيْءٌ مُخْتَلَفٌ، شَيْءٌ يُشْبِهُ تَحْلِيْقًا، يَبْحَثُ عَنْ مَنَفَذٍ لِلْآخِرَةِ!

لِذَا..

كَانَ يَصْعَدُ إِلَى مَنَاكِبِهَا..

يَلْمَسُهَا، كَيْ يَوْقِظَ الْقِمَمَ!

لِذَا كُلُّ سَفَرٍ لِلْآخِرَةِ قَاصِرٌ عَنْ مَعْنَى الْاِفْتِقَارِ فَهُوَ هَبَاءٌ مَنثور!

فَمَا هُوَ الْاِفْتِقَارُ؟ وَمَا هُوَ الْإِنْسَانُ؟

بَلْ مَا تَعْرِيفُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ؟

وَمَا هِيَ مَسَاحَتُهُ؟

يَخْبِرُنَا الْعِلْمُ أَنَّ عُمَرَ الْكَوْنِ 14 مِلْيَارًا وَنِصْفَ سَنَةٍ!

وفي التَّقْوِيم الكونيِّ عمرنا نحن دقيقة كونية واحدة فقط، وهي تعادل 40 ألف عام فقط.

وتاريخنا المسجَّل للإنسانية منذ اختراع الكتابة هو فقط 14 ثانية في تقويم الكون، وفيها كلُّ ما حدث في تاريخنا من معارك وأحداث وجود واكتشافات وملوك وحضارات.

ومن هذه الأحداث أنَّ موسى وُلِدَ منذ 7 ثوانٍ.

وعيسى منذ 5 ثوانٍ.

ومحمَّد منذ 3 ثوانٍ.

وعُمر كلِّ الثَّوَرَة العلميَّة ثانية واحدة فقط من تاريخ خلق الكون!

ونحن وُجِدنا في الدَّقيقة الأخيرة من اللَّيلة الأخيرة من تاريخ عمر الكون.

بينما الدِّيناصورات بقيت لمدة 100 مليون سنة سيِّدة للأرض بما يعادل

3 أيَّام من تاريخ عمر الكون.

أما البشرية كلُّها فعمرها دقيقة واحدة فحسب.

وكل شخص منَّا له منها ربُّما جزء لا متناهٍ من صغر الوقت لا يزيد على

نبضة واحدة من عمر الكون!

ترى لماذا كلُّ هذا الغرور وهذه المعارك السَّخيفة في حياة عمرها نبضة!

هذه النَّبْضة هي حضورٌ على سَطْح ذرَّة غبار كونيَّة، تدور حول نجمٍ

عاديٍّ، في طَرَف ناءٍ، لِمَجَرَّة تَسْبُحُ بَيْنَ مائةِ مِليارِ مَجَرَّةٍ!

نحنُ أقلُّ في مرورنا من مائة عامٍ من أبْهةِ الكون.

أعمارنا تُوازي غَفْوَةً أو سِنَةً مِنَ النَّوْمِ.

نحنُ أشْبهُ بِنُقْطةٍ مِدادٍ في سَطُورِ الكون!

وفي هَذَا الفَضَاء الهائلِ:

أَيْنَ قَلْبُنَا، عَثْرَاتُنَا، جِرَاحُنَا؟

وَأَيْنَ تَفَاصِيلُنَا؟!

كَيْفَ سَمَحْنَا لَأَنْفُسِنَا أَنْ نَشْعُرَ بِكُلِّ هَذَا الْغُرُورِ عَلَى أَرْضٍ تَبْدُو نُقْطَةً
بَاهِتَةً بَيْنَ مِلياراتِ الْمَجْرَّاتِ؟!
لذا..

قال لك الله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.
وقالها لك رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ
عَلَى أَحَدٍ».

فَقَه السَّلَفِ الْوَصِيَّةُ..

فَكَانَتْ تُرَى أُمُّ الدَّرْدَاءِ جَالِسَةً مَعَ نِسَاءِ الْمَسَاكِينِ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، مِثْلَ
مَنْ يَبْتَغِي أَنْ يَصِلَ إِلَى مَقَامِ الْمَعْنَى..
إِلَى مَقَامٍ: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»!

يَنْسَكِبُ الْمَعْنَى فِي كَلِمَاتِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَسُلُوكِهِمْ، حَتَّى تَرَى الْإِمَامَ
أَحْمَدَ يَقُولُ دَوْمًا: «نَحْنُ قَوْمٌ مَسَاكِينُ»!

وَيُخْبِرُ عَنْهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ قَائِلًا: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ..
صَحْبِنَاهُ خَمْسِينَ سَنَةً، مَا افْتَخَرَ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ
وَالْخَيْرِ»!

وَحِينَ قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ:

«جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا».

فَقَالَ:

«لَا..

بَلْ جَزَى اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَنِّي خَيْرًا..

مَنْ أَنَا؟ وَمَا أَنَا؟!».

وَلَقَدْ سَأَلَ الْحَسَنُ أَصْحَابَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا التَّوَاضُّعُ؟

التَّوَّاضُّعُ، أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَلَا تَلْقَى مُسْلِمًا إِلَّا رَأَيْتَ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلًا!

وها هو ابنُ عُيَيْنَةَ يقول:

«لَوْ قِيلَ: أَخْرِجُوا خِيَارَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، لأَخْرَجُوا مَنْ لَا نَعْرَفُ!»

بِكُلِّ وَقَارِ التَّوَّاضُّعِ، يَقِفُ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَالِمَ الْحَدِيثِ الْجَلِيلِ، حَافِيًا، إِلَّا مِنَ
الاعتراف بِالْفَقْرِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ!

لَقَدْ كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ:

«مَنْ أُعْطِيَ مَالًا، أَوْ جَمَالًا، أَوْ ثِيَابًا، أَوْ عِلْمًا، ثُمَّ لَمْ يَتَوَاضِعْ، كَانَ عَلَيْهِ وَبَالًا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ!»

يَوْمَ يَقِفُ أَمَامَ مِرَاةِ الْحَقِيقَةِ..

يَرْتَجِفُ مِنْ عَرِي الصَّحَائِفِ.

ذَاكَ هُوَ مَا جَعَلَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقُ يَقُولُ:

«وَدَدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ!»

الكِبَرُ..

هُوَ نَبْضُ الْقُلُوبِ الْقَاحِلَةِ!

وَالْقُرْآنُ..

يَكْشِفُ الْخَفَايَا فِي غُبَارِ خَطُوتِكَ الْمُزْدَحِمَةِ بِالْأَنَّا.

الْمُزْدَحِمَةِ بِبَذْخِ الشُّعُورِ بِالذَّاتِ.

فِي حِينٍ.. أَنَّهُ لَنْ يَبْقَى إِلَّا ﴿وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾!



الخطوة العشرون

تأدّب بفقرك، واذكر يونس
في الظلمات



﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
تَنْفَتِّحُ بَوَابَاتِ الْمَعَانِي فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَنْدَهَشُ الْعَرَبِيَّةُ، أَمَامَ مَدَى هَذِهِ
الآيَةِ!

تُرْهَقُ مُحَابِرُنَا، وَهِيَ تُهْرَوِلُ خَلْفَ أَمْوَاجِ التَّدْفِقِ فِي التَّعَابِيرِ.
وَفِي لَحْظَةٍ اعْتِرَافٍ، يُعْلَنُ الْمِدَادُ عَجْزَهُ عَنِ اللَّحَاقِ بِالْكَلِمَاتِ!

﴿فَنَادَى﴾ ..

كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، تَصِفُ مَسَافَةَ الْبِعَادِ.

فَقَدْ كَانَ الظَّنُّ، «نَاجِيً»، وَلَكِنَّهَا هُنَا، تَحْمِلُ إِشَارَةَ الْعَمَقِ الَّذِي غَابَ فِيهِ
يُونُسَ، وَغَاضَ فِيهِ نَبِيٌّ، ﴿ظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. ﴿نَادَى﴾ ..
حَتَّى كَأَنَّكَ تَسْمَعُ الصَّوْتَ فِي بُعْدِهِ، وَشِدَّةَ اسْتِغَاثَتِهِ، وَفَيْضَ الدُّمُوعِ فِيهِ..
يُحَاصِرُ يُونُسَ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

يَلْتَهُمُهُ الْحُوتُ، مِثْلَ بَوَايَةِ مَجْهُولَةٍ، تَفْضِي بِهِ إِلَى الْفَنَاءِ.

تَشْتَدُّ فِي مَسَامِعِهِ، صَوْتُ الْمِيَاهِ الْجَارِفَةِ تَلْطِمُ جَوَانِبَ الْحُوتِ..

يَظُنُّ أَنَّ الْمَوْتَ يَتَسَابَقُ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ يَظُنُّ ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. تَرْتَطِمُ
الْأَمْوَاجُ الثَّقِيلَةُ بِالْحُوتِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَيَغِيبُ يُونُسُ فِي ظُلْمَةٍ فَقْدَ الْجِهَاتِ!
يَتَحَرَّكُ الْحُوتُ بِهِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَلَا يَدْرِي الْمَشْرِقُ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَلَا عَلْوُ
الْبَحْرِ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ قَنَادِيلَ الْهِدَايَةِ لِلْعِبَادِ!

يُنَادِي، وَيُظِلُّ الصَّوْتُ حَبِيسَ الصَّدَى، وَقَدْ كَانَ صَوْتُهُ يَرِنُ فِي مَسَامِعِ
الْخَلْقِ، وَعَلَى رُبَى الْأَفَاقِ!
تَشْتَدُّ الظُّلْمَةُ عَلَيْهِ، وَيُحِيطُ بِهِ عِتَابُ الرُّوحِ، وَنَدَمُ ثَقِيلٍ..
وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ تَهْرَعُ إِلَيْهِ النَّاسُ بِخَطَايَاهَا، تَسْتَلْهِمُ مِنْهُ الطَّرِيقَ!

تَبْدُو الظُّلْمَةُ كَثِيفَةً، الْبَحْرُ وَاللَّيْلُ، وَغُصَارَاتُ بَطْنِ الْحَوْتِ، الَّتِي تُوسِّسُ
لَهُ بِالذُّوْبَانِ الْقَرِيبِ!
لَمْ يَكُنْ يُؤْنَسُ قَادِرًا عَلَى عَدِّ الظُّلُمَاتِ، فَقَدْ كَانَتْ كُلُّ مَوْجَةٍ تَنْهَالُ عَلَى
الْحَوْتِ، تَزِيدُ الْقَلْبَ وَجِيبًا، وَتُوقِفُهُ عَلَى فَقْرِهِ، وَغُرْيِ الْعَبْدِ مِنْ قُدْرَاتِهِ!
رَبَّمَا لِهَذَا، ﴿نَبَذَ بِالْعَرَاءِ﴾، إِذْ كَانَ اللَّهُ يُرِينَا فِي أَنْفُسِنَا، أَنَّنَا دُونَهُ لَا نَمْلِكُ
حَتَّى وَرَقَةَ التُّوتِ!

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾.
فَمَا يَرَى يُؤْنَسُ فِي الْكُونِ إِلَّا اللَّهَ، وَتَبْلُغُهُ الرِّسَالَةُ جَلِيلَةً: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ
لِلَّهِ﴾!

تَنْتَحِي كَلِمَاتِنَا، قَرَارَاتِنَا، خَطَوَاتِنَا، أَمَامَ إِرَادَةِ وَتَوْقِيتِ اللَّهِ، وَيُظِلُّ الْقَرَارَ
﴿إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾!
﴿سُبْحَنَكَ﴾..
تَنْزِيهًا لَكَ، أَنْ يُقَدِّمَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ اعْتِرَاضًا عَلَى حِكْمَةِ الْأَقْدَارِ!

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.
لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، يَسْجُدُ يُؤْنَسُ دُونَ سَجُودِ الْجَبِينِ.
يَسْجُدُ لِلَّهِ، سَجُودَ ذَلٍّ، وَفَقْرٍ وَحِيَاءٍ، وَإِقْرَارٍ، بِأَنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ!
هَنَا الظُّلْمُ ظَلَمٌ فِي أَدَقِّ مُسْتَوِيَاتِهِ، الظُّلْمُ بِأَنْ تَنْسَى أَنَّكَ عَبْدٌ لَا يَلِيقُ بِكَ،
إِلَّا الرِّضَا بِأَقْدَارِهِ!

ظلمٌ، بالتَّوَلَّى عَنْ مَنْصِبِ هَيْئَتِهِ لَكَ اللهُ، فَوَلَّيْتُ ﴿مُعْضِبًا﴾، وَكَانَ الْأَصْلُ
فِيكَ الرَّبَاطُ!

ظلمٌ، باستشعارِ الذاتِ..

وَكَانَ الْحَقُّ، التَّوَاضُّعُ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ!

لَمْ يَكُنْ اللهُ يُرِيدُ مِنْ يُونُسَ سِوَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ الذُّلِّ وَالْاِفْتِقَارِ.
فَكَانَ أَنْ رَدَّ اللهُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي
الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿الْغَمُّ﴾ بـ «ال» الاستغراق لكلِّ الغموم والهموم، ولو كنتَ في أَقْصَى
القَاعِ!

يَتَفَضَّلُ اللهُ عَلَيْهِ بِمُوَاسَاتِهِ، حَيْثُ يَجْعَلُ نِدَاءَهُ سَنَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، كَرَامَةً لَهُ،
وَلَأُوبَةَ الْقَلْبِ الْجَمِيلِ!

يَقُولُ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ، أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا
الدُّنْيَا دَعَا بِهِ يُفَرِّجُ عَنْهُ؟ فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، فَقَالَ:

دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ!

ثُمَّ وَفَّى لَهُ الطَّرِيقَ، وَلَمْ يَحْرِمْهُ مَنْصِبُ النُّبُوَّةِ، بَلْ زَادَ لَهُ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى
مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

فِيَا رَبُّ..

دَخَلْنَا عَلَيْكَ بِدَعْوَةِ ذِي النُّونِ وَفَقَرِ ذِي النُّونِ، وَعَلَى أَعْتَابِ الذُّلِّ بَيْنَ يَدَيْكَ،
ارْتَقُوا لَنَا ثِيَابَنَا، وَنَجِّنَا مِنْ ظُلْمَةٍ مَا نَحْنُ فِيهَا!



الخطوة الحادية والعشرون

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾



فتعلّم صناعة السّلام.

أَتُرَاكَ لَوْ مِتَّ، وَجَاءَكَ الْمَلَكَانِ، فَإِلَى أَيِّ أَرْضٍ تُرَاكَ أَقْرَبُ؟

دَارُ السَّلَامِ أَمْ عَالَمُ الْحَرْبِ!

إِنَّ الْحَرْبَ فِي لُجَّةِ الْقِيَعَانِ مِنَّا، نَحْرُسُهَا، نُوقِدُهَا، وَنَشُدُّ حَوْلَهَا السِّيَاحَ.

الْحَرْبُ وُلِدَتْ مِنَّا، وَبَايَعْنَاهَا بِكُلِّ كَلِمَةٍ خَرَجْتُ مِنَّا، مِثْلَ حَطَبٍ يَسْتَعْرِ لَهَا!

بَايَعْنَاهَا بِكُلِّ تَسَامُحٍ أَطْفَأْنَاهُ، وَنَفَثْنَا التَّتَبُّعَ لِلْعَوْرَاتِ بَيْنَنَا دُخَانًا.

نَبْحَثُ عَنِ السَّلَامِ الْخَارِجِيِّ، وَفِينَا الْحَرْبُ دَاخِلِيَّةٌ!

فَمَتَى سَنَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةٍ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؟

لَقَدْ بَايَعْنَا الْحَرْبَ بِكُلِّ سِرٍّ كَشَفْنَاهُ، فَالْتَهَبَ الْجَحِيمُ بَيْنَنَا، وَأَوْغَرَ الصُّدُورَ

صِرَاعًا!

وَلَوْ رَحَلْنَا إِلَى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، لَنَأَلْنَا بَعْضَ أَمْنِهَا!

لِتَكُنْ مَهْمَّتُنَا «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، حَتَّى نَشْمَّ بِرَاعِمِ الْغُفْرَانِ، وَيَلِيقَ بِنَا:

«إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنَّا»!

ظَامِئَةٌ أَوْطَانُنَا يَا رَبُّ لِلْسَّلَامِ.

ظَامِئَةٌ..

مِثْلَ خَيْلٍ أَجْهَدَتْهَا الْمَعَارِكُ، وَغَاصَتْ فِي الْوَحْلِ خَطُوتُهَا الْأَخِيرَةُ!

ظَامِئَةٌ مَرَاكِبُنَا لِسَلَامِ الشَّطَّانِ، فَقَدْ هَدَّهَا السَّمَوْتُ فِي الْبَحَارِ، فَيَا قَوْمَ
أَفْشُوا السَّلَامَ، عَسَى أَنْ ﴿يَهْدِيَ بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.
سَلَامٌ يَا رَبُّ يَرَعَى فِي قُلُوبٍ، تَلْتَهُمَا الْمَعَارِكُ.

فِي الْقُلُوبِ يَبْتَدِئُ السَّلَامُ، ثُمَّ يَكْتَمِلُ فِي جَنَّةٍ يَقُولُ خَزَنَتُهَا ﴿سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾!

كَانَ أَوَّلُ الْحِكَايَةِ صَوْتُ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾.
فَانْتَهَتْ الْحِكَايَةُ لَهُ بِبَشْرِ الْفَرْجِ، وَقَوْلِ اللَّهِ لَهُ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾!
فَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ:
«إِنَّ السَّلَامَ انْتَهَى هُنَا إِلَى الْبَرَكَةِ»!
لِلَّهِ دَرَكٌ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ!

فَهَذَا فَقَّهُ عَالٍ فِي الْإِسْنَادِ، إِذْ لَمَحَ الْمَعْنَى، حَيْثُ انْتَبَهَ أَنَّ السَّلَامَ بَلَغَ
بِأَهْلِهِ دَرَجَةَ الْبَرَكَةِ.

وَالْبَرَكَةُ ثُبُوتُ الْخَيْرِ وَنَمَائُوهُ، فَإِذَا حُلَّ فِي بَيْتٍ، صَارَ مَهِيْطٌ عَطَاءٍ مُتَوَالٍ!
كَأَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ لَكَ: إِنَّ سَاقَ الْبَرَكَةِ الَّتِي تَجْرِي بِهَا، هِيَ السَّلَامُ فَلَا تَكْسِرْهَا!
فَإِنْ سَأَلْتَ: كَيْفَ تُكْسِرُ؟

قُلْتَ لَكَ: إِذَا ظَهَرَتِ الْجَنَائِثُ، ارْتَفَعَتِ الْبَرَكَاتُ!
يَغِيبُ السَّلَامُ، مِثْلَ نَارٍ تُطْفَأُ فِي شِتَاءِ بَيْتٍ فَقِيرٍ، إِذَا جَعَلْنَا وَقُودَهَا حَطَبَ
ذُنُوبِنَا!

هَلْ تَعْلَمُ..

أَنَّ الرُّوحَ تَأْخُذُ شَكْلَ الْوِعَاءِ الَّذِي هِيَ فِيهِ؟
فَإِنْ كَانَ سَالِمًا مِنَ السُّوءِ، تَنْفَسَ السَّلَامُ فِيهِ.
أَوْ سَقَطَ مِنَ شُرُوحِ الرُّوحِ!

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، هذا قدر أرادَه الله لنا.

فيا الله، اجعلْ سعيَنا سَلامًا يَنْصَبُ في بُيوتِنا التي طَفَحَتْ بِاللَّغْوِ، كَأَنَّهُ زَيْدٌ وَهَذِيان!

وابتعدتْ عن بهاءٍ، ﴿إِلَّا قِيَلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، حيثُ ﴿لَا لَغْوٌ﴾ يَقودُ إلى التَّائِيهِ!

اجعلْها أعمارَنا سَلامًا.

يَنْصَبُ بين أزواجٍ تَعْلُو وتَهْبِطُ بَيْنَهُم حَرَائِقُ وَحَرَائِقُ.

اجعلْها سَلامًا.

يَنْصَبُ بين أرحامٍ تَجُوسُ بَيْنَ أَعْرَاقِهِم نيرانٌ ونيرانٌ!

اجعلْها سَلامًا.

يَنْصَبُ في كَلِمَاتِنَا فَيَرْفَعُنَا مِنْ دَرْكِ الْغِيْبَةِ والبُهْتَانِ، إلى طيبِ الْكَلِمِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ!

اجعلْها سَلامًا.

يَمْلَأُ كَيَانَ الْعِبَادِ، حَتَّى تَكْسُو الْأَرْوَاحَ سَكِينَةُ الْإِيمَانِ!

لكن صِنَاعَةَ السَّلَامِ تَحْتَاجُ إلى صَبْرٍ!

أَنْ تَصْبِرَ على اسْتِدْرَاجِ السَّفْحِ لك، على شَهْوَةِ الْقَاعِ فَيْكَ لِلانْتِقَامِ، على رَايَاتِ الشَّيْطَانِ فِي صَوْتِكَ، إِذْ يَهْزُهَا لك حَتَّى تُخْرِجَ الْغُثَاءَ.

على رُوحِ قَابِيلَ فِينَا، إِذْ حَرَّكَتْ يَدَهُ نَارُ الْغَضَبِ.

أما سَمِعْتَ قَوْلَهُ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾!

تَحْتَاجُ إلى أَنْ تَكْسِرَ سِهَامَ الْحَرْبِ مِنْ جُعْبَتِكَ.

سِهَامَ الشَّيْطَانِ فَيْكَ، حَتَّى يُقَالَ لك ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا

خَالِدِينَ﴾.



الخطوة الثانية والعشرون

احذف العلائق، واعتزل ما
يؤذيك..
تبلغ ما تشاء



وَأَوَّلَ الدُّنُو، النَّأْيِ..

نَأْيٍ عَنْ

مَا يَكُونُ بِهِ هَلَاكُ الْوَقْتِ.

وَأِنَّمَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ بِحَذْفِ الْعَلَائِقِ.

وَإِنْ لَمْ تَنَأَ، فَسَتُنْعَى!

وَرُبَّ حَيَاةٍ تَحْمِلُ أَسْبَابَ مَوْتِهَا.

فَ«اعْتَزِلْ مَا يُؤْذِيكَ»..

وَأَنَا بِنَفْسِكَ عَنْ أَغْلَاكَ.

وَانْفُضْ عَنْكَ غِمَرَاتِ الْإِنْشَغَالِ.

وَاحْذَرِ مِنْ أَدْخَنِ الشَّيْطَانِ يَسُوقُهَا إِلَيْكَ، إِذَا رَأَكَ مَشْمَرًا فِي اعْتِرَالٍ وَاعٍ!

وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا يُشَقُّ هَذَا الطَّرِيقُ، إِلَّا بِدَأْبٍ.

فَلَا تُلْهِكَ الْعَوَائِقُ.

وَلَا تُشْغَلَ الصَّوَائِقُ.

فَمَا هِيَ إِلَّا كَمَاثِنٌ نُصِبَتْ فِي الطَّرِيقِ تَخْتَبِرُ سَبَاقَكَ.

إِذْ مَا يُشَبِّتُ الْمُقْبِلُ، مِثْلَ الْعَلَائِقِ، فَإِنَّهَا «عَوَائِقُ الْحَقَائِقِ»!

وَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ التَّرْبِيَةِ أَنَّ الْمَتَمِيزِينَ هُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُولُوا: لَا.

كَلِمَةً نَحْدُ بِهَا مِنْ اسْتِخْدَامِ أَوْقَاتِنَا بِغَيْرِ مِيعَادٍ، وَالْوُلُوجِ إِلَى عَالَمِنَا

الشَّخْصِيِّ دُونَ احْتِرَامِ..

وَالْتَعَامُلِ مَعَ زَمَنِنَا وَكَأَنَّهُ الْكَلَاءُ الْمَبَاحِ.

هي كلمة حمانا بها القرآن حين علّمنا أدب: ﴿أَرْجِعُوا﴾.
 نعم، ﴿أَرْجِعُوا﴾ عن طَرَقِ عالِمنا وحياتنا في كلِّ لحظات الزّمان.
 إنّ الَّذي يريد أن يصنع لنفسه وللحياة شيئاً، لا بدّ أن يصنع لعالمه شيئاً،
 لا ليعزله، بل ليحفظ عليه شيئاً من خلوته وسكينة الحياة...

وَالْحَقُّ..

أَنَّهُمَا مَا تَنَالِ الْعَلَائِقُ، إِلَّا مِنْ فَارِغٍ.

فَإِنَّ الْمَشْغُولَ لَا يُشْغَلُ!

فَلَا تَنَخَّدْ بِهَا عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ!

وَكُنْ فِي زَمَنِ الضَّجِيجِ، مَنَارَةً تَهْدِي!

وَإِنَّ الْخُذْلَانَ كُلَّ الْخُذْلَانِ، أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تَرَحَّلْ إِلَيْهِ!

وَتَقِلُّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَهْرُولَ إِلَيْهِ!

فَإِنْ قُلْتَ: إِنِّي فَعَلًا مَشْغُولٌ!

قُلْتَ لَكَ: أَنْتَ مُزْدَحِمٌ وَلَسْتَ مَشْغُولًا.

انْفُضْ عَنْكَ تُرَابُ أَعْذَارِ الْغِيَابِ عَنْهُ، وَسَتَتَسَّعُ لَكَ الْأَوْقَاتُ وَالْخَطَوَاتُ.

وَيَمْدُكَ بِسَعْيٍ، تَفْهَمُ مَعَهَا الْمَعْنَى الْجَلِيلَ: «وَكُنْتُ رِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي

بِهَا»، تَبَارَكَ فِي عَلَيَّائِهِ!

فَانْفَرِدْ بِإِصْلَاحِ زَيْتِكَ..

وَاحْدَرْ مِنْ كُلِّ حَدِيثٍ، يَثْلُمُ لَكَ صَمْتِكَ.

«فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْوَقْتِ، يَنْزَعُ بَرَكَתَ الْأَثَرِ»!

وفي ذاكرة أيامي خمس دقائق لم تتكرّر في حياتي، مع أستاذة جامعية..

تبرّعت بساعة يومياً من وقتها، لتعطيني درساً في المحادثة.

كان ذلك في ولاية نيو جيرسي الأمريكية، جئت قبل الموعد حرصاً مني على تقديم صورة طيبة عن الإسلام، يومها كان الجوُّ غاية في البرودة، وكانت هي تقف في مدخل المكتبة حيث موعداً.

سلمتُ عليها وبادرتها السؤال: لماذا تقفين في الخارج والجوُّ بهذه القسوة؟

أجابتنى مبتسمة: أعلم أن موعدي معك الساعة الخامسة، ولكنني استبقت الموعد بخمس دقائق، هي فترة وصولك إلى المكتبة والبحث عني!

الآن أصرحك مباشرة إلى طاولة العمل ونكون قد حافظنا على الساعة التي وعدتك بها! دون نقصان!

والله إنَّ إهدار الوقت خطيئة..

ربّما تؤم باقي الخطايا

يوم القيامة!

ثم احذر اللغو والثَّرثرة، فإنهما من أعظم العوائق وبهما هلاك الوقت

ووالله..

ما يجفّف سواقي الثُّبات، مثل كثرة اللغو!

إنَّ الكثير من الكلمات، يُذهبن الحَسَنَات.

وقد قيل: «من الصَّعب أن يسمع ثرثار الصوت لخطى الوقت الهارب»!

فخذ اللغو على محمل الجدّ.

فما يهوي بالموازين، مثل كلمة.

إذ تبدأ شهوة الكلام، مثنى وثلاث ورباع، ثم تراك لا تملك لسانك في

مخاضة الاستمرار، لكل أصناف اللغو!

كابد نفسك على ترك اللغو، حتى تستقيم لك.

فإنَّ اللسان إذا بلغ في الطُّهر قلتين، غلب صفّؤه نجاسة اللغو، فتراهُ

أسرع إلى التنزّه، وتراه يلفظ شوائبه.

فلا تَنعرجُ به الطَّرِيقُ، رَغَمَ فِخاخِها، ولا تَنالُ من قَلْبِه عَتَمَةُ اللَّغْوِ!

ذاك فقط..

لمن جَعَلَ اللَّغْوُ في مَصَافِي المَحْظُورَاتِ.

وَتَطَهَّرَ من نَسِيانِ أَنَّ السَّبِيلَ إلى الفِرْدَوْسِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾!

ثم انتبه أن «مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، نَجَا».

وَمَنْ أَدَمَّنَ الثَّرَثَةَ، زَلَّ وما دَرَى.

وما اللَّغْوُ كُلُّهُ من غِيْبَةٍ وَثَرَثَةٍ وَعِلَاقٍ شَتَّى، إِلَّا السَّيْرُ الْحَثِيثُ في أَنْواعِ الْعَذَابِ.

تَعَلَّمْ عَزِيمَةَ الإِعْرَاضِ عَنْ فَوْضَى اللِّسَانِ..

وَالسَّبِيلَ إلى ذلك بِالاعتكافِ على هَدَفٍ يُشْغَلُكُ، فَإِنَّهُ عَوْنٌ لِكُلِّ مَنْ

ثَارَتْ حَوْلَهُ فِتْنَةُ الْفَوْضَى..

فَأَرِ اللَّهَ شَوَاهِدَ الْحَالِ!

مَنْ صَمِتَ مُثْمَرًا، واعتكافٍ على غَرَسِ رَايَةٍ، وإِعْرَاضٍ عن لَغْوٍ يُشْتَتَّى!

وما الأُنْسُ، إِلَّا في انْفِرَادِ الْعَبْدِ بِصَحِيفَتِهِ يَكْتُبُ فيها ما لا يَتَنَاهَى أَجْرُهُ!

ولِكُلِّ بابٍ مِفْتَاح.

ومِفْتَاحُ هَذَا الصَّفَاءِ، عَزِيمَةُ الإِعْرَاضِ عَنْ فَوْضَى اللِّسَانِ، عَزِيمَةٌ لا تَتَزَحَّزَحُ

وَقَدْ كَانَ سَحْنُونَ صَمْتَهُ لِلَّهِ.

ذاك صَمْتُ، يَفِيضُ بِالْحَسَنَاتِ!

ذاك صَمْتُ، يَلُمُّ الْقَلْبَ على الله!

وَأشْغَلْ وَقْتُكَ بِعِلْمٍ أَصِيلٍ..

فإنَّ أَسْبَابَ الْبَلَاءِ، من الْفَرَاغِ!

وعليك بأسباب السَّداد، العِلم.
فإن من أينع فيه عميقًا، صار جذرًا لا تهزُّه عواصف الشَّهوات ولا الشُّبهات.

فانثْنِ على رُكبتيك..
وتجذّر في بساط العِلم.
فإنّه يأتي زمانٌ من الفتن، لا يُنْجِي منها إلّا العِلم!
وقد ورد: «تعلّموا العِلم، واغرفوا الله به، فإنّه سيأتي زمانٌ يُنْكَرُ الحَقُّ فيه
تسعة أعشارهم، لا ينجو فيه إلّا عالم، أولئك أئمّة الهدى ومصابيح العِلم»!

بايرِ الفتنة، بالسَّياج..
ولا تَنْتَظِرْ هُجُومها.
وما يفعل ذلك، إلّا مُوفّق.
وما حُرِم الاستعداد، إلّا مَخْذُول!
قال ابن مسعود -رضي الله عنه-:
«عليكم بالعِلم قبل أن يُرْفَعَ، ورفعهُ موت رواته، فوالَّذي نفسِي بيده ليوذُن
رجال قُتِلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم».

ثم اسمع عكرمة يقول: «طلبت العِلم أربعين سنة فكنت أفتي بالباب وابن
عبّاس بالدار، فأكرمه الله بالفهم، فقال: إني لأُخرج إلى السُّوق فأسمع الرجل
يتكلّم بالكلمة، فينفتح لي خمسون بابًا من العِلم».

فَعَلَّم قَدَمَكَ غبار السَّير على آثارهم.
وزاجِم طُرُقهم.
فالضَّيْقُ في مُزاحمتهم، سَعَة الأَجور في الآخرة!

وتلك بركة العِلم.

تزيد بها ولا تُنقص.

وقد تشفع لك مسألة، إذ قدم رجلٌ من الشَّام إلى عمر -رضي الله عنه- فقال: «ما أقدمك؟ قال: قدمت لأتعلَّم التَّشْهَد، فبكى عمر حتى ابتَلَّتْ لحيته، ثمَّ قال: واللَّهِ إِنِّي لأرجو من الله ألا يعذِّبك أبدًا!».

فاجعل مجالس العلم كفَّارتك.

فقد قال عطاء -رحمه الله تعالى:-

«مَجْلِسُ عِلْمٍ، يُكْفِّرُ سَبْعِينَ مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِ اللَّهْوِ!»

كن حارسًا لميراث النُّبوة.

وسارع بالخطي.

ولا يتناوَشك التَّخْبُط.

فإنَّ المُخَالَفات تكثرُ، ويتواطأ الناس عليها، حتى يقول الجاهل:

لو كَانَ هذا مُنْكَرًا ما فعله غالب القوم!

وقد قالها ابنُ المبارك:

«ما أعلَمُ شيئًا بعد النُّبوة، أفضل من بثِّ العلم!».

وتعلَّم لهذا عِبادة الاعتكاف على الكتاب، حتى تتجاوز قنطرة التُّردد.

ذاك طريقٌ لا مجال فيه للتوقُّف دون أن تَبْلُغ الغاية!

وقد مات أحمد بن حنبل، والقلم في يده.

فتفَقَّد سَيرك أين يمضي.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

واهْدِنِي وسدِّدْنِي، حتى أبلغ ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾!

وقد قالها ربعة الرأي:

«لا ينبغي لأحدٍ عنده شيءٍ من العلم، أن يضيع نفسه،» فيشتتها في غسق الفتنة.
فإنَّ العلم هو فلق النِّجاة!

وقد سئل أحدهم:

«كيف استطعت أن تُسيطر على الزَّمن يا إبراهيم؟».

فردَّ قائلاً بكلِّ بساطة:

«الانضباط»!

وقد قالها أحدهم «إن الرجال العظماء انتصروا على أنفسهم أولاً، وكان الالتزام عندهم لا نقاش فيه».

وهذا أبو الفرج يُطالع في اعتزاله عشرين ألفَ مُجَلَّد، ثم يسطرُّ لنا
كتبًا لا نزال نضيء منها.

وعبد السَّلام بن هارون، يجمعُ ثلاثةَ آلاف مُذَكِّرةٍ من فوائِدَ قرأها، فنفعَ وانتفع!

فأين أنت من ذلك؟ فإن قلت: أنا في سعي مهم..
فاعلم، أنَّه لا يُبعثر السَّعي، مثل وهم الضَّرورات.
ولو فتشتها، لرأيتَ غالبها لا يبلغ ذلك!

فأعرض عن لغو الحياة وانشغل بالسَّقاية.
وما يسقي الجُذور، مثل كثرة الرِّيِّ لها!

واعتصم بما تُشرق له حَبِيبَتُكَ، إذا كَشَفْتَ السترَ وفاضتِ الصُّحف
بأسرارها.

تلك فصاحة الخَلة، تنطقُ شاهدةً لأصحابها.

والقوم من دونهم، تنطق لهم أنقاضهم.
حتى كأنَّ الأوقات والأعمار، كانت مزيجًا شاذًا من الخطى المُتردِّدة!

وإيَّاك وحلَّالي المَواثيق.
فإنَّهم يَنهشون عمرك، وقلبك لا يَنعشون!
فلا تكبر في فراغ القرار..
غادر تيه الحشود، وكلَّ الأقدام التي تسطو على دربك، وابترها قبل أن
تتعرَّ بك!
تلك تنقص سنينك ولا تزيدها، وعيدانها دومًا عجاف.

وإذا رُزقت اليَقظة، فَصُنْها في بيتِ العزلة، فإنَّ أيدي البَشَر، نَهَابَةٌ!
وإنَّ اشتدَّ عليك مخاضُ نَفْسك، فتشبَّثْ بِجِذْعِ الثَّباتِ على ما يصلحك.
ولا تبرَحْ مكانك!

فإذا أعجزتكَ نَفْسك، فانكُرْ حالك عند الفِراق!

أنينٌ مَكْتومٌ تُصدره الرُّوح، تُنبِّه به على شوقها.
تَشعر بها تكادُ تَرشُحُ من جَسَدك، وأنتَ تفقد ذاتك بالهُويني.
تَبْهت ألوانُ الحَيَاةِ فجأةً، ويشتدُّ عليك الغُروب!

تتلاحق الأنفاسُ المُنْهَكة فيما تَبْقَى من الوقت الأخير.
هذه اللَّحظات، هي أطولُ اللَّحظات في عُمر الإنسان!

يتناثرُ الألم في الآمات، تنسحبُ قوَّتكَ.
يَسْتجمعها الحقُّ لك في عَيْنِكَ.
وتتوسَّل في لحظةٍ مَشْحونةٍ بمعنَى ما.



لحظة غامضة تشعر كأنّها ضجيجٌ لا يسمعه سواك!

تكاؤ عيناك تخرجان من محاجرهما..

﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

ثمّة انبهارٍ أو افتتاحٍ أو هلعٍ، لا صوت له.

يهتدي القلبُ إلى سبيل الله، في لحظة متأخرة جدًا جدًا!

ذاك ندمٌ من أطلق قلبه في الأودية يهيم.

وحينها، لات حين مناص!

فاجمع الهمة على ما تبلغ به الثواب.

ويَمِّم القلبَ نحو الله.

وابداً سلة الدُّخار!

وفي هذه الخاتمة أقدم لك نموذجًا من الإلهاء الذي يخطّط لأمّتنا عبر:

1 - الحفاظ على جمهور منشغل، منشغل، منشغل، دون أدنى وقت للتفكير!

2 - العمل على تشجيع الجمهور على استساغة البلادة!

3 - عشر استراتيجيات لإلهاء الشعوب، منها: تضخيم العاطفة لدى الشعوب بتقديم مادّة دراميّة تستهلك أوقاتهم!

4 - تقديم طوفان مستمرّ من الترفيّهات والأخبار اللامُجدية، لمنع الجمهور من الاهتمام بالمعارف الأساسية التي تصنع عقولهم!

هذه مقتطفات من مقالات وكلمات الخبير العالميّ (نعوم تشومسكي) الذي يسعى لتقديم وعي سياسيٍّ عميق في مقالاته وكتبه، ويستحقُّ أن تعكف على إنتاجه العقول الناشئة بل وتندارسه، وفي نظري أنّ قراءة كتبه ومقالاته (واجب شرعيّ) في زمن يُراد فيه صناعة التّفاهة عبر إشغال الأمة!

الخطوة الثالثة والعشرون

الطلاق فوق إغراءات
الضعفاء، وفوق أعذار
العوايق!



توقّدوا، حتى اسودَّتِ الصُّحف بحبرِ السَّعي من كثرةِ ما كُتِبوا!

رحلوا إلى الله مَليئين..
صانُوا قُلُوبهم عَن قُيُود الضُّعفاء.
وصانوا أقدامهم، أَن يَطْأُوا للضعف أرضًا.
أولئك الطُّلقاء، تَسعى الدُّنيا على إثرهم، فلا تَبْلُغهم!

أعمارهم أعمارٌ..
كانت فيها الأرواحُ لله تَنعطف!

تَسْمَعهم في لَيْلهم وَغَدهم، في صُبْحٍ وفي غَسَقٍ، يُكْرِّرون وصايا الأصفياء
كأنَّها تعويذة الطَّرِيق..

وَيَصُوغون حياتهم، على عَزِمة يُردِّدونها.
من معانيها:

«أَحْمِ قَلْبَكَ مِنْ وَسَنِ النَّوْمِ..
فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَه الْبَيَاتُ، خَسِرَ الْأَلْحَاق»..
ولا يَكُنْ عُفْرَكَ سِوَانِح.

وَمَنْ تَأَخَّرَ به عَجْزه، صارَ مَطْلَعُهُ غُرُوبًا.
وإنَّ حيلةَ الشَّيْطان، في أَنْ يُوَسِّعَ لَكَ العُذْرَ.

فإنَّ وَسْوَسَ لك، فأجِبْه: ﴿لَيْسَ عَلَيَّ الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾، وَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ

الْعَمَى!

قل له: الصَّبْرُ هو خِطَّةُ الصُّمُودِ.

وَالْمُنْسَحِبُونَ، هُمْ الْعَاجِزُونَ عَنْ سُنَّةِ الْكَوْنِ!

وَكُلُّ مَنْ شَدَّ ثَوْبَ عَزْمِهِ حَتَّى لَمْ أَطْرَافَ نَفْسِهِ، لَمْ يُبْقِ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ
مَنْفَذًا. مَكْتَبَةُ سُرٍّ مِّنْ قَرَأَ

وَأُولَئِكَ هُمُ السَّابِقُونَ!

سَبَقُوا بِخِفَّةِ الظَّهْرِ، وَمَهَّدُوا لَخِفَّةِ الْقَدَمِ، وَفِي الضَّمَائِرِ عَقِيدَةُ تَلَحُّ عَلَيْهِمُ:
«أَنَّ الْغَدَّ غَيْرُ مَأْمُونٍ»!

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

فِيَا لِعَقْلِكَ لَوْ أَدْرَكَ أَعْدَادَهُمْ، لَطَارَ اللَّبُّ مِنْكَ!

فَاعْرِفْ قَدْرَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَلَا تُهِنْ نَفْسَكَ بِإِهْدَارِ مَقَامِهَا!

اسْمَعْ لِحِكْمَةِ السَّلَفِ إِذْ يَحْدِثُونَكَ عَنْ مُرَادِ اللَّهِ فِيكَ:

«أَيُّهَا الْعَبْدُ، أَلْقِ سَمْعَكَ وَأَنْتَ شَهِيدٌ، يَا تَكَ مَنِّي الْمَزِيدُ!

وَأَصْغِ بِسَمْعِكَ، فَأَنَا لَسْتُ عَنْكَ بِبَعِيدٍ!».

يَا لِلَّهِ، يَتَوَدَّدُ لَكَ، كَيْ يَرْفَعَكَ!

وَانْظُرْ إِلَى السَّلَفِ كَيْفَ صَنَعُوا قَدْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ!

فَهَا هُوَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، يَغْزُو فِي جَيْشِ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَيَمْرُضُ،

فَتَكُونُ وَصِيَّتُهُ: «إِذَا مِتُّ فَاحْمِلُونِي، فَإِذَا صَافَقْتُمُ الْعَدُوَّ، فَارْمُونِي تَحْتَ

أَقْدَامِكُمْ»، إِذْ كَانَ يَبْتَغِي أَنْ يَكُونَ عَتَبَةَ الْفَتْحِ حَتَّى وَهُوَ مَيِّتٌ.

فَأَيُّ هِمَّةٍ تِلْكَ!

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ حَرَامٍ، يُكَلِّمُهُ اللَّهُ كِفَاحًا، أَيُّ مُوَاجَهَةٍ.

وَكَانَ ذَلِكَ كَرَامَةً لِشَوْقِ رُوحٍ، مَا تَلَكَّأَتْ فِي السَّيْرِ لِلَّهِ!



واسمَع عن ابنِ أبي حاتم الرازيّ، الَّذي كَانَ يُقالُ إِنَّهُ على رَأْسِهِ قُلنُوءٌ من السَّمَاءِ، إِذْ كَانَ رجلاً لم يَنحَرَفْ عن غايته ثمانين عاماً، يُرابطُ على مكانَتِهِ، ولا يُفَرِّطُ في الشَّمسِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ!

يموتُ القاضي الطَّبْرِيُّ عن مائة عامٍ، لم يَتَوَقَّفْ فيها عن تَصنيفِ العِلْمِ، إِذْ كان يصنَعُ للكونِ إيقاعاً تُحِبُّ السَّمَاءُ لَحَنَهُ!

فَتَحَ موسى بن نُصيرٍ بلادَ المغربِ العربيّ، وأسلمَ على يَدَيْهِ تسعةَ عَشَرَ ألفاً، وأعدَّ جيشَ الأندلسِ..

وكان في أواخرِ السَّبْعين من عمرِهِ، وكان يقولُ:

«لو انقادتِ النَّاسُ لي، لَقُدْتُهم إلى رُوما».

فقد كان رجلاً يُبادِرُ السُّؤالَ يومَ الحَشْرِ بجوابِ العُمَرِ!

وَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ، فانظُرْ في ماذا يُقيِمُكَ.

انظُرْ بماذا أَشغَلَ هِمَّتَكَ.

وبماذا حَرَّكَ جوارِحَكَ.

وبماذا تَهَمَّسُ يَدَاكَ.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، قومٌ قد استغرقهم وعيٌ جليل.

بأنَّ مَنْ مَضَى خَالِياً مِنْ حُسْنِ الأَثَرِ، فَقَدْ طَوَى ما يَمكُن امتِداده!

فترَاهم أَبداً مُشْمَرِّين.

خَلَوَتهم دائمة، فهي خَلوةٌ مِنْ كُلِّ أسبابِ الشَّتاتِ.

واختيارُ الله لهم، يتجَلَّى في مكاسبِ الفَضلِ.

فإِذَا وَهَبَكَ اللهُ عزيمةً وقُوَّةً، فاعْلَمْ أَنَّهُ أَرَادَ لَكَ سَبَقاً!

وَالسَّبِقُ، بِالْوَقْتِ يُصَاد.

فَمَنْ أَعَانَهُ وَقْتَهُ، فَقَدْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ.

وَمَنْ أَنْفَقَهُ أُمْنِيَاتٍ، فَقَدْ أَنْفَقَ الْوَقْتَ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ!

فَتَعَلَّمْ «إِسْبَاغَ الْمَكَارِهِ عَلَى الْقَلْبِ».

«فَإِنَّ ثَمَنَ النَّجَاحِ الْوَحِيدَ، سَنَوَاتٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْفِكْرِ وَالْعَرَقِ وَالْدُمُوعِ!».

وَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمْ: «فِي الْحَجِّ الْمَاضِي كُنْتُ مَعَ أَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ الَّذِينَ اقْتَسَمْتُ مَعَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَيَّامِ الْمَدْرَسَةِ، وَهُوَ مِنَ الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ الَّذِينَ مَا اقْتَلَعْتَهُمْ رِيَاخَ الْارْتِخَاءِ، تَنَاوَلْنَا الْعِشَاءَ وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا خَاصًّا عَنْ بَرْنَامِجِ الثَّقَافِيِّ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

(ثَمَانِي سَاعَاتٍ) يَقْضِيهَا فِي الْقِرَاءَةِ وَالسَّمَاعِ وَالْإِطْلَاعِ، وَيَعُدُّهُ كَالِدَوَامِ الْوُضُوفِيِّ!»!

وَكَذَا الْمَلَاحِمُ الرَّاحِلُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ كَلَّاهُ يَحْكِي عَنْ تَجْرِبَتِهِ فِي إِسْبَاغِ الْمَكَارِهِ عَلَى قَلْبِهِ:

«كُنْتُ أَكْرَهُ كُلَّ دَقِيقَةٍ فِي التَّدْرِيبِ، لَكِنْ كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي: تَحْمَلِ الْآنَ، وَعِشْ بَقِيَّةَ حَيَاتِكَ بَطْلًا».

وَفِي كِتَابِ (عِظَمَاءِ مَنْسِيُونٍ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ) ..

كَانَ الْقَاسِمُ الْمَشْتَرِكُ بَيْنَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْمَاطِهِمْ هُوَ: (التَّعَبُ وَالْجِدِّيَّةُ)، وَكُلُّهَا سِيرٌ تَمْتَلِئُ بِبَرْنَامِجٍ مَلِيٍّ (بِالْمَكَارِهِ) مِنَ التَّأَلِيفِ، وَالتَّعْلِيمِ، وَالتَّرْبِيَةِ، وَالْمِشَارَكَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ، لِمَنَاصِرَةِ الْقَضَايَا الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ.

عَلَّمَ نَفْسَكَ أَنَّكَ: «لَنْ تَتَذَوَّقَ النَّجَاحَ مَا لَمْ تُكَابِدِ الْمَشَاقَّ وَتَلْعَقِ الصَّبْرَ».

وَأَنْ النَّصْرَ، صَبْرُ سَاعَةٍ، تِلْكَ حِكْمَةُ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ.

يُثَبِّتُهَا الْعِلْمُ الْيَوْمَ، لِيَقُولَ إِنَّ مَعْظَمَ النَّاسِ يَسْتَسْلِمُونَ قَبْلَ مَوْعِدِ النِّهَايَةِ
بخطوة!

إِنَّ الْأَحْلَامَ تُقْتَطَفُ بِالْجَهْدِ الَّذِي يَقَارِنُهُ الصَّبْرُ دَوْمًا.
وَكُلُّ صَخْرَةٍ تَتَبَدَّى لَكَ، فَعَالَجَهَا بِالصُّعُودِ فَوْقَهَا! لَتَرَى الطَّرِيقَ مِنْ بَعْدِ
أَكْثَرِ وَضُوحًا!

وَلَعَلَّكَ تُدْرِكُ يَوْمًا، أَنَّ تِلْكَ الصَّخْرَةَ، مَنَحَتْكَ غُلُوبًا جَدِيدًا.
«وَالنَّعِيمَ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ».
وَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمْ:

«لَنْ يَذُوقَ الْمُسْلِمُ حَلَاوَةَ (الْحَيَاةِ) مَا لَمْ تَرْتَجِفْ يَدُهُ إِنْهَاكًا إِذَا رَفَعَ قَدَحَ
الْمَاءِ إِلَى فَمِهِ يَرِيدُ أَنْ يَرْتَشِفَ، وَلَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَظَنَّ أَنَّهُ (مُشَارِكٌ) مَا لَمْ يَنْمِ
جَالِسًا يَغْلِبُهُ الْإِعْيَاءُ!»

وَاسْمِعْ مَقُولَةَ التَّابِعِيِّ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَاصِ: «مَا هَالَنِي شَيْءٌ إِلَّا رَكْبَتُهُ!».
وَفِي الْمَدْهَشِ لِأَحَدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ نَصٌّ مَدْهَشٌ يَقُولُ:
«شَجَرُ (الْمَكَارِهِ) يُثْمَرُ الْمَكَارِمَ، وَالْجِدُّ جَنَاحُ النِّجَاةِ»!
وَبِإِسْبَاغِ الْمَكَارِهِ عَلَى الْقَلْبِ، يُكْتَبُ لَكَ أَثَرٌ لَا يَفْنَى!
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الطَّالِبُونَ.



الخطوة الرَّابِعة والعشرون

كُن متفرِّداً في همِّك، فإنَّ
علوَّ الهمِّ، تخلق لك حياة
تشبهك!



ولذة الوصول، سترمم كلَّ تعبك

فأحني من فلوات قلبك، كلَّ مَوَات..

وأدرُ ضرع السَّعي، يَنْبِت لك كلُّ زَرع!

وصدِّقني: «ليس أشدُّ المخاطر التي نواجهها أن يسمو هدفنا أكثر من

اللَّازم، فنفسل في تحقيقه، بل أن يتدنَّى أكثر من اللَّازم، فننجح في تحقيقه»!

تلك مقولة للشاعر الإيطالي مايكل أنجلو من كتابه (ابحث عن ذاتك

الحقيقيَّة).

تذكرت وأنا أقرؤها مستوى أحلامنا وأهدافنا في الوطن العربيّ.

تملُّك شقَّة، أو سيارة، وظيفة بدخلٍ كريم!

فلا ترفع سقف آمنياتك، بل اجعلها بلا سقف..

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فيصرفونك عما خبأ الله لمن (سابقوا).

واذكر إذا بعث الله الأيام بهيئتها، تُضيء لك وأنت نورها، تحفُّ بك

الحَسَنَات زهراء جليلة.

وغيرك يرعى في هَشِيم السَّعي!

لذا لا تتخذ في السَّير رِفْقَةً قَاعِد!

إنَّأ بصدرك عنهم..

واصحبْ بدلاً من العاجزين، مَنْ يعظُّك بلحظه قبلَ لفظه.

مَنْ يروي قَحْطَكَ باخضرارِ روحه.

سمع أبو بكر رسول الله ﷺ يَحْثُ على أبواب الجنَّة الثَّمَانِيَةِ فقال: «يا رَسولَ الله، ما على أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأبوابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأبوابِ كُلِّهَا؟ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

فسارِعْ إلى أعالي الهمم، فما العُمر، إلَّا أوقات عاجِلَة، تمضي كوميض البرق، فلا ترى نفسك إلَّا في سُبَّاتها، وإن ذهبت، فلا مؤلِّل لرجعاتها. فلا تغرنك معيشتها، فإنَّما هي السَّراب.

وهذه بعض خدعاتها!

وفي تاريخ الإنسانِيَّة فإنَّ كلَّ ناجح لديه نوع من الشُّباك يلتقط به نجاحات وقراضات الزمان، ونعني بها فضلات الأيام والأجزاء الصَّغيرة من السَّاعات، ممَّا يكنسه معظم النَّاس بين مهملات الحياة يصنع بها أحلامه.

فطالِع سِرَّ السَّلفِ، وابحث في أرشيفِ حداثتهم، تجد ربيعهم لم يمسه حريقُ تيهنا.

ستُضيءُ مشكاتك نورًا.

وسيتقدُّ الزيتُ في دُبالاتك.

تلك حقولُ، سُقِيَتْ بالتَّبَتُّلِ لله فلا تَذُبُّ، ومَنْ قاربها أزهَرَ وأنور!

تَعَلَّمْ مَنْ سِرِّهم، اجلسْ إليهم، واسمُ في معارجهم.

إنَّهم يبلِّغونك نهايات السَّعي.

يعلمونك، كيف تَنبُتُ رياحينُ الجنَّة من صدَى خطواتهم.

يرحلون بك إلى فضاءاتٍ، علو المغفرة بعضُ مدارجها.

هؤلاء، من يستحقُّون الصُّحبة!

كيف ترى سعيك، حين تسمعُ أنَّ السرخسي أملى 15 مجلدًا على تلامذته

وهو مسجون في بئر!

وشرح القرطبيُّ (صحيح مسلم) وهو على ظهر السفينة!

وكتبَ النووي كتبه وما بلغ الأربعين وهي عشرات المجلدات!

إِنَّهُمْ يَكْسِرُونَ لَكَ قِيودَكَ، وَيَشْدُونَ حَبَالَكَ، ب ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

لو كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ جِبَالٌ مِّنْ ذُنُوبِ الْبُعْدِ، فَتَذَكَّرُ قَوْلَهُ: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ أَلَّهَ﴾!

ابن من العيش مع سيرهم، طريق العودة!
وَحُذِّ بِحُظِّكَ مِنَ الصُّحْبَةِ!
وَلَا يَمْنَعُكَ عَجْزُكَ، فَتَتَوَجَّعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ السَّبْقِ!

وَارْفَعْ سَقْفَ هِمَّتِكَ..
وَضُئِ طَمُوحَكَ بَعْلُ الْهِمَّةِ.
وَتَوَقَّفْ عَنِ الْإِنْحِنَاءِ.
وَاذْكُرْ هِمَّةَ (رَبِيعَةَ) الَّذِي قَالَ:
«كَنتُ أُبَيِّتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ،
فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ!

قَالَ: أَوْغَيَّرَ ذَلِكَ؟
قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ!
قَالَ: فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ..
وَاذْكُرِ الْأَعْرَابِيَّ، إِذْ جَاءَهُ سَائِلًا حَفْنَةَ شَعِيرٍ!

صَدَّقَنِي مَنْ لَمْ تَبِكِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، لَمْ تَضْحَكِ الْآخِرَةُ إِلَيْهِ!
«أَمْحَرُ صَبَاحَ السَّبْقِ مُنْقَرِدًا..
وَاخْتَرْتُ هَوَاكَ عَلَى هَوَاكَ..
عَسَاكَ أَنْ تَلْقَى هُنَاكَ إِلَى الطَّرِيقِ رَفِيقًا..
وَهُنَا يَكْمُنُ فَقْهُ الْإِدْرَاكِ.

يقول أحد السلف الصالح: «... ولقد نظرت في ثبث الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا هو يحتوي على نحو ستّة آلاف مجلّد، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر همهم، وحفظهم، وعبادتهم، وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب والله الحمد».

ولا يكن جُل همّك: فضل متاع.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ولا تستعذب ما رضي القوم من نافلة الأثر!

فقد قال بعض السلف:

«البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه».

أولئك قوم، سَخَّروا المتاع للغايات!

وإذا أحجم الناس عن العُلا بما اقترفوا من الزَّلل، فكن أنت في الأُمَّة أعلى

الجبل، وبك يلوذ الرُّماة، فلا يُهْزَمون!

وإن رضي النَّاس بالهَضاب، فكن في الذُّرَّة العُلياء..

ومَوَاهِب الله، لمن تهياً لها، وراغم على أقدارها، حتّى يذوق بشاشة القَبول.

والعزائم المُتراخية، تنكصُ بأصحابها!

ومَن شابه السلف في نياتهم، فقد اقترَب.

ومَن وُفِّق في الارتحال للغايات الجليلة، فقد استعلى على أوْهام العجز!

فاحمل نفسك على منازل الصَّبْر..

واجعل دُخرك من الأجر، أعظم الذُّخر!

وأوقِفْ سُقوطك، بألفِ تَوَسُّلٍ.

وَشُدَّ جِذْعَكَ إِلَى نَخِيلِ الْجَنَّةِ، بِأَلْفِ ابْتِهَالٍ!

وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ، وَلَا تَكُنْ مَمَّنْ ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.
فَكَانُوا فِي السَّوَادِ الْمَتَأَخِّرِ!

تَشَبَّثُوا بِعِذْرِ الْمَسَافَاتِ، وَ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.
﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

وَإِنْ مَلَكَتْ مَالًا فَاشْتَرِ بِهِ كِتَابَ (عُلُوِّ الْهَمَّةِ فِي صَلَاحِ الْأُمَّةِ)، هَذَا كِتَابٌ لَنْ
تَجِدَ لَهُ مِثِيلًا.

تَفَرَّدَ بِوَعْيِكَ وَعِلْمِكَ..

وَعَلِمَ، أَنَّ «مَنْ تَفَرَّدَ بِالْعِلْمِ، لَمْ تُوجِشْهُ خُلُوءٌ».

فَتَفَرَّدَ فِيمَا انْتَقَيْتَ!

وَكَانَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ يَقْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ دَرْسًا شَرْحًا وَتَصْحِيحًا، وَيَقُولُ
لِتَلْمِيزِهِ: «بَارَكَ اللَّهُ فِي وَقْتِي»، وَذَلِكَ وَاللَّهِ مِنْ صَدَقَ نِيَّتُهُ.

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يَحْيَى، قَالَ: «سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا
ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، وَحَفِظْتُ الْمَوْطَأَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ».

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: «أَبُوكَ يَحْفِظُ أَلْفَ
حَدِيثٍ»، يَعْنِي: مِلْيُونًا.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ: «جَالَسْتُ مَالِكًا خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً أَطْلَبُ الْعِلْمَ»!

وَعَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ مَكْحُولًا يَقُولُ: «طُفْتُ الْأَرْضَ كُلَّهَا فِي طَلَبِ
الْعِلْمِ».

وَكَانَ الْإِمَامُ أَبُو زُرْعَةَ يَحْفِظُ سِتِّ مِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: «أَحْفِظُ مِائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ صَحِيحٍ، وَأَحْفِظُ مِائَتَيْ أَلْفِ حَدِيثٍ
غَيْرِ صَحِيحٍ، تَارِيخُ بَغْدَادٍ».

وقال: «كُتِبَتْ عَنْ أَلْفِ شَيْخٍ وَأَكْثَرُ، عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ وَأَكْثَرُ، مَا عِنْدِي حَدِيثٌ إِلَّا أَذْكَرُ إِسْنَادَهُ».

قال جرير: «جلست إلى الحسن سبع سنين لم أخرج منها يوماً واحداً».
وقال أبو العباس ثعلب: «ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو خمسين سنة».
ولغة الروح، لا تخطئ في معرفة المسار.

أولئك أهل النفس التَّوَّاقَة..

فَاتَّزَرُ بِهِمَّةِ تَوَّاقَةٍ، غَايَتِهَا الْجَنَّةُ وَتِلْكَ غَايَةُ تَمُوتَ بِهَا مَلِيئًا.
﴿أَوَّلِيكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.
وَكُنْ فِي الْأَمَّةِ، إِمَامَهَا، وَخَلْفَكَ تَقِفُ الصُّفُوفُ وَرَاءَ الصُّفُوفِ!
وَلَا تَغِبْ عَنْ هَذَا الْحُلْمِ.
وَاجْعَلْ شَعَارَكَ، (وَجِبَ السَّبْقِ)!

وَأَغْلِقْ عَيْنِيكَ عَنْ زَيْفٍ مَا حَوْلَكَ، وَارْقَ إِلَى النَّفْسِ التَّوَّاقَةِ.
وَلَعَلَّكَ بِهَا تَمْضِي إِلَى مَا لَا يُطَاقُ!
فَكُنْ قَدْرَكَ، وَتَنَاغَمِ مَعَ إِيقَاعِكَ!
رَبِّمَا تَبْدُو مَقَامًا صَعْبًا فِي تَرَاتِيلِ الْمَجْمُوعِ، وَإِيقَاعِكَ يَبْدُو نَشَازًا.
رَبِّمَا يُرْهَقُكَ، أَنْ يَرَاكَ الْقَوْمُ فِي زَحَامِ السُّتْرِ مَخْفِيًا.
وَرَبِّمَا تَصْعَدُ فِي عَتَمَةِ السَّيْرِ الْفَارِغِ، إِلَّا مِنْكَ.
وَلَكِنَّكَ تَضِيءُ فِي عُمُقِكَ، ثُمَّ مَا تَلْبَثُ أَنْ تَصْبِحَ أَنْتَ نُورًا!

فَإِذَا رَسَخْتَ فِيمَا تَرَى، فَإِيَّاكَ أَنْ يَزِيغَ الْبَصَرُ أَوْ يَطْغَى.
فَإِنَّ «الْأَنْفَاسَ جَوَاهِرَ، وَالْحَيَاةَ دَقَائِقَ وَثَوَانٍ، وَالْأَوْقَاتَ خَزَائِنَ، مَا ادَّخَرْتَ
بِهَا لَقِيْتَ»!

كان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري -رحمه الله تعالى- «يصلي النوافل من قيام مع كبر سنّه وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فقليل له في ذلك، فقال: يا ولدي، النَّفْسُ من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك».

فاسمُ على ما دنا من الهمم، تَكْتَمِل.

وتذوّق لحظة انتهاء المسافة..

«عسى المقام بالمُقيم يليق!»

وأعمق الوعي، أن تنتظم في تدفّق لا ينتهي.

وقبل أن تلتفتَ لك الجهات، لا بدّ من فاتورة (حساب الألم) كاملة.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾.

وذلك ما يسمّى، وجع النُّضج!

فلا تخش الضريبة فإنّ..

«مَنْ وهب قلبه لربه، وهبه عونه.

ومن ظنّ أنّه ببذل الجُهد يصل، فمُتَمِّنٌ.

ومن ظن أنّه بغير بذل الجهد يصل، فمتعنّ!

وقال محمد بن علي الأسلمي: «قمت ليلة سحراً لأخذ النّوبة على ابن الأخرم،

فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً ولم تدركني النّوبة إلى العصر».

والله وحده من يراك في سرك تخوض في همّة غلّيا، وتحترق في

اشتعالك.

قد لازمتَ ثغرك، فما رحلت ولا توانيت ولا تغيّرت!

تقطع أميالاً في وحدتك.

أتراه لا يلين لك الطريق؟

فقل له:

يا ربُّ، هذا خَطوي، فألنْ لي الطريق!

«اللَّهُم اجعلنا ممن رسخ في الدينِ قَدَمه، وتمكَّنت فيه عزائمُه وهمَمه، فلا التفاتَ له إلى غيرِه، ولا همه إلى سواه».

«وأسألك العزيمة على الرُّشد».

لذا..

«سُدَّ البابَ عَمَّا يلفتك عن أعلى الهمم، واقطع الأسباب، واسأل الوهاب، يعطيك بلا حساب!»

ويكفيك أنك تحصد في وحدة صعودك، فن التفرُّد أبداً!

«فإنَّ الرجل لا يزال يتباعد حتَّى يؤخَّر في الجنَّة، وإن دخلها».

إذ أوَّل خطيئتنا، أن نذرف الرُّوح في مسارٍ بعيد.

مسارٌ ليس له خُلُقنا!

مسارٌ يشبه ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

فتنبَّه واجعل آخرك يتكل على أولك.

وكلما بعدت الغاية وعلت، تجلَّد في الخطوات، وقُل: يا قلب..

عساك لا تخيب!

قال جعفر الخلدي البغدادي: «ما عقدت لله على نفسي عقداً، فنكثته».

قال الإمام ابن عقيل الحنبلي: «إنِّي لا يحلُّ لي أن أضيِّع ساعةً من عمري، حتَّى إذا تعطلَّ لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح».

والله لم يبق في قواميس الندم أشد من كلمة: ﴿يَحْسِرَتْنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، وقد غابت شمس دار الابتلاء، وظهرت منازل القوم، وسيقت الجنة للمتقين، وكشف الله لكل نفس عن ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وتقاسم السابقون قريتهم، ونودي على من اصطفى: هذه الحسنی، فَهَلُمُّوا لزيارة ربكم!



الخطوة الخامسة والعشرون

اكتب خُطة العُمر



وَالْعُمْرُ إِنْ لَمْ تُقَدِّمِهِ خُطَّةً، لَا تَكْفِهِ نِيَّةً.

إِذَا أَمْنِيَّةٌ بِلَا عَمَلٍ وَهَمٌ مِنَ الشَّقَاءِ، وَلَا شَيْءٌ سِوَى التَّخْطِيطِ يَجْعَلُهَا حَقِيقَةً!
لَجْعَلِ الْحِلْمَ.. حَقِيقَةً!

وَإِنَّ الْخَطِيئَةَ إِذَا لَمْ تَبْلُغْ غَايَاتَهَا، فَلَا نَصَابَ لَزَكَاتِهَا، تِلْكَ أَحْلَامٌ نَاقِصَةٌ!
فَإِنْ شَمَّرْتَ وَلَا حَقَّتْ أَحْلَامُكَ الْهَارِبَةُ، فَافْهَمْ أَنَّ أَكْمَلَ حَالَاتِ الْإِنْجَازِ، الْقَصْدُ
مَعَ الْاسْتِمْرَارِ.
فَأَنْضِجْ خَبْزَ أُمْنِيَّاتِكَ عَلَى تَنُورِ الْوَقْتِ.

وَانُوا مَا شِئْتَ فَلِكُلِّ قَلْبٍ مِنَ الْأَحْلَامِ مَا نَوَى، إِنْ لَمْ يَضِلَّ قَلْبُكَ فِي
الْخَطِيئَةِ.

وَحِينَ اسْتَلَمَ أَلْبِرْت آينِشْتَاينَ جَائِزَةَ نُبْلٍ فِي الْفِيزِيَاءِ قَالَ: «إِنَّ تَخَيُّلَ
الْمُسْتَقْبَلِ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ».

إِنَّهُ أَشْبَهَ بِعَرَضٍ مُبَدئِيٍّ لِحَيَاةٍ قَادِمَةٍ، وَمَا فِي مَخِيلَتِكَ سِتْرَاهُ!
وَتَوَكَّدَ جَامِعَةُ هَارْفَارْدَ فِي أبحاثِهَا أَنَّ الطَّلَابَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ مُلْكَةُ تَخَيُّلٍ مَا
يَحْلُمُونَ بِهِ، يَقْتَرِبُونَ مِنْ طُمُوحَاتِهِمْ بِمَا يَعَادِلُ 100%، وَيُفَسِّرُونَ ذَلِكَ أَنَّ
هَذِهِ الْمُلْكَةَ تَسْتَحِثُّ الْعَقْلَ بِشَكْلِ يُوَدِّي بِهِ إِلَى بُلُوغِ تِلْكَ الْأَحْلَامِ.
ثُمَّ يَخْتَزِلُونَ كُلَّ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ فِي مَقُولَةٍ جَمِيلَةٍ: تَخَيُّلٌ مَا تَرِيدُ، لَتَرَى مَا
تَتَخَيَّلُ.

وَمَا الْأَحْلَامُ وَصُورُ الْأُمْنِيَّاتِ إِلَّا «بِرَاعِمِ الْحَقِيقَةِ»!
وَمَا الْكَثِيرُ مِنْ حِكَايَاتِنَا إِلَّا اسْتِجَابَةُ الْأَقْدَارِ لِتِلْكَ الِهِمَسَاتِ الْخَفِيَّةِ فِي
الْإِلْيَالِيِّ الْمَعْتَمَةِ.

حدّد هدفك

فتحديد الأهداف هو ما يبعث الحياة في الأحلام، وحلم دون أهداف، يبقى حلمًا فقيرًا.

لذا منذ السابعة تُرَدَّدُ على مسامع الصَّغير في غالب مدارس أمريكا عبارة: ما هدفك في الحياة؟! وفي بعض المدارس تُقدَّم حصّة أسبوعيّة اسمها: «هدفى».

وفي بريطانيا تتابع المعلّمات مهارات وميول الصُّغار منذ الرّوضة. في محاولة لاستكشاف توجُّهات المستقبل. وفي كلّ جامعة في الغرب مرشدٌ يقدِّم للطلّبة توجيهًا يعينهم على فهم قدراتهم، وبذلها في الاتجاه الصّحيح.

فاجعل لكلّ فترةٍ أهدافًا، «الجُهد فيها أعلى المجهود». وبهذا يُقطع الطّريق للأمنيات والمقامات والفردوس الأعلى. تلك والله حياةٌ، تُقرّب لك المقامات مَهْمَا نَأَتْ! تقرب لك الأحلام مهما تعاضمت.

كن مستعدًّا لدفع الثَّمَن

فإنَّ للأحلام والقمم ثمنًا من بعض جهد لا يبدو يسيرًا. وقد أبلغ أحدهم إذ قال: «إذا توقفت عن التّدريب يومًا، فإنَّ الفرق يبدو جليًّا».

بل ويؤكّد كلّ عظماء التّاريخ أنّ ما لديهم كان القليل من الموهبة أشبه بمملحة المائدة، والكثير من سهر اللّيل وكدّ النّهار.

ولعل كتاب (صفحات من صبر العلماء على التّحصيل) أصدق برهان على أنّ ما بلغنا من علم الشريعة كان بترحال عجيب وجهد لا يحسنه إلا العظماء.



فابذل جهدك..

وإِيَّاكَ أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْحُجَّةَ بِالْوَقْتِ، وَأَنْتَ فَارِغٌ مِنْ خُطَّةٍ عَلَى بَصِيرَةٍ.

تُقَسِّمُ بِهَا الْعُمَرَ مَرَاهِلَ..

وَتَجْعَلُ لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ غَايَةً، غَايَةً تَتْلُوها غَايَةً، تُبَلِّغُكَ الْغَايَةَ الْكُبْرَى.

إِذْ لِكُلِّ مُدَّةٍ ثَمَرَةٌ.

وَمَنْ قَطَفَ، فَمَا وَقَفَ.

فاجعلْ آخِرَتَكَ كُلَّهَا، لَدُنْيَاكَ قِطَافًا!

وَلَا تَكُنْ فَوْرَةً أَوْ سَعِيًّا مُنْبِتًا..

رَبِّمَا تَكُونُ الْأَحْلَامُ الْكَبِيرَةُ ثَقِيلَةً فِي مِيزَانِ الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

إِلَّا أَنَّهَا تَخَفُ وَتَهُونُ، إِذَا أُمِكنَ جَعْلُهَا مَرَاهِلَ فِي الطَّرِيقِ.

وَمَا السَّمَلُ الصِّينِيُّ عِنَّا بِبَعِيدٍ إِذْ يَقُولُ: «إِنَّ رَحْلَةَ الْأَلْفِ مِيلٍ تَبْدَأُ بِخُطْوَةٍ».

فَكُلُّ غَايَةٍ مَهْمَا بَعْدَتْ، وَكُلُّ أَمْنِيَةٍ مَهْمَا عَظُمَتْ، فَإِنَّ سِرَّ تَحَقُّقِهَا أَنْ يَعامِلَهَا

المرء كخريطة الطريق. لها بدء، وسيكون لها نهاية إن واصلنا المسير.

وَمَا بَلَغَ الْغَايَةَ، إِلَّا مَنْ اسْتَدَامَ الصَّنِيعَةَ..

وَذَاكَ مَعْنَى «خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا».

فَلَا تَكُنْ خَطَاكَ عَلَى خَرِيطَةِ السَّعْيِ قَعِيدَةً، بَلْ خُطَّةً بِخُطْوَةٍ وَغَايَةً!

فاجمع منذ اللَّحْظَةِ لَخْطَتَكَ غَايَةً مَعَ دَوَامِ السَّعْيِ.

وَالِاسْتِثْنَائِيُّ هُوَ مَنْ يَكْتُبُ قَائِمَتَهُ بِمُفْرَدِهِ، يَكْتُبُ سَطُورَهُ بِطَرِيقَتِهِ.

وَفِي دَرَاةٍ بَحْثِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ حَوْلَ أَسْبَابِ النُّجَاحِ..

وَجَدَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ غَالِبَ الَّذِينَ أَخْفَقُوا فِي بُلُوغِ مَرَادِهِمْ، كَانَ بِسَبَبِ قَنَاعَةٍ

خَطِرَةٍ.

إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِإِمْكَانِيَّةِ تَحَقُّقِ مَرَادِهِمْ.

ولكأن قدرات الإنسان تستجيب لهذا الإحياء الخِطَر وتتناغم معه، فتعجز وتتيه عن إكمال المسير.

وفي دراسة مؤكّدة لجامعة هارفارد العريقة إشارة بيّنة لهذا المعنى، إذ تُثبت أنّ وراء شفاء مرضى السرطان كان إيمان عميق أنّهم لا بدّ ناجون! إنّ الفكرة إمّا أن تكون مميتة، وإمّا باعثة للإنسان، والجسد يتبع ذلك في تناغم فيزيائيّ عجيب، فيقوى ويشتدّ، أو يذبل ويموت تبعاً لما تؤمن به العقول.

لذا قيل: «وما يدومُ على السَّبق، إلا مُوفِّق».

فافهم ما مضى، تلك معادلة الإنجاز، وقت وجهد واستمرار.

فثق أنّك نتاج ما تفعله كلّ يوم باستمرار.

وما تفعله اليوم يخلق لك الغد، إذ الخطوات الصغيرة تصنع قفزات هائلة

وقد قيل: «من تفرَّغ لشيء أوتي سرُّه».

وسرُّ ذلك كلّهُ: الانضباط الذاتيّ

الانضباط الذاتي، مع القدرة على الأداء، وعلى الاستمرار، وعلى الحفاظ

على الوعود..

وكلُّ ذلك صفات الناجحين.

والمُوفِّق..

مَنْ خَرَجَ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ.

وَخَرَجَ مِنْ سُلْطَانِ لِسَانِهِ.

وَخَرَجَ مِنْ سُلْطَانِ بَيْتِهِ.

وَخَرَجَ مِنْ سُلْطَانِ هَوَاهُ.

وخرج من سلطان النَّاسِ.

فلا يَشْتَهِي، إلّا ما يعينه على بُلُوغِ غَايَتِهِ، وتنفيذ خطّته.

وما سوى ذلك، إنّما هو إغراءاتُ الضُّعفاء.

فلا تَنَشْغَلْ بها!

وما يُدرك ذلك إلا:

«مَنْ افْتَتَحَ فِي كُلِّ أَمْرٍ خَاتِمَتَهُ، وَعَلِمَ مِنْ بَدءِ كُلِّ شَيْءٍ عَاقِبَتَهُ!»

فهو يرى منذ أَوَّلِ الْخَطَّةِ مَآلَهَا!

يرى إلى أين ستنتهي خطَّته.

عينُه على الفردوس، وصَدَى الخطوة على تُرابها.

كأنَّ فيه مَعْنَى: «يَا بَلالُ إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتَ نَعْلِكَ فِي الْجَنَّةِ»!

فإِيَّاكَ أَنْ يَزُولَ ظِلُّكَ، إِلَّا وَأَنْتَ لِلَّهِ رَاكِبٌ..

ولا تهولنَّك الوحدة، ولو حَمَلْتَ مِنَ الْأَمْرِ أَشَدَّهُ.

فذاك دَلِيلُ أَنْتَ (نَسِجُ وَحْدِهِ)!

فأتَمِّم ما أردت ولا يهولنَّك ثَقَلُ الْخَطَّةِ.

ومن اصطفاه الله، أعانه بالوقت!

وفي الْخَطَّةِ قَدَّمَ الْأَهَمَّ، إِنَّ الْعَمَلَ جَمٌّ.

وَالْعُمَرُ طَيْفُ زَارٍ، أَوْ طَيْفُ أَلَمٍ!

فإنَّ كُلَّ يَوْمٍ، هُوَ بَقِيَّةُ الْعُمَرِ.

«وَبَقِيَّةُ عُمَرِ الْمُؤْمِنِ، لَا تُثَمِّنُ لَهَا..

يُدْرِكُ بِهَا مَا أَفَاتَ، وَيُحْيِي بِهَا مَا أَمَاتَ».

وتلك المعاني خطَّةُ الْعُمَرِ كُلِّهِ، فهل عمرك كذلك!

في خطوة حضارية مهمة عيّنت فرنسا في حكومتها وزيراً للوقت الضائع.

وفي اهتمام بالغ تقيم أمريكا دورات عديدة في شركاتها ومعاهدها،

لتعليم الفرد وسائل اقتناص الدقائق والأوقات المتناثرة.

وفي بدء نهضة ألمانيا التزم كلُّ ألماني بتقديم ساعتين من وقته يومياً،

لإصلاح ما انهدم من الحياة والتعليم في ألمانيا.

إِنَّ الوقتَ في عقل الغرب وسيلة حضارية مهمة في مواجهة التَّحَدِّياتِ
وصناعة الحياة وإدارة كلِّ صراعٍ متفوّق.

وَمَنْ وُهِبَ الوقتَ، وَوُسِّعَ له في العافية، فَقَدَ قَامَتِ عليه الحُجَّةُ!
والبائِس..

مَنْ «وَقَفَ على ثَنِيَّةِ الوداع، وَأَشْرَفَ على دارِ المقام، وَلَمْ يَبْقَ منه إِلَّا
أَنفَاسٌ معدودة وَعِدَّةٌ فانية!»!

والمَخْذُولُ..

مَنْ نَضَبَ عُمره في غيرِ سَبَقٍ.
أَضْنَى قِوَاهُ في لَغْوٍ، وَخَيَالُ أُمْنِيَةٍ.
«وما ظَفَرُ واللّهِ، مَنْ ظَفَرْتُ به الأَيَّامُ»، فَجَعَلْتُ وَقْتَهُ هِبَاءً مَّنْثُورًا!

وتالله..

إِنَّ كُلَّ مَنْ وَلَغَ في تَضْيِيعِ الوقتِ، رَعَى العُمرَ هَشِيمًا.
وَكَانَ حَقُّهُ، أَنْ يَكُونَ مَرْتَعًا لِلْحَسَنَاتِ خَصِيْبًا!

فَرَدَّدَ على نَفْسِكَ:

هَذي الدَّقَائِقُ في أَعْمَارِنَا قُرُوضٍ.
«والمَوْتُ سَهْمٌ مُرْسَلٌ إِلَيْكَ، عَمْرُكَ بِقَدْرِ سَفَرِهِ إِلَيْكَ»!

فَإِنْ نَازَعْتَكَ نَفْسُكَ لِحَايَةِ اللَّاهِمِينَ، فَقُلْ لَهَا: «قَدْ مَضَى مِنْ بُؤْسِنَا مُدَّةٌ،
وَمِنْ نَعِيمِهِمْ مِثْلُهَا، وَالْمَوْعِدُ اللهُ تَعَالَى»!

فاحْكُمْ وَقْتَكَ، بِخَطَّةٍ قَصِيرَةٍ وَطَوِيلَةٍ..

أَمَّا القَصِيرَةُ فَلَمَرِحَلَةٍ وَقَتِيَّةٌ، تَنْجِزُ فِيهَا أَهْدَافًا تَبْلُغُكَ مَرِحَلَةً..

وَأَمَّا الطَّوِيلَةُ فَلِلْأُمْنِيَّاتِ الْجَلِيلَةِ.

فَإِنْ شئتَ مِثْلًا: عَلَمًا رِبَانِيًّا، فَاقْسِمْ عَمْرَكَ مَرَاهِلَ فِي بِنَاءٍ، يَبْلُغُكَ مَا تَرِيدُ.
مَرَاهِلَ تَقْطَعُ بِهَا الطَّرِيقَ لَحْمٍ عَظِيمٍ.

وَعَلِمَ، أَنَّهُ إِذَا تَحَكَّمَ الْفَرَاغُ، صَارَ شُغْلًا شَاغِلًا!
وَأَوَّلُ الْفَشَلِ أَنْ تَنْتَظِرَ لِحْظَةَ الدَّافِعِيَّةِ لِلتَّحَرُّكِ.
أَنْ تَنْتَظِرَ الرَّغْبَةَ.

وَعَلَى قَارِعَةِ الْآخِرِ، يَقِفُ كُلُّ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَا أَهْدَافَ لَهُمْ يَعْمَلُونَ لَدَى
الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَهُمْ أَهْدَافٌ.

لِذَا شَدَّ لِجَامِ النَّفْسِ، وَقُلْ لَهَا:
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ «الْجَمِيمَ - الْمَلَّ الْخَصْبَ - رَعَى الْهَشِيمَ»!
وَقُلْ:

رَبِّي لَا تَحْرِمِ الْقَلْبَ مِنْ حِلْمٍ يَنَاجِيهِ.
يَا رَبِّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَلَا يَتَسَرَّبِ الْعَمْرُ سَدًى.
﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَلَا تَضِلُّ الْأُمَانِي الْمَدَى.
نَسْأَلُكَ الْعَوْنَ عَلَى بُلُوغِ غَايَاتِنَا، فَلَا نَخْلِفْ لَهَا مَوْعِدًا.
نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَظْلُ فِي هَامِشٍ مِنَ الْأَحْلَامِ يَضِيقُ عَلَيْنَا وَهُوَ بَغِيرُ سَنَةِ السَّعْيِ
لَا يَنْسَعُ.

أُمْنِيَّةٌ بِلَا خَطَّةٍ، حِلْمٌ فَقِيرٌ!
عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ عُمْرٍ هَشٍّ، لَيْسَ فِيهِ مَا يُوزَنُ يَوْمَ تَخْفُ
الْمَوَازِينُ!



الخطوة السادسة والعشرون

فقه انتقاء الثغور



هو فقهٌ تخرج به من التَّزاحم، إلى صَفاء المساحة التي تُثمر فيها فِسيلتك.
إلى بصيرةٍ مكثفة، وهي ربحُ الرُّوح وربح العمر!

واعلم أنَّ آية النُّضج، أن تميِّز في أيِّ الثُّغور موقعك.
ولماذا الله خلقك ولأي الغايات أرادك.
لذا، تخفَّف من كلِّ ما يثقلك، ومن كلِّ ما يشدُّك هنا وهناك.
فمُعجم العمر، لا يحتمل ثَرثرة الخُطى، واشتباك مفردات تائهة!

إذ أكَثَر ما يُفني الأعمار..
الانهماكُ في إطفاء الحريق، ومَوقدك بالجمر مُشتعلٌ، جمرٌ يبقي حريق
وقتك دائماً!
الانهماك في جري ليس هو اتِّجاهك، وذلك والله مصارع الطَّاقات.

ربَّما زحمةُ الأعمال، تُغريك بوهم الإنجاز!
لكنَّك لو تأمَّلت، لأدركتَ الفرق بين الأمنيات والقدرات.
والفارق تعرفه في الشَّغف، في لهفة قلبك.
وشباك الأمنيات، قد تكون هي فخُّك، وهي المصيدة!

لذا..

اتَّزن في خطوتك، وإيَّاك وفوضى المَهام!

وتنبّه..

أَنَّ المَهمَام إذا أَلَحَّت، شَتَّتَتْ.

وثغرك ليس مهامًا يصنعها واقعك.

ومن ابتلي بمرارة ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، لم يذُق حلاوة الإنجاز.

وحينها، ما فاتك من الوقت في العمر أني له الإدراك!

لذا..

أغلق الأبواب المُشرعة عليك.

واختر ثغراً ترابط فيه.

ثغراً تتسامى إليه قدراتك وتلقى فيه قلبك.

ثغرك ما تتقن، وما ينبض فيه قلبك.

«والبابُ الَّذي يفتحه الله لك، لَجَّ فيه والزَّمه».

ولا تأذن لمحراك أن يتسور عليه الدُّخلاء.

وهذا وربِّي أوَّل التَّوفيق!

وتجهّز من ثمَّ للمدد، إن وطئت أرض ثغرك.

ذلك أَنَّ العبد إذا أصاب ثغره، «رَكَنَ في مغرسه، وضرب بعرقه، وسَمَا

بفرعه، وتمكَّن للإقامة»!

تجذَّر فيما تنتظر ك الأمة فيه.

فالزَّمْ منذ السَّاعة، ما يقيمك.

فإن سألتني: كيف أعرف ثغري؟

قلت لك: تعلَّم التخلِّي، فإنَّه الاكتساب.

وتخلَّص من ضجيج الدَّاخل، حتَّى تسمع صوت مهمَّتكَ!

وأنصت لما تتقن وليس لما تعرف!

لما تحسن وليس لما تقدر، فقد تقدر على الكثير ولا تحسنه!

فإذا عرفت ما تتقن فأخرج منك، كرائم روحك.
وجليل مواهبك.

إذ كمال المرء في التَّشَبُّث بما يحسنه، وقيمة المرء فيما يتقنه!
«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةِ: صَانِعُهُ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالَّذِي يُجَهِّزُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي يَرْمِي بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»،
كلُّ فيما يتقنه!

واعلم أنك كلما تجذرت، تمددت.
فابحث عما خلقت له.
ولا تكن في كل ورقة سطرًا، تتساقط وتمضي بلا وهج!

ثق أن هذه المهام الكثيرة، هي آلام الختام.
إذ تدرك أنك كنت في (ماراثون)، وكانت أنفاسك لهاثًا،
وأنت في الجري تنسى أنك خلقت لطريق واحد، وليس لكل الطرق!
﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.
ولعلك في آخر السفر، تضاعف سيرك، وتخلع نعليك.
ولكن الوقت لا يسعفك.

فاعمد إلى عقلك، وسائله عن ثغر رباطك فيه هو الأجدى.
وحرر نفسك من قيد المهام التي جعل من فرضها ونفلها وواجبها
ومستحبها وضرورتها وأهميتها سواء شريعة الناس، وما شريعة الناس إلا
ضلال!

ثم ماذا؟! ثم لا تكون بعدها، إلا زمنًا منثورًا على درب لهاث لا ينتهي!
«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: أَحْيِ وَالِدَاكَ؟ قَالَ:
نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».

فاختر ما تشتهي أن يكون هو أنت.
وليسَ (هم) أو (أولئك).
فإنَّ لحظة الرَّحيل، ما فيها بديل.

فلا تُفَنِّ نفسك في سافل المَطْلُوب، وقد هيَّأَكَ الله لأعلاه!
ولا تكن في الطُّرُق المكتنَّة.
بل تفرَّد فيما تتقن!

وحذارٍ حذارٍ..
أن تُخطئ في تناول رسالة الله من خلقك أنت!

وقد كان أبو العباس السَّبَّتي معروفًا بالتَّعَبُّد والزُّهد وكثرة الصدقات،
حتَّى لَخَّصَ أبو الوليد ابن رشد فلسفته في الحياة بقوله:
«هذا رجل مذهب، أنَّ الوجود ينفع بالجوْد»!
فجعل فقهه وسعيه، فيما يُحسن، وقد رُويت عنه مسألة فقهية سلوكية
عجيبة، إذ كان -أي السبتي- يرى أنَّ «أهل الجمال من النِّساء الفقيرات تجب
الصَّدقة عليهنَّ، مخافة فسادهنَّ».

وكان فقهه نابعًا من رسالته في الحياة.
وكان وعيه من تجذُّره فيما يحسن.
وسلوكه في الجود من وعيه بمهمته!

لذا كان الانطواء على مهمَّة كبرى، خيرًا من انتصاراتٍ صغرى.
فاجمع حَظبك في موقد، لاشتعال كبير.
واذكر، إن الرياح قادرة على إطفاء المواقد الصغيرة!

فإن كان ثغرك حراسة الوعي، فلا تدعه لعملٍ خيريٍّ.

وإن كان ثغرك حراسة الفقراء، فامتدَّ به حتَّى يكون سياجًا للمساكين.
وإن كان ثغرك أسرة، فاجعلها لبنة في صرح كبير!
وإن كان ثغرك تأليفًا، فكن قلمًا يتبوأ قَمَّة التأثير.

ودومًا..

في ضجيج المهام المتعدِّدة، تزلُّ الأفهام، ولا ينجو من عصفها وصخبها
إلا من تعبَّد بفريضة الفهم!

ومن كابد الفهم، وصل الثبات واستراح.
ومن قبض على جمر وظيفته، أدرك يوم يبسط يده فرحًا بثباته.
وما يبلغ ذلك، إلا من كان مقدار عقله فاضلاً، ووعيه بذاته وافرًا!

وإذا كثر المطلوب دون قريحة الفهم، كان صاحبه كتابًا مسطورًا، كلُّ
يخطُّ فيه ما يشاء!

وما تَرَى بعد ذلك، إلا عبدًا استهلكه عرق الجُهد في شتَّى المسالك، ثمَّ لعلَّه
يضعف عن كلِّ ذلك!

فنرى في المآل عبدًا، قدَّ خَرَقَتِ الصوارف عَقْلَه، وَأَمَاتَتِ مشاغل الدُّنيا
قَلْبَه!

فتعلَّم، ميزان ما يليق وما لا يليق.
تلم به شعئك، ولا يكن سَعِيكَ خطوات على الرَّمَاد.

واختر ثغرك ورابط عليه.
وإليك مثلاً من السَّيرة مع صحابي أدرك أنَّه يملك تدمير جبهة الظُّلم
بذكائه وحيلته ففعل ما فعل.

«إِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَسَلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذَلْنَا عَنْكَ إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ.

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِّيَ إِيَّاكُمْ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، قَالُوا: صَدَقْتَ، لَسْتُ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ، فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحُولُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاؤُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرَتْهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْرَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثَقَّةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تَنَاجِزُوهُ، فَقَالُوا: لَهُ لَقَدْ أَشَرْتُ بِالرَّأْيِ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِّيَ لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَى حَقٍّ أَنْ أُبْلِغَكُمْوهُ، نَصَحًا لَكُمْ، فَاسْكُتُوا عَنِّي، فَقَالُوا: نَفْعَلُ، قَالَ: تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ: إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَلْ يُرِضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ، فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: أَنْ نَعَمْ. فَإِنْ بَعَثْتَ إِلَيْكُمُ يَهُودَ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا أَرَاكُمْ تَنْتَهِمُونِي، قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ، قَالَ: فَاسْكُتُوا عَنِّي، قَالُوا: نَفْعَلُ، فَمَا أَمْرُكَ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ.



أتقن ما تتقن فهذا هو ثغرك!

واعرف شغفك

واقبض على شغفٍ، يخلق لك تَفَرُّدًا مُثْمِرًا.

فلا يُنقلك السَّير فيه، بل تراه شغلك الذي تشتتهي ألا ينتهي!

وكُلُّما دنا الطَّرِيق من خاتمته، يبين لك اتِّجاه الأَمَس.

إذ الأَمَس، هو معنى حسن الابتداء.

وحسن البداية، لا ينتهي!

واعرف مُبرِّر وجودك

إذ وجود بلا معنى الوجود، هو اللاوجود.

فاعرف مُبرِّر وجودك، وقُل:

نَجِّنِي اللَّهُمَّ من أشباه المكتسبات.

فإنَّها فُخُّ الهمم، والخَيْبة كُلُّ الخَيْبة أن تُهول ثمَّ تبصَّر هرولتك، فإذا

بها مشي!



الخطوة السابعة والعشرون

اجمع كأك في كأك لشرك،
واياك والماكين على قارعة
الفراغ



اجْمَعْ كُلَّكَ فِي كُلِّكَ، وَكُلُّ مَا فِيكَ لِكُلِّ مَا نَوَيْتَ

واجعل ذاتك لغايتك وثررك..

ولا تتقاسمك الأهداف، فتتشظى..

فإنَّ الروح لا تتوهج إلا في شغفها..

فاعرف ما تتوهج فيه روحك، فالزمه.

وما سوى ذلك، كدُّ في عملٍ يستلُّ طاقتك!

فأجرنا اللهم من خسارة أنفسنا!

ثُمَّ اسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى بُعْدِكَ..

واحذر أن يكبر الضائع فيك، احذر أن يلتهمك ضعفك

واجعل همَّك إتقانَ ثغرك.

ولا يشغلنك الماكثون على قارعة الفراغ، تمضي بهم الأيام ولا يمضون

بها، أولئك قواطع الفوز!

فلا تنثر دقائق العمر بينهم.

واذكر (أبا حامد) إذ اعتزلَ عشر سنوات، يكتب كتابه إحياء علوم الدين،

فلما عادَ إلى بغداد، أسَّس مدرسته، وأخرجَ جيلاً كان فيه صلاح الدِّين!

والله..

ما يشيخُ العمر، إلا بتشتُّت السُّبل.

وما يُميت المرء، مثل أن يستجيبَ للشَّتات.

ولا يحفظ عليك الوقت، مثل أن تمضي به كلُّه نحو أُمْنِيَّة: هي أقدارك!
كلُّه وليس بعضه.
تمضي به نحو أُمْنِيَّة: هي أقدارك! تتنقَّل بها، وتأخذها في أنفاسك.
وقيمتك ما تُحسن.
فأُنْفِق كرائمِ عمرِكَ فيما يقدِّمك.
ولا يحصُّدك هباء، مثل كثرة السَّير في كلِّ الطُّرق.
واحذرَ رغبة العُجالي!

وتعلِّمُ فقه البؤرة..
إنَّ النُّورَ إذا انتشر، اتَّسع.
وإذا كَنَفْتَه في مَسار، أضاء لك النُّفق!

وبين الاتِّساع والتَّركيز، فقه البؤرة.
والموفِّق، من رَتَق سَعِيه، وشدَّ على رغباته لثام الصَّمت.
ومن أوثق شَتاته، فقد أطلق قواه.
حيث تحتشد كلُّك لغاية، فتنبجسُ منك ﴿أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، أو تزيد!

أدومها وإن قلَّ..
إنَّ ثبات الأثر، من ديمومة العمل وتركيزه.
وفي كلِّ التفاتة، نقصان.
وكلُّ تشتُّت، يسلب الأرباح السَّابقة!

ومن تقربَ بذراع العزيمة، جاءته الغايات هَرولة.
وما تمضي العزيمة، إلَّا باستعانة.
وهمة ترفعك من حضيضٍ إلى علو، فإنَّها عافية السَّعي من شتاته.



وكن من قوم، أماتوا ما يَخشون أن يميّتهم!

واذكر موقف ابن خلدون..

إذ عرض عليه سلطان تلمسان منصباً رفيعاً، فاحتال لنفسه بالرغبة في الحجّ، واعتزل الناس، وعكف على التّأليف، فأخرج لنا سفره الخالد (العبر) ذا المقدّمة العالية.

مقدّمة ابن خلدون في علم الاجتماع والعمران!

ولو أجاب الأمير، لما خلّدت آثاره.
وكان من خبره، أنّه جذوة وانطفأت!

ودوماً..

النّهيات، هي نداءات اليقظة لوعي البدايات!

احذر أن تتداعى عليك المطالب، ثمّ تهدمك.
فارفع مقاييسك، وارتحل إلى ما تطيق من عالي الأهداف!

ولقد ترك مالك وأبو حنيفة القضاء..
وعلّل ذلك أبو قلابة بقوله:

«الغريق في البحر إلى متى يسبح؟!»..
إذ لا يرى إلّا عائماً مآله الغرق.

فلا تخض في كلّ ماء، وامض فيما تحسن فقط!

وانشغل ابن عقيل بقلمه، وأغلق سمعه عن نداء المناصب، فكتب أكثر من ثمانمائة مصنف.

وكان عمره موعظة صامته..

وما كان ضحية موجٍ في مدٍّ وجزر!

أولئك قوم، ما بدلوا في الغايات تبديلاً..
فأنصت إلى داخلك، فإنَّ ما سوى شغفك إلا الأرق وفراغ لا يلم!

نحنُ اليوم، تُشكِّلنا ضَوْضاءُ الواقع.
تبعثرنا، أو تهدمنا، أو تقتل بعض ما فينا، حتَّى كأنَّنا من قِيلَ فيهم:
«كَمْ مرَّةً متُّ ولم أنتَبه!»
قُلها لِنَفْسك..

كَمْ مرَّةً متُّ، يوم أذِنْتُ لِلْعَجْز أن يقطف جليل أخلامي!

كَمْ مرَّةً متُّ!
يوم أهدرتُ ذاتي في سِباق لِيَسْتَ خيلي!

وكَمْ مرَّةً متُّ!
يوم استعرتُ ريشةً غيري، فرسمتُ بها بقيَّةَ عُمرِي!

فكنت ظلَّ سواك.
ولست إلا صدى صوتٍ ما!

من يستمع لداخله، يملك ذاته.
يملك منحته.

ثق، إنَّ لليقظة ضريبة، لكنَّها أهونُ من رائحة الموت المتكرِّرة.
أهون من أن تذرف سعيك في غير مسعاه!



حذارِ..

أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ وَاهِمٌ، أَنَّ بَعْضَ الْغُبَارِ فَقَطُ عَلِقَ بِكَ!

حذارِ..

أَنْ تَمُوتَ دُونَ خَلْوَةٍ، تَكْشِفُ لَكَ عَنْ رِسَالَتِكَ.

خَلْوَةٌ تَحْصِي فِيهَا شُمُوعَكَ، وَمَوَاهِبَكَ، وَإِمْكَانَاتَكَ، أَوْ رَبِّمَا عَدَدَ انْطِفَاءَاتِكَ!

تلك بدايتك، فأحسنها!



الخطوة الثامنة^{٤١} والعشرون

أتقن تغرك وكن به قدر الأمة



اَتْلُ أُمْنِيَاتِكَ، واجعلْ لله فيها أوفرَ الحَظِّ والنَّصيبِ!
لَتَكُنْ أُمْنِيَاتُكَ بِحَجْمِ خَرِيطَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ.
بِحَجْمِ تَضَارِيصِ الْجَنَّةِ.
أُخْرِجِ التَّارِيخَ مِنْ كُتُبِنَا، وَكُنْ قَدَرِ الْأُمَّةِ.
وَاصْعِدْ مِنَ الْحَضِيضِ، كَيْ تَصْعَدَ بِكَ الْأُمَّةُ!

إِنَّ السَّلَفَ رَحَلُوا عَلَى الْمَطَايَا، تَمُوجُ بِهِمْ مِنْ شَرْقِ الْمَعْمُورَةِ إِلَى غَرْبِهَا
مَعَ بُعْدِ الشُّقَّةِ.
وَشَدُّوا السُّرُوجَ بِتَرِكَ الرَّبْدِ.
أَمَّا نَحْنُ، فَرَتَّلْ عَلَيْنَا: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

تُهاجِرُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَهِيَ حَامِلٌ، تَتَدَثَّرُ بِالْجُوعِ، لِأَجْلِ أَنْ تَقَامَ لَنَا
مَدِينَةٌ.

وَكَانَ لِأَسْمَاءَ جَارٌ يَهُودِيٌّ، قَدْ ذَبَحَ شَاةً، فَاشْتَهَتْ الطَّعَامَ وَلَا تَقْدُرُ عَلَى
الصَّبْرِ، فَتَطْرُقُ بِأَبْهَمِ كُلِّ مَرَّةٍ تَطْلُبُ شَعْلَةَ نَارٍ، وَمَا لَهَا حَاجَةٌ لِلنَّارِ، ثُمَّ تَجْلِسُ
تَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَيَنْتَبَهُ جَارُهَا، وَيُرْسِلُ لَهَا وَقَدْ كَادَتْ تَهْلِكُ!
أَتَظُنُّ أَنَّهَا سُورَتْ بِالنُّطَاقِينَ مِنَ الْجَنَّةِ، دُونَ أَنْ تَهْطَلَ عَلَيْهَا الْفِتْنُ! أَتَظُنُّهَا
اسْتَحَقَّتْ سَطْرًا فِي التَّارِيخِ، دُونَ أَنْ تُصْقَلَ بِالْمِحَنِ!

يُرَى عَمَارٌ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فِي مَوْقِفِ الرَّدَّةِ عَلَى صَخْرَةٍ يَصِيحُ فِي النَّاسِ:
«أَمِنْ الْجَنَّةِ تَفْرُونَ؟».

وَأَذُنُهُ مَقْطُوعَةٌ تَتَذَبَذَبُ مَرْتَجَّةٌ عَلَى خَدِّهِ!

لَقَدْ عَبَرَ الْإِسْلَامُ إِلَيْنَا عَلَى أَشْلَائِهِمْ، كَانُوا قَرَابِينَ الزَّحْفِ الْمُبَارِكِ، كَانُوا قِبَابَ الْفِدَى!

يَمْضِي عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ بِعَرْجَتِهِ إِلَى أَحَدٍ، وَهُوَ يَقُولُ مُتَوَسِّلًا لِرَسُولِ اللَّهِ:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَرُدَّنِي!».

وَنَحْنُ تُحَاصِرُنَا الْأَحْزَابُ، لِأَنَّ الْعَرَجَ امْتَدَّ مِنَ الْأَقْدَامِ إِلَى الْأَعْمَاقِ!

يَمُوتُ سَعْدٌ وَهُوَ يُوصِي:

«لَا عَذْرَ لَكُمْ إِنْ خَلَصَ إِلَى نَبِيِّكُمْ وَفِيكُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ!».

وَلَا خِلَاصَ لِأُمَّةٍ يُصَلِّبُ دِينَ نَبِيِّهَا، وَهِيَ مَشْغُولَةٌ بِعَجَلِ السَّامِرِيِّ وَبَرِيقِ الذَّهَبِ!

كَانَ التَّلْمِيزُ يَرْحَلُ إِلَى الْعَالِمِ فَيُنْفِقُ فِي الرِّحْلَةِ أَلْفَ دِينَارٍ، كَيْ يَجْمَعَ لَنَا الْحَدِيثَ وَالْعِلْمَ.

وَرَبَّمَا رَحَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى عَالِمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، فَأَنْفَقَ جُلَّ مَالِهِ، وَيَرَى أَنَّ كَفَّهُ مَلَأَى بِالْإِنْعِتَاقِ مِنْ دُنْيَا الزَّيْفِ!

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ هَزَلُوا خَارِجَ الْأَرْضِ، وَاعْتَنَقُوا الْمَقَامَاتِ الْعُلَى!

يَرَى وَالِدُ الْعَالِمِ الْمُفَسِّرِ الطَّبْرِيِّ فِي الْمَنَامِ، أَنَّ ابْنَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ سَلَّةٌ مَمْلُوءَةٌ حِجَارَةً، وَهُوَ يَرْمِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: «يَكْبُرُ ابْنُكَ وَيَذُبُّ عَنْ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ».

فَعَاهَدَ اللَّهُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى الْعِلْمِ، فَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مَالَهُ، فَكَتَبَ لَنَا الطَّبْرِيُّ فِي الْعِلْمِ، مَا تَعَجَّزُ عَنْهُ مُؤَسَّسَاتُ كَامِلَةٌ، وَتَرَكَ الزَّوْاجَ لِلَّهِ، حَتَّى حَازَ مَقَامَ الْإِمَامَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ!



هؤلاء قومٌ حطّموا قُيُودَهُمْ، وصَلُّوا صَلَاةَ الثَّبَاتِ فِي اتِّجَاهِ البوصلة.
فِي اتِّجَاهِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، حَيْثُ يَعْكِفُ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي كَانَ فِي خَطْوِهِ فَعْلُ
أُمَّةٍ!

تُفْتَحُ الْأُنْدَلُسُ فِي رَمَضَانَ، وَتَزْهَوُ بِهَا الْحَيَاةُ.
وَيُسَجَّلُ التَّارِيخُ أَنَّ فِي حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ قُرْطَبَةَ كَانَ تِعْدَادُ الْعَالِمَاتِ مِائَةً
وَسَبْعِينَ عَالِمَةً، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ أُمَّةٌ تَسْعَى لِكِتَابَةِ الْقِيَادَةِ وَالنَّصْرِ أَقْدَارًا!
يُبْنَى فِي الْأُنْدَلُسِ جَامِعُ قُرْطَبَةَ، الَّذِي كَانَ جَامِعَةً فِيهِ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ
مَخْطُوطَةٍ، وَتَخَرَّجَ مِنْ حُلُقَاتِهِ أَعْظَمُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِيهِ تُدْرَسُ كُلُّ الْعُلُومِ.
وَكَانَ فِي قُرْطَبَةَ وَحدهَا ثَمَانُ مِائَةِ مَعْهَدٍ لِلتَّعْلِيمِ الْمَجَانِيِّ، يَعْكِفُ فِيهَا
عَلَى الْمَحَابِرِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ طَالِبٍ، يَفْرُونَ مِنْ أَقْدَارِ الْجَهْلِ إِلَى أَقْدَارِ
الْعِلْمِ، وَمِنْ ذَيْلِ الْقَافِلَةِ إِلَى الْمَقْدَمَةِ.

وَمَنْ أَدْرَكَتْهُ كَرَامَةُ اللَّهِ، بَلَغَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ..
فَلَيْتَ السَّعْيِ يَصْبُ فِي ذَاكَ الْمَحَلِّ.
وَلَيْتَ الْقَلْبَ يَفْهَمُ، كَيْفَ يَكُونُ الْقَرَبُ.
وَلَيْتَ الْكُلَّ مِنَ الْعَمْرِ، لَا يَكُونُ نَقْصًا وَفَقْرًا!

فَاجْعَلْ عَمْرَكَ غِيَمَةً، مَلَأَى فِي الْحُلِّ وَالتَّرْحَالِ..
وَقَدْ قَالَهَا أَحَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ:

«اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ قَاعِدٍ فِي بَيْتِهِ أَيْنَمَا كَانَ، فَلَيْسَ خَالِيًا فِي هَذَا الزَّمَانِ عَنْ مَنْكَرٍ
مِنْ حَيْثُ التَّقَاعِدُ عَنْ إِرْشَادٍ!»

وَاحْذَرِ قَوْلَ السَّلَفِ:

«قلما رأيتُ ساكتًا عن الحقِّ وقت معافاته، إلَّا وجدته ناطقًا بالباطل حين ابتلائه»!

فقل:

سأحمل نفسي على خطَّة، فإمَّا لها ولن تكون لغيرها!

وانظر إلى عليٍّ، يقاد له شرف: «لأعطينَ الرّايةَ غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله»، وقد كان المرض يهدُّه!

فلا تعجز في غربة الإسلام، أن ترفع لله راية.
وما يكون موت المقبولين، إلَّا في الميادين.
فلا تفقدك شهادة الخواتيم!



الخطوة التاسعة والعشرون

اعرف مهمتك في مُعترك
التَّغيير



﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾.

أربعة أوامر..

تَلُوْخُ لَكَ مُجْتَمَعَةٍ، تَلُوْخُ لَكَ وَهِيَ تُحَدِّقُ إِلَى مَهْمَّتِكَ!

أربعة أوامر..

هِيَ عَنَاوِينَ الْعَنَاوِينَ!

أربعة أوامر..

لَا فَجِيعَةٌ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ لَوْ جَعَلْنَاهَا ﴿مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾!

أربعة أوامر..

يُعِيدُ الْقُرْآنُ بِهَا تَرْتِيبَ الْمَفَاهِيمِ، وَيَجْعَلُهَا قِلَادَةً وَاحِدَةً، فَيُوَاطِئُ فِيهَا بَيْنَ حَرَكَةِ الصَّلَاةِ وَبَيْنَ حَرَكَةِ الْإِصْلَاحِ بِوَاوِ الْعَطْفِ، لِتَتَضَحَّ الْمَعَانِي الْخَافِيَةُ.

وَيُصْبِحُ النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ نَبْضِ الصَّلَاةِ!

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

لِمَاذَا، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ هُوَ بَصِيرَةُ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَثْقَالَ الْمَوَاجِعِ عَنِ الْأُمَّةِ، حَتَّى لَا تَزِيدَ!

هُوَ قُوَّةُ الْوَلَادَةِ لِلنُّورِ لَنَا..

هُوَ اسْتِحَالَةُ الْعَمَى عَلَى مُجْتَمَعٍ نَاضِجٍ.

إِنَّ الْمُجْتَمَعَ الْوَاعِي، مُجْتَمَعٌ لَا غَمُوضَ لِلرَّايَاتِ فِيهِ!

ولذا، كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ مَعْنَاهُ، نَفَى الْإِلْتِبَاسَ عَنِ السُّلُوكِ، وَنَفَى
الضَّبَابِيَّةَ فِينَا عَنِ الْأَعْيُنِ!

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ترى ما الرِّابِطُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؟!
انْتَبِهْ، وَتَعَالَ مَعِيَ نَلْمُ أَطْرَافَ الْمَعْنَى عَلَى سَجَادَةِ الصَّلَاةِ.
إِنَّ الْآيَةَ تُخْبِرُكَ، أَنَّ سَلْبِيَّةَ الْإِنْسِحَابِ مِنْ مُعْتَرِكِ التَّغْيِيرِ، هِيَ نَوْعٌ مِنَ
الْفَرَاغِ الَّذِي سَيَتَكَثَّرُ فِيهِ الْمُنْكَرُ.
وَكُلُّ مُحْرَابٍ خَالٍ مِنْ قَشْعِرِيرَةِ التَّغْيِيرِ، خَالٍ مِنْ مَلَامِحٍ تَمَعَّرَتْ غَضَبًا
لِلَّهِ..

هُوَ مُحْرَابٌ خَالٍ مِنْ مَعْنَى الصَّلَاةِ، مُحْرَابٌ صَامِتٌ عَنِ الْمُنْكَرِ!
وَكُلُّ صَامِتٍ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، هُوَ مُتَّكٍ لِلْمُنْكَرِ..
هُوَ حَشْدٌ خَلْفِيٌّ، يَدْعُمُ تَوَغُّلَ السَّوَادِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي أَوْ لَا يَدْرِي!

﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾..
لَأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يُعْطُونَ الثَّقُوبَ، يَخُونُونَ السَّفِينَةَ.
وَالَّذِينَ يُشِيرُونَ لِلثَّقُوبِ، يَحْنُونَ عَلَى أَضْلَاعِ السَّفِينَةِ، يَحْنُونَ عَلَيْنَا حَتَّى
لَا يُفْصَحُ النَّهَارُ فَجَاءَ عَنْ غَرَقِنَا!
وهيهات حينها هيهات..

إِنَّ كُلَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَغْمِسُونَ أَقْلَامَهُمْ فِي حَبْرِ التَّيِّهِ، كَيْ يَكْتُبُوا لَنَا مَعَانِي
فَاسِدَةً!

كُلُّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَسْكُبُونَ الضُّوءَ مِنْ قَنَادِيلِنَا..
كُلُّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَكْسِرُونَ الْمَرَايَا لِلْجِيلِ، كَيْ يَظْلَلَ بَاحِثًا عَنْ وَجْهِهِ، يَسْتَحِيلُ
أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُمْ إِلَّا الْمُنْكَرُ!

لِذَا لَا بَدَّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، فَفِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، تَسْتَبِينُ الْمَسَافَةُ
بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ، فَلَا يَخْتَلِطُ الْمِلْحُ فِي حُلُوقِنَا، فِي عُبُورِنَا، فِي أَعْيُنِنَا فَلَا
نُبْصِرُ!

ثُمَّ لِمَاذَا نَصَمْتُ، وَكُلُّ صَمِتٍ هُوَ مَزِيدٌ مِنَ الْهَزَائِمِ، تَتْرَاكُمُ فِي عَمَقِنَا فَلَا نَبْقَى خَفَافًا فِي تَصَاعِدِنَا، وَلَا تَعْشِبُ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِنَا!
 إِنَّ الْهَدَنَةَ مَعَ الْمُنْكَرِ، هِيَ السَّطْرُ الْأَوَّلُ فِي حِكَايَةِ الذُّبُولِ دَوْمًا.
 قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَنَنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ»!
 حَتَّى تَرَى السَّمَوْتَ فَائْضًا فِيكُمْ عَنِ النُّعُوشِ.
 حَتَّى تَرَى الْخَوْفَ فِي ذِبَالَةِ قَنَادِيلِ الْبُيُوتِ.
 ثُمَّ مَاذَا، «ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»!
 فَقَدْ كَانَ شَعُورُكُمْ صَامِتًا حِينَ انْهَارَتْ السُّدُودُ، كُنْتُمْ بَلَا لُغَةٍ صَارِخَةٌ حِينَ
 بَدَأَتْ الشُّرُوحُ، فَأَنْتَى يُسْتَجَابُ لَكُمْ!
 وَقَدْ قَالَهَا السَّلَفُ:

«إِنْ مِنْ غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ ﷻ، بِأَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُهُ،
 فَتَجَاوِزَهُ، لَا تَأْمُرْ فِيهِ وَلَا تَنْهَ، خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا»!
 تَتَوَجَّسُ مِنَ الْقَوْمِ، فَتَضْمَتُ، ذَاكَ صَمِتٌ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالسَّمَوَاتِ!

إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَنْبَشَ الْمَسْتُورَ مِنَ الذُّنُوبِ، لَكِنْ انْتَبِهْ، إِنَّ كُلَّ مَنْ
 يَنْحِنِي إِلَى حَدِّ الْإِنْكَسَارِ لِلْفِتْنَةِ.. لِلشَّهْوَةِ، لِلخَطِيئَةِ..
 لَا يَهْجُرُهَا، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُكَ فِيهَا رَفِيقًا!
 ثَقُ..

أَنَّهُ خَلَفَ كُلُّ مُنْكَرٍ رَغْبَةً خَفِيَّةً، أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فِي الْمَوْقِفِ السُّفْلِيِّ!
 وَثَقُ..

أَنْ فَقَدَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ فِي صَوْتِكَ، هُوَ بَدَايَةُ انْحِدَارِكَ إِلَى مَقَامِ الْبُعْدِ!
 قَالَ حُذِيفَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:

«إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَصِيرُ مُنَافِقًا، وَإِنِّي
 لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ»!

فيا للحَقِيقَة ما أَقساها، ويا لحذيفة بن اليمان لو يرى كيف يبدو غِياب
المعروف في قاموسنا..

في كَلِماتنا، في ضلال التَّعابِير، في تيه الجُمْل.
في نفاقٍ يَتَسَلَّل إلى الحُرُوف، في مُفرداتنا، حتَّى كأنَّها مفردات يَفنى
الإيمان بها، وتَفْضَح منَّا الدَّواخل!
وحَتَّى كأنَّ الصَّوْت فينا قد اغتَرَبَ عن الله!
لذا، قالها السَّلف:

«لَتَأْمُرَنَّ بالمعروف، وَلَتَنْهَنَنَّ عن المنكر، ولتَحَاضُنَّ على الخير، أو
لُيَسْجِتَنَّكُمُ الله بعذاب جميعًا، أو لَيُؤْمَرَنَّ عليكم شراركم، ثمَّ يدعو خياركم
فلا يُسْتَجاب لَهُمْ!»!

ويا لغيايَة الجُبِّ حينها، إذ تكبُرُ عتمته فينا.
يا للجراح تَبْلُو منَّا السَّرائِر.

ويا للصَّمْت عن المُنْكَر، إذ يجعل الدُّعاء منا سدى!
وما أَقساهُ من مَشْهد، يوم تَفْقَدُ أصوات الدُّعاء سَماها!
نحنُ نعتقُ الدُّعاء من القُيُود، بصوت الأَمْر بالمَعْرُوف!
نحنُ نرقى إلى استحقاق الإجابة، إذا دَفَعنا الضَّرِيبَة!
لذا..

قال لك القرآن: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾!
وبذلك أوصى بعض السَّلف بنيه فقال:

«إن أَرَادَ أَحَدُكُمْ أن يَأْمُرَ بالمعروف، فَلْيُوطِّنْ نَفْسَه على الصَّبْرِ، وليَتَّقِ
بِالثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ وَثَّقَ بِالثَّوَابِ، لَمْ يَجِدْ مَسَّ الْأَذَى»!
ولَقَدْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُ أَكْثَرَهُمْ مِنْ بَأْسِ الظَّالِمِينَ، بِبِرْكَةِ إِخْلَاصِهِمْ،
وَحُسْنِ مَقْصَدِهِمْ..

وابْتَغَائِهِمْ بِكَلَامِهِمْ وَجَهَ اللَّهُ تَعَالَى!



«وفي كلام بليغ عن الطَّاقة الحيويَّة الَّتِي كان يتمتَّع بها مسلم الحضارة في الدَّعوة إلى الله..
يقول توماس آرنولد:

في صفحات التَّاريخ إذا اجتمع في مدينة سِتَّة رجال من المسلمين وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن، سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدَّعوة..

وكأنَّ سِتَّة فقط أو أقل تكفي لرسم معالم الحياة ونشر الهداية في مكان ورث كلُّ أشكال الجاهلية القديمة، وفي معنى ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، دلالات عظيمة على حجم الطاقة التي منحها الله للمسلم لو أنَّه يحسن استغلالها».

فاعرف خطر مهمتك
إنَّهُم يريدون لك، أن تحيا بتوقييت الصَّمْت..
بتوقيت العَدَم!

لذا..
لا تأذَن لأحد باحتِلالك.
لا تأذَن لأحد باحتِلالك.
ولا تجعل مَطالع عُمرِكَ غُروبًا.
غادر الدُّنيا، وأنت في قِمَّة السَّعي.
ولا تَكُن مَمَّن ينسدلُ عليهم السُّتار!

اصعدْ إلى هامِ السَّماكِ.
واغرسْ عليه رايَتَكَ.
فإذا وصَلْتَ إلى هُناك، كتبَ الكمالُ بدايَتَكَ!

ازرع الفردوس في كلماتك..

في خطواتك، في نيّاتك، وفي كلّ جُرحٍ مثقوب، اغرس سُنبلَة!

وافهم المعنى في ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعٍ﴾ الوعد، تتساقط معاويلهم!

وإذا تعكّر الماء، فاحتضن دُلُوك، الموتُ ظمًا، خيرٌ لك من حياة يراة لك
فيها سُقيا الأكدار!



الخطوة الثلاثون

اصنع أوتادك، وارتح الثبات



أَوَّلُ التَّمَكِينِ، جَذْرُ يَشْتَدُّ.

وآخر التَّمَكِينِ، رائحة القَبُولِ، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم أهل القرآن.

وما بينهما، عَسَى أَلَّا ﴿تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾!

وَكُلُّ خِيَمَةٍ تَأْمَنُ الرِّيحَ وما لها حِبالٌ واثقة، فمألٌ نسيجها رِقَاعٌ مُمزقة!

وبعضُ الأوتاد، هَشَّةٌ لا تَنْفِذُ.

فَنَبَّتُ أَوْتادَكَ بِالْقُرْآنِ، فهو مُفْتَتَحُ الْمُنَى.

فإِنَّ «القرآنَ ربَّيعَكَ إِنْ أَجْدَبْتَ، ونورك إِنْ أَظْلَمْتَ، وَيُسْرَكَ إِنْ تَعَسَّرتَ»!

والهَارِبُونَ إليه من تِيهِ الْفَوْضَى وفَرَطِ الْأَذَى، بَلَّغُوا الْمَأْمَنَ.

وَمَدَى بَرَكَّتِهِ، (مِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْخَيَالِ)!

وقد قال السَّلَفُ بَأَنَّ: «أَبْقَى النَّاسَ عَقُولًا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ».

وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ مُتَّعٌ بِعَقْلِهِ.

فَقِفْ فِي مِحْرَابِ عَمْرِكَ، وَاثِلْ مَا تَيْسَّرُ، ﴿ثُمَّ اتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، تَرْوِيكَ بِرَكَتِهِ،

فإِذَا عُمِرَكَ فَوْقَ الزَّمَنِ!

و«مَتَى أَزْهَرَ الْقَلْبَ بِالْقُرْآنِ، رَاقٍ لِلَّهِ رَوَاحِهِ، وَلاَحٌ بِاللَّهِ فَلَاحِهِ».

قال إبراهيم المقدسي لرجل: «أَكْثَرُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَلَا تَتْرَكَهُ، فَإِنَّهُ يَتَيْسَّرُ

لَكَ الَّذِي تَطْلُبُهُ عَلَى قَدَرِ مَا تَقْرَأُ»!

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾.

ولا شيء يَبْلُغُ الْعَرْشَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْقُرْآنِ.
يَنْبُتُ الزَّنْبُقُ فِي صَوْتِ الْقَارِي، ثُمَّ نَرَاهُ جَنَّانَ الْخُلْدِ.
يَسْهَرُ الْغَيْثُ عَلَى الزَّرْعِ، حَتَّى يَمُوجَ بِهِ الْمَدَى، وَيُنَادِي عَلَى صَاحِبِهِ فِي
الْجَنَّةِ، ذَاكَ مَا عَلَيْهِ عَكُفَتْ!

لَقَدْ كَانَ أَحَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يُكْرِّرُ الْفَاتِحَةَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى شُرُوقِ الشَّمْسِ.
يَفْتَحُ بِهَا خَزَائِنَ الْعَطَايَا، وَيَقِفُ بِهَا عَلَى كُلِّ مَشَاهِدِ الْفَتْحِ!
وَكَانَ يُرَابِطُ عَلَى عَشِقِهَا، رَجُلٌ بَلَغَ عَيْشَ الْقُرْآنِ!

فإن قلت: كيف أنال نور القرآن وفتحه؟

أجابه القرآن، أَلَمْ تَسْمَعْهُ يَقُولُ: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾!
إِنَّ مِنْ اكْتَمَلَ فِي الْجَوْهَرِ، أَمْطَرَتْ عَلَيْهِ سَحَابُ الْمِنْنِ!
فإن رأيت في قلبك لهفة الوصلِ، فإليك خيط النورِ.
انْهَجْ طَرِيقَ السَّلَفِ.

اسْمَعْ وَصِيَّتَهُمْ، يُوجِزُهَا لَكَ أَحَدُهُمْ فِي قَوْلِهِ: «تَكَبَّدْتُ الْقُرْآنَ عَشْرِينَ عَامًا،
وَتَنَعَّمْتُ بِهِ عَشْرِينَ عَامًا»!

لَقَدْ جَاهَدُوا بِالْقُرْآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

لَقَدْ أَعْلَنُواهَا، أَنَّ الْقُرْآنَ رَسَائِلُ أَتَتْنَا مِنْ رَبِّنَا، لَنَقْفَ عَلَيْهَا فِي الْخَلَوَاتِ!
لِنَخْلُقَ فِيْنَا مَوَاسِمَ خَضْرَاءَ.

لِنُولِدَ بِهَا أُمَّةً، كَانَتْ تَحْيَا فِي شَوْكِ الزُّقُومِ.

لِنُطَلِّقَ رُوحَ أُمَّةٍ إِلَى أَعْرَاسِ التَّارِيخِ!

«رَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَسْأَلُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَا حَهُ، فَيَقُولُ لَهُ
ابْنُ عَبَّاسٍ: اكْتُبْ، قَالَ: حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ».

فَكَانَ أَنْ تُوَفَّاهُ اللَّهَ سَاجِدًا، وَأَتَى لِمَنْ لَمْ يَدْرِكْ أَنْ يَدْرِكَ مَا لَا يُدْرِكُ إِلَّا فِي
أَعَالِي الْخَيَالِ!

وَإِذَا ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ عَمِيَّةً عَنِ الْفِتَنِ أَعَيْنَهُمْ..

بطيئة عن الخطايا أقدامهم، منتنية أصلابهم بمثاني القرآن، ينثرون في الفردوس بذور سعيهم.

لَمَّا مَاتَ أَبُو جَعْفَرٍ الْقَارِيُّ، رُئِيَ فِي صَدْرِهِ فَقْطُ دُونَ جَسَدِهِ غُرَّةٌ بِيضَاءُ، مِثْلُ اللَّبَنِ، وَكَانَ ذَلِكَ نَوْرَ الْقُرْآنِ.
وَكَانَ يُقَالُ فِيهِ: «رَجُلٌ خَالَطَ الْقُرْآنَ لِحَمِّهِ وَدَمِّهِ، رَجُلٌ أَضَاءَ صُبْحُ الْقُرْآنِ عَلَى صَدْرِهِ»!

فَلَمَّا كُفِّنَ انْتَقَلَتِ الْغُرَّةُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَرَامَةً لِلْقُرْآنِ الَّذِي امْتَزَجَ بِهِ!
بِالْقُرْآنِ لَنْ يُدْرِكَكَ اللَّيْلُ، إِنْ سَكَبْتَ نَوْرَهُ فِي قَلْبِكَ!
اغْمُرْ رَوْحَكَ فِيهِ، اغْمِسْهَا فِي فَيْضِهِ!

وتعلم كيف قرؤوا القرآن

انظر إلى فقه السلف مع القرآن، إذ يقول أحدهم: «إِنِّي لَأَتْلُو الْآيَةَ فَأَقِيمُ فِيهَا أَرْبَعَ لَيَالٍ..

إِقَامَةً مَنْ يَدْرِكُ، أَنَّهُ بِالْقُرْآنِ يَحْرُسُ زَحْفُهُ نَحْوَ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى».
يقول أحدهم: «إِنِّي لِأَعِيدُ الْآيَةَ إِنْ تَلَوْتُهَا غَافِلًا، خَشْيَةً أَنْ يُكْتَبَ أَجْرُهَا لِي مَنقُوصًا»!

ويقول آخر: «آيَةٌ لَا أَتَفَهَّمُهَا، وَلَا يَكُونُ قَلْبِي فِيهَا، لَا أَعِدُّ لَهَا ثَوَابًا»!
يا الله!

هَلْ كَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَارِجِ الزَّمَنِ الْبَشَرِيِّ!
أَمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مَقِيمِينَ عَلَى عِشْقِ الْأَجُورِ، فَاسْتَنَارَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْهُمْ، فَأَبْصَرُوا كَيْفَ يَكُونُ إِلَى اللَّهِ الْمَسِيرُ!

كَانَ (نَافِعُ) إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، يُشَمُّ مِنْ فَمِهِ رَائِحَةَ الْمَسْكِ.
فَسُئِلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:

«إِنِّي مَا أَمْسُ طَيِّبًا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ يَقْرَأُ فِي فَمِي، فَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَشَمُّ الْمِسْكِ».

كَأَنَّ الْقُرْآنَ بُسْتَانٌ عَصَرَ كُلَّ عِطْرِهِ فِيهِ!
تَعَلَّمُ..

كَيْفَ تَتْلُو الْقُرْآنَ بِمَزَامِيرِ رُوحِكَ، لِأَمْسٍ بِهِ مِنْكَ الْقَعْرُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ يَتَفَجَّرَ مِنْهُ النَّهْرُ!

مَا بَيْنَ الْبَدَايَةِ بِالْقُرْآنِ وَالْخِتَامِ فِي دَرَجَاتِ الْقُرْبِ، أَنْ تُتَقَنَ عَيْشَ الْخُلُوءِ بِالْقُرْآنِ.

لَا هَذَا الْأَلْسُنُ بِالْقُرْآنِ!

واعرض نفسك عليه

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ.

تَضَلَّعَ مِنْهُ، حَتَّى تَمْتَلِئَ، ثُمَّ تَنْبَهْ كَيْفَ تَقْرُوهُ وَيَقْرُوكَ!
رَتَّلِ الْقُرْآنَ عَلَى رُوحِكَ الْمُتَنَبِّئَةِ، فَهِيَ عَاطِشَى لَصَوْتِ الشُّفَاءِ!
أَحْيِ فِيكَ أَلْفَ ابْتِهَالٍ، وَدَعْ أَعْيُنَكَ تَنْهَمِلُ.

مُدَّ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ، حَتَّى كَأَنَّهُ مَشْبُوبٌ بِالشَّوْقِ وَالْجَذَلِ!
تَأَوَّهْ مَعَ كُلِّ غَنَّةٍ فِي تَرَاتِيلِكَ، حَتَّى كَأَنَّكَ الْبَاكِي مِنَ الْوَجَلِ!
تَرَى الْقُرْآنَ فِي كُلِّ تَرْتِيلٍ يَرُدُّكَ عَلَيْكَ.

وَتَجْمَعُكَ الْآيَاتُ، غِيْمَةٌ غِيْمَةٌ.

ثُمَّ تَرَى قَلْبَكَ يَجْهَشُ بِالْبُكَاءِ!

حِينَهَا إِذَا اسْتَبَاحَتِكَ دَمْعَةٌ مَرْوِيَّةٌ بِمَا ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، فَتَوْضَأُ بِهَا، فَتَلْكُ أَعْلَى الطَّهَّارَةِ!

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَاضِيْنَ فِي تَلَاوِثِهِمْ وَحُلُوقِهِمْ مُتْرَعَةٌ بِغَصَّةِ الدَّمْعِ، سَتَنْطُقُ لَهُمْ صَحَائِفُهُمْ!

لِذَا قَالَ السَّلَفُ: إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ..



«فاعْرِضْ نفسك على كتاب الله، فَإِنَّكَ تعلم ما لك عند الله»!
 تلك صُحبة أُولها نِجاة، يليها التَّوْفِيق والسَّداد، ثُمَّ تنهمر البرِّكة، ثم ترى
 معنى: (أن تكون من أهل الله).
 وقد قال الحافظ ابن حجر: «المقصود من تلاوة القرآن العمل بما دلَّ عليه،
 وإن القراءة بالتدبُّر أعظم أَجْرًا».

اسأل روحك

كم آية، اغترفتَ منها ماء اليقين..
 وأُخرى، نجوتَ بها..
 وثالثة، جنَّ صوت الشهوة فيكَ فأوقفتَ ما همَّ فيكَ..
 ورابعة، جعلتُ من عمرك نصًّا بلا زَلَّات.
 وتلك التي أبصرتَ بها، وقد كنتَ تجتُرُ الخطي من فَرط العمى!
 كم مرة قلت: اهْدِنِي سَوَاء السَّبِيل، وخريطة السَّراب بين يديك!
 وكم ذا فقدتَ نفسك في غِيابة الجُبِّ فتدعو الله غوثًا، كأنَّكَ يوسف
 المرحلة.

وتتلو في صلاتك ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، فتناديه:
 أعوذُ بك أن يطحنَ رَحَى الخذلان سَعِيي!

انثُر ترتيلك في روحك

ولا تطوِ الحروف طيًّا، بل انثُر معانيها بذورًا في حقول سَعِيك!
 قال الأجرِيُّ:

«والمؤمن العاقل إذا تلا القرآن، استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها
 ما حَسُن من فعله وما قُبِحَ فيه»!

حاشى لقلبٍ ذاك شأنه أن ينال منه تلبيس إبليس.

فاغزلُ من الآيات قلبًا لا يزيغُ ولا يتيه!

أنت بالقرآن لا حاجة لك لجبل يعصمك من الطوفان!

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وعلامه حبُّ الله، حُبُّ فهم القرآن..

فإن رآك الله على كتابه مُقبلاً، عليك أقبلاً.

حتى ترى القرآن يتنزَّل عليك، ويُفتح المعنى إليك!

فما أصبَتْ من الفهم بما رميت.

ولكنَّ الله في قلبك رمى!

حينها تنتهي المسافة للمعنى، إن فتحت في فؤادك، قبل أن تفتحه بيدك!

ولقد ألمح ابن جرير الطبريُّ لذلك فقال:

«إنِّي لأعجب ممَّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذُّ به؟».

وقال أحد السلف الصالح:

«... فإنَّ قراءة القرآن بالتدبُّر تُعطي العبد قوَّة في قلبه، وحياةً، وسعةً،

وانشراحًا، فيصير في شأن والنَّاس في شأنٍ آخر».

فاعبر إلى دهشة المعنى..

واعلم..

أنَّ الجهل بأسرار السُّطور، يُقصي عن القرب ويمنع.

فلا تكن نائيًا، بل اجعل خلوتك به مواقيت من الحب!

وقد وُفق ابن الحواريُّ يوم قال:

«إنِّي لأقرأ القرآن، فأنظر فيه آيةَ آية، فيحارُّ عقلي فيها، وأعجَب من

حفاظ القرآن، كيف يُهنيهم النوم، ويسیغهم أن يشتغلوا بشيء من الدُّنيا

وهم يتكلَّمون كلام الرَّحمن؟! أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذَّذوا به،

واستحلَّوا المناجاة به، لذهب عنهم النُّوم فرحًا بما رزقوا ووفَّقوا!»!

وقال رجل لابن المبارك -رحمه الله-: «قرأت البارحة القرآن في ركعة،

فقال: لكنِّي أعرف رجلًا لم يزل البارحة يقرأ ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى الصُّبح،

ما قدر أن يجاوزها» يعني: نفسه رحمه الله.

ولو أعجزك الفهم، وظلَّ عقلك بين مدٍّ وجَزر، فاستعنْ ببطون كتب التفسير.

فإنَّ للمعاني نورًا، وحجابها الجهل!
أولئك هم العاكفون على فهمه، المُبرِّؤون من قوله: «ما جاوزَ تراقيهم»!
هذا كتابٌ قليله بالتدبُّر، جمٌّ.
وكثيره دون فهم، هذٌّ.

فإيَّاك أن تقرأ روحك الآية.. وهي تَلحن.
ويقرؤها عقلك، ويلحن.
ويقرؤها سعيك، ويلحن!
وإنَّ أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن ولم أُسقط منه حرفًا، وقد والله أسقطه كلُّه.

لا يرى القرآن في خلقه ولا عمله!
وينسى أنَّ صفراء فاقع لونها قد استقامت على لسانه ولكنها استقرَّت في فؤاده!
وما أكثر الأحران الدَّفينة حينها.
وقد قال لك الله تعالى:
﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

استوِ على جوديِّ مراميه، يُنزلك الله به منزلًا مُباركًا.
و«أعطِ القرآن لبًّا وقتك، لترى ما رآه الصَّالحون».
اشدد وتدك به، وما يكون ذلك إلَّا أن تعكِف على أسرارهِ حتَّى تنبضَ به،
تتلوه آناء الليل فتجذبك آهٌ تجري بها عيناك.
إذ بعض ألفاظه والله، كادتُ أن تكون دُموعًا!
﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يَا هَذَا..

إِنَّ للقرآن فُتُوحة، إذا نويت به الهداية.

فاشدد به ثباتك، أما تدري أنه إذا صار اللَّيْلُ بلون صوتك بالترتيل مَسْكُونًا، هَيَّئْتُ لك المعارج.

فأله مَنْ قال لك: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾!

فألقِ سمعك، واخلع روحك المُنْتَعَبَة.

واشدد بالقرآن وتذك، ولو ارتعد قلبك من معانيه خوفًا، فقد عَرَّتْه أحزان الفهم، فلا تجزع!

تلك إشارة الذكرى، ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾!

ها أنت تفيض به، تتهجّد في أسرار الآيات، فتسمع خُطى أعتقت نِيَّاتِها، فاتَّقَدْتَ خُلُودًا!

ترى غياب الآفلين، فتخشى أن تكون زَبَدًا.

وتخشى جَمَرِ الفتنة، وهي ﴿تَرْمِي بِشَرِّ﴾!

تسمع صوت الخطايا، إذ تسير في نعوشنا.

وترى فوق الثرى، كيف اغتال التولّي عن الزّحف يوم أحد فينا.

فتهرع إلى الله تصيح:

اللَّهُمَّ إنما نحنُ بك، فلا تقطعنا عنك!

واذكر أن من تذوّق بركة استفتاح العُمر بالقرآن، عزّ عليه أن يخوض في غمار الحياة ومشاغلها دون أن يبدأ به.

فأحسن استفتاحك!

ثم هيئ محلّ التّجَلّي للفهم، «فكما لا يصلح لِمَسِّ جِلْدِ المصحفِ كلُّ يدٍ،

فلا يصلح لِئِيلِ مَعَانِيهِ كلُّ قلبٍ».

فتطهر، فإنّه ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾!



القرآن بركة العمر والله ما دون القرآن من غنى، ولا بعده من فاقة.

لقد شاءك الله بالقرآنِ عُوْدَ الطَّيِّبِ.

فلا تكنْ دونه حطْبًا!

فقل:

اللَّهُمَّ حُبِّ الْقُرْآنِ، وَفَضْلَ الْقُرْآنِ، وَنُورَ الْقُرْآنِ، وَسَكِينَةَ الْقُرْآنِ، وَشِفَاءَ الْقُرْآنِ، وَبِرْكَتِهِ الْقُرْآنِ، وَرَحْمَةَ الْقُرْآنِ، وَهَدْيَ الْقُرْآنِ، وَعِلْمَ الْقُرْآنِ، وَفَهْمَ الْقُرْآنِ، وَرَفْعَةَ الْقُرْآنِ، وَأَدَبَ الْقُرْآنِ، وَغِنَى الْقُرْآنِ، وَنَجَاةَ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ.

اللَّهُمَّ أَحْيِنَا عَلَى الْقُرْآنِ، وَتَوَفَّنَا عَلَى الْقُرْآنِ، وَابْعَثْنَا عَلَى الْقُرْآنِ، وَشَفِّعْ بِنَا الْقُرْآنِ، وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ بِالْقُرْآنِ.



الخطوة الحادية والثلاثون

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ
عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾



القيامَ واحةُ النُّورِ، وصمتُ السَّكينةِ، وهَمْسُ المَلائكةِ..

تَرِفُ الأجنحةُ، فينتثرُ النُّورُ، يتدفَّقُ فينا، فنشعرُ بأنفسنا خفافاً

ومُشتاقين!

استغْرِقْ في العبادةِ، حتَّى تسمعَ يقظةَ قلبِكَ.

حتَّى تذوقَ لَذَّةَ الحديثِ مع ربِّكَ، حتى تودَّ، لو أنَّكَ لا ترفعُ رأسَكَ مِنْ

السُّجودِ أبداً.

ذاكَ حالٌ، تنهمرُ له دُموعُ المحبِّينَ، فقد اختبروه!

اسمَعْ للسَّلَفِ وهُم يقولون: «لَذَّةُ المُنَاجاةِ ليستُ مِنَ الدُّنيا، إِنَّمَا هي مِنَ

الجنَّةِ، أَظْهَرَهَا اللهُ تعالى لأوليائِهِ، لا يجدها سِوَاهُمْ».

أَغْمِضْ سَمْعَكَ عَنْ ضَوَاضِ الحَيَاةِ.

تَعَلَّمْ كَيْفَ تُمارِسُ القُرْبَ عِبرَ المُنَاجَاةِ!

لا تَكُنْ لِحَوْحاً، مِثْلَ صَبِيٍّ صَغِيرٍ قَعَدَ يَبْكِي لِأَجْلِ حَوَائِجِهِ، وَأُمُّهُ قَادِرَةٌ أَنْ

تَقْضِيَهَا!

بَلْ كُنْ مِثْلَ عَبْدٍ، يَدْرِي أَنَّ شُجُونَهُ عِنْدَ اللهِ مَعْلُومَةٌ.

فِيرْحَلْ إِلَى اللهِ بِالْحُبِّ، لِعَلِمِهِ أَنَّ جَنَانَ العِطَاءِ الإِلَهِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرُ

مَحْصِيَّةٍ وَلَا مَعْلُومَةٍ!

اجْعَلْ طَلَبَكَ، بَعْدَ ثَنَاءِ الحُبِّ، وَحَدِيثِ الوُضَلِ، وَاسْتَغْرَاقِ اللَّهْجِ بِالأَسْمَاءِ

الحَسَنَى!

فِي الخُلُوةِ..

تَنْفِلْتُ الأَحَاسِيسُ، وَتَتَبَعْتُ التَّعَابِيرُ، وَهَكَذَا هُوَ اللِّقَاءُ بِالْحَبِيبِ.

فانْقَلَبْتُ مِنْ ذَاتِكَ، وَاعْبُرْ إِلَيْهِ بِنَبْضِ الْقَلْبِ!
 انْفُضِ اللَّيْلَ عَنْ وَجْهِكَ، انْفُضْ هَالَاتِ الذُّنُوبِ عَنْ بَصِيرَتِكَ.
 رَبِّمَا تَبْدُو مُنَاجَاتَكَ، مِثْلَ قَطْرَةِ نَدَى هَائِمَةٍ.
 لَكُنَّهَا فِي الْقِيَامِ، تَتَضَاعَفُ حَتَّى تَلْتَقِطَكَ مِنَ الْجَدْبِ، وَتَسْقِيكَ النَّمَاءَ!
 تَكْبُرُ بِقَبُولِ اللَّهِ، فَإِذَا هِيَ جَارِفَةٌ!
 لَذَا، قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: «إِنِّي لِأَفْرَحُ بِاللَّيْلِ حِينَ يُقْبَلُ».
 فِيهِ فَقَطْ يُمْكِنُكَ، «مُلَامَسَةُ السَّمَاءِ بِقَلْبِكَ»!
 جَاءَ كَيْ يَنْجُو بِكَ مِنْ نَفْسِكَ.
 كَيْ يَمْنَحَكَ الْعِتَقَ مِنْ ذَاتِكَ.
 مِنْ اسْتِغْرَاقِكَ فِي ضَجِيجِ الْكُونِ.
 مِنْ نَارِ تِيهِكَ وَضِيَاعِكَ.
 مِنْ احْتِرَاقِكَ كُلَّ يَوْمٍ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ.
 الْقِيَامُ يَعْبُرُ بِكَ مُحِيطَاتٍ مِنَ الْبُعْدِ!
 فَأَعْمَارُنَا، إِنَّمَا هِيَ صَدْعُ ضَوْءٍ صَغِيرٍ بَيْنَ صَمَتَيْنِ وَعَتَمَتَيْنِ.
 وَفِي الْأَسْحَارِ، يَهْبُكُ اللَّهُ بَقَاءَ لَا غِيَابَ فِيهِ!
 أَنْتَ تَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ الْأَبَدِيَّةِ، عَلَى عَتَبَةِ الْجَنَّةِ، يَوْمَ تَجِدُ لَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ مَعَ
 اللَّهِ!

فَإِذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ، وَانْشَرَاخًا فِي صَدْرِكَ، فَاتَّهَمُ نَفْسَكَ.
 فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ!
 حَاشَاهُ أَنْ تَلْتَقِيَهُ، ثُمَّ لَا يُكْرِمُكَ!
 الذَّنْبُ هُوَ الْحِجَابُ.

هَلْ تَدْرِي، أَنَّ بَعْضَ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ:
 «يَا رَبُّ، كَمْ أَغْصِيكَ وَلَا تُعَاقِبُنِي؟».
 فَقِيلَ لَهُ: «كَمْ أَعَاقَبُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، أَلَيْسَ قَدْ حَرَمْتُكَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي!».
 وَكَانَ ذَلِكَ يَكْفِي!

الخطوة الثانية والثلاثون

ادغ فإنَّ الدُّعاء، هو عمار
الأعمار، وعمار الأحوال





تَعَلَّمْ صَلَاةَ الْاسْتِسْقَاءِ فِي رَحْلَةِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ -عز وجل-
وتَعَلَّمْ كَيْفَ تَنْهَمُرُ السَّمَاءَ بِالدُّعَاءِ عَلَيْكَ مِدْرَارًا!
تَابِعْ تَوْسُلكَ، فَمَا زَالَ السَّيْرُ فِي أَوَّلِهِ.

تب قبل الدعاء

انْفُضْ عَنْ كَاهِلِيكَ الذُّنُوبَ بِتَوِيَّةٍ نَصُوحٍ، ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ يَذُوبُ الْمِلْحُ مِنْ
أَيَامِكَ!

أَلَمْ تَسْمَعْ السَّلَفَ يُخْبِرُكَ عَنْهُ أَنَّهُ يَقُولُ: «ادْعُونِي بِلَا غَفْلَةٍ، أَسْتَجِبْ لَكُمْ
بِلَا مُهْلَةٍ»!

وَلَا يُفْسِدُ الدُّعَاءَ إِلَّا الْغَفْلَةُ!

لِذَا افْتَتَحْ دُعَاءَكَ بِحَسَنَةِ خَفِيَّةٍ، بِتَوِيَّةٍ عَمِيقَةٍ، وَادْكُرْ قَوْلَ السَّلَفِ: «مَثَلُ
الَّذِي يَدْعُو بِغَيْرِ عَمَلٍ، كَمَثَلِ الَّذِي يَرْمِي بِغَيْرِ وَتَرٍ»!

مَثَلُ الدُّعَاءِ، مَثَلُ نَهْرٍ يَصُبُّ فِي قَلْبِكَ.

جَدُولٌ صَغِيرٌ رُقْرَاقٌ يَنْسَابُ بِالطُّهْرِ فِيكَ.

فاجلس على ضفافِ ليالي الدعاء واستمع للبشرى.

الدُّعَاءُ جَاءَ كَيْ يَهْدِيكَ أَسْرَارَ الْعَطَاءِ، لَوْ تَعَلَّمْتَ كَيْفَ تَغِيبُ فِي الدُّعَاءِ!

قُلْ لِلَّهِ فِي دَعَائِكَ:

كَمْ مَرَّةً زَلَلْتُ! وَكَمْ مَرَّةً فَشَلْتُ! وَكَمْ مَرَّةً تَهْتَأُ! وَكَمْ أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى عَيْنِهِ

الَّتِي لَا تَنَامُ!

قُلْ لَهُ:

إِنَّ يَدَكَ تَرْتَجِفُ، وَعَاجِزَةٌ عَنْ نَزْعِ التُّرَابِ عَنْ بَقَايَا رُوحِكَ.
وَانْهَمِرْ لَهُ بِالذَّمْعِ، دَمْعَتُكَ تِلْكَ سَتَتْدَفُقُ كَثِيرًا وَتَمُورُ مَوْرًا، وَسَيَكُونُ
صُبْحُكَ نَظِيفًا!

قُلْ لِلَّهِ:

إِنَّ يَدَكَ عَاجِزَةٌ عَنْ بَيْعَةٍ لَيْسَ فِيهَا لِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ.

قُلْ لَهُ:

إِنَّ عُمرَكَ مَلِيٌّ بِالْهَزَائِمِ!

قُلْ لَهُ:

كَمْ مَرَّةً سَجَلْتَ تَارِيخَ مَوْتِكَ، يَوْمَ نَخَرَ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِكَ مَرَاتٍ كَثِيرَةً!
مَرَّغٌ وَجْهَكَ فِي تُرَابِ الدَّلِّ.

وقُلْ لَهُ:

نَبَذْتَنِي ذُنُوبِي فِي الْعَرَاءِ، فَأَعَزَّنِي يَا مُوَلَايَ بِطَاعَتِكَ عِزًّا لَا يَفْنَى!
إِسْأَلُهُ تَذَلُّلاً، يُعْطِكَ تَفَضُّلاً!

وَإِذْكُرْ مَقَامَ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالُوا: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنَاً وَأَهْلُنَا الضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾.

إِنَّ مَنْ يُدْمِنُ قَرَعَ الْبَابِ، يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ!

فَقِفْ عَلَى سِجَادَتِكَ، وَتَنَاوَلْ نَاصِيَةَ الْأُمْنِيَّاتِ دَانِيَةً لَكَ ظِلَالُهَا!

أَلْقِ دُعَاكَ إِنْ خِفْتَ أَمْرًا، مِثْلَ عَصَا مُوسَى ﴿تَلْقُفْ مَا يَأْفِكُونَ﴾!

أَلْقِ دُعَاكَ فِي الْأَرْضِ الْيَبَابِ، تَنْبَجِسُ لَكَ ﴿أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾!

عَلَى قَدَرٍ مَا قَدَّمْتَ فِي سَنِينَ رَحْلُنَ إِلَى اللَّهِ!

الدُّعَاءُ عَظِيمٌ، وَكُلُّ دُعَاءٍ يَتَّبِعُهُ عَمَارٌ!

هُوَ عَمَارُ الْبُيُوتِ، وَعَمَارُ الْأَيَّامِ، وَعَمَارُ الْأَحْوَالِ!

لَمِلِمِ إحْسَاسِكَ؛ رُبَّمَا كَانَ مَكْسُورًا، لَمِلِمِهِ بِالْأَدْعَاءِ!

ينتهي الغَبْشُ، ونَصَحُوا مِنْ غَيْبِيَةِ الْأَحْلَامِ، إِذِ الدُّعَاءُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ الْأَبْوَابِ
المُشْرَعَةِ لِلْأَحْزَانِ!

ما أَعَذَّبَ الدُّعَاءُ!
إِذْ يَجْعَلُ لَكَ مَعَ الْغَيْمِ الْمُمْطَرِ مِيعَادًا!
بَعْضُ الدُّعَاءِ، يَجِيذُ الصُّعُودَ إِلَى عَوَالِمِ الْإِجَابَةِ!
فَإِنْ شِئْتَ صَحْبَةَ اللَّهِ وَدُعَاءَ تَتْلُوهُ إِجَابَةً، فَاعْكِفْ عَلَى كِتَابِ (فِي صَحْبَةِ
الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى).
سَتَرَى مِنْ بَرَكَةِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى نَعِيمَ الْخَزَائِنِ كُلِّهَا.

ادع دعاء منخولاً
فَإِنْ سَأَلْتَ كَيْفَ ذَلِكَ!
قُلْتَ لَكَ، أَفْهَمَ عَنِّي مَا قَالَهُ السَّلَفُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا النَّاخِلَةَ مِنَ الدُّعَاءِ».
أَيُّ الَّتِي نَخَلَهَا الْقَلْبُ، حَتَّى كَانَتْ أَجَوَدَ مَا صَعَدَ إِلَى اللَّهِ!
إِيَّاكَ أَنْ تُرْسَلَ صَوْتُكَ مَلُوثًا!
إِيَّاكَ أَنْ تَسِيرَ إِلَى اللَّهِ حَافِيًا!
إِيَّاكَ أَنْ تُرْسَلَ دُعَاؤُكَ، مِنْ بَقَايَا مَا رَسَبَ فِيكَ مِنَ السُّمْعَةِ، أَوْ الرِّيَاءِ، أَوْ
مَاضِي الذُّنُوبِ!
لَمْلِمِ كَلِمَاتِكَ، وَأَحْسِنِ أَنْاتِهَا، وَابْعَثْ مِنْهَا مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ!

ادع دعاء الغريق
وَإِذْ كُرِّ قَوْلُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: «لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا مَنْ
دَعَا بِدُعَاءِ كَدْعَاءِ الْغَرِيقِ».
دُعَاءُ رُوحٍ تَتَلَوَّى حَوْلَهَا أَمْوَاجُ الْبَحْرِ، وَتَحْصِي لَهَا مَا بَقِيَ مِنْ زَمَنِهَا،
وَيُنْذِرُهَا الطُّوفَانُ بِالْهَلَاكِ.

رُوحٌ تَسْتَعِيثُ مِنْ أُخْمَصِ جِرَاحِهَا، وَتَهْزُ السَّمَاوَاتِ بِـ(يَا اللَّهُ)، لَا تَجْعَلْنِي
غَنِيمَةً لِلشَّيْطَانِ، لَا تَجْعَلْنِي غَنِيمَةً لِلْفَنَاءِ!

لَا تَجْعَلِ السَّعْيَ ﴿هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾!

هَلْ تَرَى نَفْسَكَ عَلَى حَافَةِ الْمَوْتِ، عَلَى حَافَةِ الضِّيَاعِ؟

عَلَى حَافَةِ الْغِيَابِ، فَتَهَرَّعْ إِلَى الدُّعَاءِ تَرْجُوهُ أَلَّا يَخْذَلَكَ!

تَرْجُوهُ أَنْ يَمُدَّ يَدَكَ بِحَبْلِ النِّجَاةِ، تَتَوَسَّلُ لَهُ أَنْ يَرْحَمَ هَشَاشَةَ أَقْدَامِكَ، فَقَدْ
شَارَفَتْ عَلَى السُّقُوطِ.

ذَاكَ هُوَ دُعَاءُ الْغَرِيقِ!

ادْعُ دُعَاءَ مَنْ يَثِقُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَةِ اللَّهِ.

فَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾!

حَتَّى مَدُّ الْأَعْمَارِ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ قَدْ يَكُونُ طُولُ الْعُمْرِ فِي عِلْمِ اللَّهِ مَشْرُوطًا
بِدُعَاءٍ مُّجَابٍ.

فَتَنْبَهْ لَذَلِكَ!

وَعَامِلِ اللَّهِ بِالْأَدَبِ فِي الطَّلَبِ.

فَقَدْ قَالَ السَّلَفُ:

«إِذَا بَدَأَ الرَّجُلُ بِالثَّنَاءِ قَبْلَ الدُّعَاءِ، فَقَدْ وَجَبَ، وَإِذَا بَدَأَ بِالدُّعَاءِ قَبْلَ الثَّنَاءِ،

كَانَ عَلَى رَجَاءٍ».

وَلَا تَعْجَلْ!

فَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ، هُوَ الْإِلْحَاحُ عَلَى اللَّهِ.

رَبِّمَا تُثْقَلُنَا فَجِيعَتُنَا.

وَيُرْهِقُنَا الْخَوْفُ.

فَإِذَا فَاضَ لِسَانُكَ بِالطَّلَبِ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَعْطِيَكَ مَفَاتِيحَ الدَّهْشَةِ!

يُرِيدُ أَنْ يَسْكَبَ لَكَ الْإِجَابَةَ، كَيْ تَنْسَابَ فِي أَيَّامِكَ!



واخِرَضَ عَلَى دُعَاءِ الْفَرِيضَةِ، فَقَدْ قَالَ السَّلَفُ:

«اجْعَلُوا حَوَائِجَكُمْ اللَّاتِي تَهْمُكُمْ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ فِيهَا،

كَفَضْلِهَا عَلَى النَّافِلَةِ»!



الخطوة الثالثة والثلاثون

أنفق لله في سيرك إليه..
ويذ طابث بالنفقة لله،
استدحث أن تكون في يدها
يذ الله!



عَلَّمَنَا السَّلَفُ الصَّالِحُ: «أَنْ مُقِيمَ جَسَدِ الْفَقِيرِ بِأَسْبَابِ صَلَاتِهِ، مُشَارِكُ لَهُ

فِي ثَوَابِ صَلَاتِهِ»!

تلك هي الصَّدَقَةُ، إِذَا اخْتَلَطْتُ بِلَحْمِ الْفَقِيرِ وَأَعَانْتَهُ عَلَى رُكُوعٍ مُطْمَئِنٍّ.

وَلَقَدْ كَانَ (إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ) يَجْمَعُ الْفُقَرَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ: «تَعَبَّدُوا اللَّيْلَةَ مِنْ

رَمْضَانَ، وَأَنَا أَكْفِيكُمْ حَوَائِجَكُمْ».

رَغْبَةً مِنْهُ أَنْ يَنَالَ أَجَرَ صَلَاتِهِمْ، فَأَيُّ فَقْهِ سَلَفِي مُبَارِكٍ هَذَا؟!

وَتَأْمَلُ مَعِيَ، مَا قَدَرُ لُقْمَةٍ تُعْطِيهَا، إِذَا كَانَ الرَّبُّ يُرَبِّيهَا، فَيَرَاهَا صَاحِبُهَا

مِثْلَ جَبَلٍ أَحَدٍ، أَفَيَرْغَبُ عَنْ هَذَا الْخَيْرِ أَحَدٌ؟!

الْبَخِيلُ، مَاتَ وَذَهَبَ..

وَأَمَّا الْكَرِيمُ، فَعَاشَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِمَا وَهَبَ!

مَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مَنَعَ بِهِ غَنِي.

لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحَرَمَانَ أَقْلُ مِنْهُ.

إِنَّ اللَّقْمَةَ إِذَا أُكِلَتْ، صَارَتْ أَدَى فِي الْحُسِّ، وَإِذَا تَصَدَّقَتْ بِهَا، صَارَتْ

مَدَائِحَ عِنْدَ الْعَرْشِ!

هِيَاهُنَّ أَنْ يَسْمَنَ لَكَ الْمَدْحُ عِنْدَ اللَّهِ، حَتَّى يَهْزَلَ الْكِيسُ!

إِنَّ الصَّدَقَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ نَفْسٍ تَقِيٍّ، فَإِنَّهَا عَنْ مِثَّةِ السُّوءِ تَقِيٍّ!

أَمَّا سَمِعْتَ أَنَّ «صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ تَقِيٍّ مَصَارِعَ السُّوءِ»!

إِنَّ الصَّدَقَةَ سَرِيعَةُ الْخَلْفِ، وَهِيَ حَافِظَةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْخَلْفِ.

أَنْفَقَ، يُنْفَقْ عَلَيْكَ!

انْظُرْ وَتَنْبَهُ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ أَنَّ النِّعَمَ اتَّسَعَتْ، وَعَلَى الْمُنْفِقِ سَبِغَتْ وَوَفَّرَتْ!
أَلَمْ تَسْمَعْ، أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ «بِيَدِ السَّخِيِّ كُلَّمَا تَعَثَّرَ»؟
يَدٌ طَابَتْ بِالنَّفَقَةِ لِلَّهِ، فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ فِي يَدِهَا يَدُ اللَّهِ!

إِنَّ خَيْرَ الْأَعْمَالِ: «أَنْ تُدْخَلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ سُرُورًا»!
وَقَدْ قَالَهَا (عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي) حِينَ سَمِعَ هَذَا الْخَبَرَ: «فَتَشَتْ الْأَعْمَالُ
كُلَّهَا، فَمَا وَجَدْتُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ.. وَمِنْ يَوْمِهَا وَكَفَى لِلْخَيْرِ مَثْقُوبَةً».
وَقَالَهَا أَيْضًا (حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ): «إِذَا رَأَيْتُ بِفَنَائِي طَالِبَ حَاجَةٍ، حَمَدْتُ اللَّهَ
عَلَيْهِ!».
بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يُرَدِّدُ: «مَنْ أَصَابَهُ غُبَارُ طَحِينِي، فَقَدْ وَجَبَ اللَّيْلَةُ عَلَيَّ
شُكْرُهُ!».

أَتَدْرِي لِمَاذَا؟

لَأَنَّهُمْ فَقِهُوا قَوْلَ السَّلَفِ: «لَا تَنْهَرْ سَائِلًا، فَلَوْ عَرَفْتَ مَا يَحْمِلُ مِنَ الْبَرِّ لَكَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَحِمَلَتَهُ فِي فُؤَادِكَ»!
لَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَ السَّائِلَ رَسُولَ الْمَقَابِرِ!
وَكَانُوا يَوْضُونَ بَعْضَهُمْ بِالْقَوْلِ: «بَادِرُوا بِالصَّدَقَةِ الْمَوَارِيثَ، وَتَصَدَّقُوا
فِي السِّرِّ بِالْمَحْبُوبِ الْمَصُونِ، حَتَّى تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾»

لَوْ قَدَّمَ الْمَرْءُ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، لَنَفَعَهُ فِي رَمْسِهِ.
إِذِ الْجُنُونُ، أَلَا تَكُونُ مَمَّنْ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾!
لِذَا، كَانَ غَالِبُ دَعَاءِ السَّلَفِ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَا لَا وَفِعَالًا نَكْتَمِلُ بِهَا عِنْدَكَ»!
نَحْنُ مِثْلُ حَبَّةِ رَمَلٍ، مِثْلُ هَبَاءَةٍ، لَكِنَّا نَصْبِحُ رِبْوَةً تَنْسَابُ مِنْهَا مِيَاهُ
الْخُلُودِ، إِذَا أَطْلَقْنَا أَنْفُسَنَا بِالْعَطَاءِ!



في عام ألف وتسع مائة واثنى عشر كانت العراق أغنى دولة في المنطقة،
وكان يصفها الشعراء بأنها غابة لا تحُدُّ، وأنهار لا تُعدُّ!
كانت توصف بأرض السَّوادِ، لكثرة نخيلها وترباها المرويِّ، إذ في
البصرة وحدها، كان تعداد النخل ثلاثة عشر مليون نخلة!
وفيه ثلاث مائة وخمسون صنفاً من التمر، وكان يقال عن أهل العراق:
«قوم لا يجوعون»!

اليوم..

تعب نخيل العراق، وغاص حتى جاع أهله، وجاعت الأمة كلها من بعدهم!
منذ أن كُسِر نخيل العراق ونحن نكسر كل يوم.



هل تدري أن علماء الصومال، كانوا يوصون أهل الصومال بصرف زكاتهم
لأهل نجد.

هل تفهم ماذا أقصد؟ هل بلغك المعنى!

تدبّر واعلم أن النعمة تسأل حفظها!

إياك أن تشتري جوعك بوجع التبذير.

أنفق مالك لله، يُنفق عليك.

وكل نفقة في غير الحق، مثل الفخر والسُّمعة، فاعلم أن مالها نقص لا

يزنُّه أحد!

وإياك أن تضع مائدة فيها أيدي الشياطين، إذ المُبذِّرون إخوان الشياطين!

وأغلق على مالك بالصدقة.

وطهّر بيتك من التبذير.

أنصت إلى صوت التاريخ فينا.

أنصت إلى صوت الخيام حولك.

فإني أخشى على المُبذِرِينَ فجأة الطُوفانِ، واندفاعِ الرِّيحِ تَحْمِلُهُمْ إلى
حيثُ انكسارِ الفَرَحِ!
الصَّدَقَةُ لَكَ، والتَّبَذِيرُ عَلَيْكَ! فاصْنَعْ خَيْمَتَكَ مِنْ مَالِكَ، مِنْ حَيَّةِ الحِنْطَةِ.
وبادِرْ، قَبْلَ أَنْ يَهْبِطَ الجُوعُ عَلَيْكَ، فَيَطْحَنَكَ!



الخطوة الرَّابِعة والثلاثون

«أتعب قدميك، فإن تعباً،
قَدْماك»
وسار القوم على خُطاك!





﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، هذا الدُّعاء وأما بناء القدوة فيريد همة!
والهمة تسألك أن تغدق عرق الإرهاق وابلاً، فإذا بغرية الخطوات لمن
بعديك دليلاً شافياً.

عرق يبلغ بك، وينفق في غاية هي زكاة العمر!
وقد كان سرُّ الواصلين لو تنبَّهت، قلباً لا يشيخ، و«أمنية لا تنام».
أمنية تأبى أن تجعل عُمرَكَ سَطَرًا فارغًا.
تطوي لك عُمر الجفاف، وترى العزم خلفك بعدها لاهئاً!

«أُمْنِيَّة رِيَانَةٍ».

«أُمْنِيَّة رِيَانَةٍ» تَسْكُنكَ وَتَسْكُنُهَا، كَأَنَّكَ فِيهَا مِثْلُ الْإِمَامِ الْجَلِيلِ أَبُو بَكْرٍ
الْقَفَّالِ الصَّغِيرِ، شَيْخُ طَرِيقَةِ خَرَّاسَانَ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ «الْقَفَّالُ» لِأَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ
الْأَقْفَالَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ، وَبَرَعَ فِي صِنَاعَتِهَا، حَتَّى صَنَعَ قَفْلًا بِأَلَاتِهِ وَمِفْتَاحِهِ
وَزَنَ أَرْبَعَ حَبَاتٍ، فَلَمَّا كَانَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِكَاءً: فَأَقْبَلَ عَلَى
الْفَقْهِ، فَاشْتَغَلَ بِهِ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي زَيْدٍ وَغَيْرِهِ، وَصَارَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِيهِ،
وَتَفَقَّهَ عَلَيْهِ خَلْقٌ مِنْ أَهْلِ خَرَّاسَانَ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ، وَحَدَّثَ وَأَمْلَى فَقَالَ الذَّهَبِيُّ
مَعْلَقًا: «مَا هَذِهِ الْهَمَّةُ الْعَالِيَةُ!».

ذَاكَ رَجُلٌ، أَبَى أَنْ يَكُونَ عُمرُهُ سَرَابًا مِتْرَاكِمًا، فَكَانَتْ «أُمْنِيَّاتُهُ رُسُلُ
قُدْرَاتِهِ الْكَامِنَةِ»!

فَظَلَّ بِهَا مُشْتَغَلًا.

وَالسَّائِكُونَ عَلَى الْحَيَادِ دُونَ غَايَةٍ، الْعَالِقُونَ فِي الْعُسْرِ وَالْعِزِّ، لَا يَنْتَظِرُهُمْ وَقْتُ الْحَصَادِ.

أَلَا تَرَى الْخَطِيءَ الْهَزِيلَةَ مَمْسُوسَةً بِالْوَهْنِ، يَسْتَدْرِجُهَا الْقَعُودُ!
يَتَسَاقَطُونَ ضَعْفًا، فَقَدْ فَقَدُوا «مُبَرَّرَ الْوُجُودِ».

وَالْإِمَامَةُ هَمَّةٌ، تَرِيدُكَ وَتُرِيدُهَا.

عِنْدَمَا تَكُونُ مَعْنَاكَ وَمَعَاكَ، تُصْبِحُ الْحَيَاةُ مَدَى رُؤْيَاكَ.

ذَاكَ أَمْرٌ مَهْمَا غَالَبَتْهُ الرِّيَّاحُ، لَا يَتَرَجَّلُ.

أَمْسُهُ زَادَهُ، وَعَدَهُ يَقِينُ الْحُلْمِ!

هَآ هُوَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ، يَفْتَحُ الْمَغْرِبَ وَهُوَ فِي السَّبْعِينَ مِنْ عَمْرِهِ،
وَيَقُودُ جَيْشَ الْفَتْحِ لِلْأَنْدَلُسِ وَهُوَ عَلَى مَشَارِفِ الثَّمَانِينَ، وَلَمَّا قَالَ لَهُ عَسْكَرُهُ:
«إِلَى أَيْنَ تَرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ بِنَا؟ حَسَبْنَا مَا بِأَيْدِينَا» فَقَالَ: «لَوْ أَطْعَمْتُمُونِي، لَوَصَلْتُ
بَكُمْ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ!».

وَلَمَّا مُنَحَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَقَالِيدَ الْأَنْدَلُسِ قَالَ: «لَا أَرْجِعُ عَنْ قَصْدِي مَا لَمْ
أَنْتِهِ إِلَى هَذَا الْبَحْرِ الْمَحِيطِ فَأُخَوِّضَهُ بِفَرَسِي فَاتِحًا».

وَمَا سِوَاهُ، وَاقِفٌ عَلَى قَلْقٍ.

فَارِغٌ مِنْ أَمْنِيَّةٍ ثَقِيلَةٍ تَشُدُّ الْخَطِيءَ.

وَقْتُهُ سَرَابٌ، لَا مَاءَ فِيهِ يَنْهَمِرُ!

وَصَاحِبُ الْهَمَّةِ لَا يَسْتَسْلِمُ.

رُبَّمَا تُبْتَلَى بِـ (لَا) فِي طَرِيقِ أَمْنِيَاتِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَهَا، تَعَوَّذْ مِنَ الْاِسْتِسْلَامِ
لَهَا، وَتَعَوَّذْ مِنْ اِنتِصَارِ الْوَاقِعِ، وَرَدَّدْ:

﴿سَيَعْلَبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾.

تِلْكَ تَرْتِيلَةُ الثَّبَاتِ عَلَى الْأَمَلِ!

وَكَلَّمَا كَانَ السُّؤَالُ: كَيْفَ؟

اجعل الجواب: أنا!

كن أنت جواب المعجزة!

والإمامة والقيادة لا تصحّ دون اقرأ..

«تشير المعلومات إلى أن الذي يقرأ كتابًا واحدًا كل أسبوع لمدة عشر سنوات..

فإنه يقرأ 520 كتابًا!

فإن استمرّ كذلك عشرًا آخر كانت الحصيلة 1000 كتاب.

يرتفع بعدها الشخص ليصبح في مصافي الخبراء العالميين!

فإذا علمنا أنّ المعلومات تبلى كلّ عشرة أعوام، أدركنا صواب المقولة التالية: إنّ الذي لا يقرأ، شخص يسهل استغلاله وقيادته، إذ إنّ القراء هم القادة.

أخيرًا، فقط اقتطع كلّ يوم من مشاهدة وسائل التواصل ساعة للقراءة، ليكون مجموع ما قرأته في عام 365 ساعة!.

ربّما تحتاج إلى ذاكرة التاريخ، كي ترى من استفاقت أعمارهم بعد المّات.

انظر هذا العز بن عبد السلام، كان أيامًا تنهدم، ثمّ مضى بعد الأربعين للعلم، فإذا به نار تضطرم.

وكان الظنّ، أن يُطفئ شموعه وينتظر حتفه.

ويبقى بين ماضٍ لا يؤوب، وغدٍ أفلتته حَسرة التمني!

لكنّه استثمر ما بقي، فصار إمامًا، بل سلطان العلماء كلّهم!

شمّر، وقُلْ لنفسك: العمر كلّهُ أوانٌ للطلب.

(ابن زياد) بعد سبعين من عمره طلب، كأنّه في منتهى عمره كان منتهى

الأمل!

وأبو زكريّا الأنصاريّ، شارفَ الخمسين جاهلاً، ثم صار مُفتي الديار المصرية!

اجمع ما ضاع من عمرك، واجعله فيما بقي.
ذاك فقه الاستدراك.

وفقه الاستدراك أن «تنفقَ عمرك على عمرانك»!

فإن قيل لك:

«وَأَيْنَ مِنَ الْمُنَى دَرَكَ الْمُرَادِ؟»

قل له: «خُذِ الْعِبْرَ مِمَّنْ تَعْلَمُ وَسَادَ بَعْدَ الْكِبَرِ!»

فهذا الإمام التّابعيُّ الثّقّةُ صالح بن كيسان -رحمه الله- أثبت أصحاب الزّهريّ فيه بعد الإمام مالك -رحمهم الله- ابتداءً بالتعلّم وهو ابن سبعين سنة. والمفسّر الأديب الشّافعيّ سليم بن أيّوب الرّازي تفقّه بعد الأربعين من عمره، وكان يحاسب نفسه على الأوقات ولا يترك وقتاً يمضي من غير فائدة. وهذا العزّ بن عبد السّلام لم يهتمّ بالعلم إلّا على كبر فأقبل عليه، ورسخ فيه حتّى لقّبه تلميذه ابن دقيق العيد: سلطان العلماء!

الإمامة تريد همّة، والهمّة تريد أمانة ريانة!

فإن قلت: واقعنا لا يأذن لنا بالإمامة.

قلت لك:

ومن تشبّث بالمَشْهُود، أوغَلَ في النّقص!

ذاك عائقٌ، ما كان له من سُلطانٍ عليك.

ووعي الأسباب، لا يعني الاستسلام لها.

وإنّ الفارق بين ممارسة الأسباب وبين الانهيار تحت سُلطة الأسباب، مُنازعة الأقدار بالأقدار.

ولكنّك في وهن العجز مُرتَهَن.

وتخبط في فوضى الواقع بجهلك.



ولو كنت في العزم مُشْمَرًا، لكنت مُبصرًا!

فإن نذفت الجراح، فاعلم أن الجراح حطب توقدك!

ثم لا تهولنك نار في مسيرك.

فإن الجراح التي تشبُّ في الطريق، توقده!

الجراح حطب توقدك!

فأقبل على النار، وقل لقومك:

﴿إِنِّي عَآنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

عساك في غفلة الليل، تجد مِيقَاتِ جَذْوَةِ العرفان، ﴿فَلَمَّا أَتَلَهَا نُودِيَ﴾.

ولو علق الخطو في الدجى، ما بلغ!

وفقط، تتوارى أحلامنا إذا أسلمناها للضجر!

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ بَشِيرٍ الْغَنَوِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَتُفْتَحَنَّ

الْقُسْطُنْطِينِيَّةُ فَلَنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ» فتاقت نفس

محمد الثاني أن يكون (صاحب البشارة) فشمر لها.

أمنية جليلة ابتدأ بها عمره، وأنفق بقيته لأمنية ريانة!

لكن أمنية بلا عمل، وهم.

إنَّ أبدية المَقَامَاتِ وإمامة الأجيال، تحتاج إلى وقود لسفر طويل.

ها هي الحقيقة تضِيء لك في صوابها.

فلا تقف على حافة الانتظار، فينهار بك في ﴿جُرْفٍ هَارٍ﴾.

والتعب، خير من راحة في يأس، قالها أهل العلم.

وربَّ أمنية، أحلى من الظفر!

وكمال الحرية..

أن تختار نصك ولا تكون سطرًا في هوامش الآخر.

أن تكتب حلمك ولا تنتظر فائض أحلامهم.

أن تكتمل في نجاتك بيدك إذ ما جدوى كل الأيدي التي تلوح لك وأنت تغرق!

وربما في لحظة انزلاق أقدامنا في وحل الآخرين ندرك كم تأخرنا في تعلم المشي باتزان!

لا بأس حينها، لا بأس إذا ملكت اليقظة رغم الدمع المقهور.

لكن الألم إذا كان عمرك مشرعًا على كل النهايات المفتوحة التي تنتظر قفلاً من الجموع!

حتى كأنك على موعد مع تقويم لعمرك ممن لا يحفلون بتواريخ حضورك!

أرخِ العنان لخيّل جموح..

وسنة التفرد، أن تُشعّ بكامل وهجك أو تنحسر!

اعبر إلى سُنبله الحلم.

ولا تترجّل، قبل أن تصل إلى المُنتهى!



الخطوة الخامسة والثلاثون

إِيَّاكَ وَفَنِّ الْمُعَامَلَةِ
وَتَرْكُنْ إِلَى وَهْمِ (سُوف)،
وَتَتَقَنَّ فَنِّ الْمُعَامَلَةِ



وتظلُّ من صبحٍ إلى غسق تُغدق على نفسك أَعذارًا، وما تدري أَنَّ أَعذارك
سُقيا المقبرة!

ومن طال مقامه في سجن (سوف) فقد مسَّه الشَّيطان بنصب وعذاب!
وفُخَّ الشَّيطان يبتدئ من وهم التأجيل، إذ يوحى لك بأنَّك بادئُ غَدًا، وما
تدري أَنَّ مَنْ سرق يومك، فما أبقى لك الغدا.
وذاك فُخٌّ قاتلك، وأنت مقتوله!
فُخٌّ ينتهي بك إلى القيمة صفر.

وبين فقه «أدومها وإن قل»، وبين فُخَّ الشَّيطان بسوف وعسى، إمَّا انتكاسة
الاستسلام، وإمَّا أن تهزَّ جذع سَعيك، فيساقط عليك عُمرًا هو مجموع خُطاك!

وقد قال التَّابعيُّ خالد بن معدان:

«إذا فُتِحَ لأحدكم باب خير فليسرع إليه، فإنَّه لا يدري متى يغلق عنه».
هذا أبو الوفاء عليُّ بن عقيل الحنبليُّ بلغ في محافظته على الزَّمن مبلغًا
أثمر أكبر كتاب عُرف في الدُّنيا لعالم، وهو كتاب (الفنون) في ثمانمائة مجلد،
جمع فيه التَّفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وأصول التَّوحيد والنَّحو
واللُّغة والشَّعر والتَّاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه الَّتِي وقعت له،
وخواطره ونتائج فكره.

اعزم ولا تَوَجَّل، ولا تجعل عمرك إيقاعًا مُنقطِعًا، أو مُتقطِّعًا بالتَّسويق!
أو تجعله عبث الرِّيح كلِّما هبَّ حدثٌ، قُمتَ، وإذا انتهى، انحسرت صامتًا.
بل امنح وقتك أسراركَ، وأسرار ما خُلقت له! لا تجر عُمرَكَ فراغًا من عملٍ
عميق، وأعظم ما تنفق فيه الأعمار، علمٌ نافع.

فإذا هممت فقل:
يا أرض ابلعي شتاتك، ويا كلَّ الشواغل أقلعي!

دع سوف وعسى وغداً..

وابداً مهما كانت الشواغل.

ولقد اختبر أحدهم أن ينفذ يديه من ضجيج التواصل الاجتماعي، فأنجز خلال ستة أشهر قراءة تفسير الإمام الطبري وهو 24 مجلدًا!

وهذا والله ما عناه عبد الله بن داود الخريبي حين قال: «من أمكنَ الناس من كلِّ ما يريدون، أضروا بدينه وديناه».

وقُل:

إِنَّ التَّسْوِيفَ لِلْسَّابِقِينَ، مَهْلَكَةٌ.

والخطي الهائلة، عاقبتها مصائر مُبهِمَةٌ.

وغالب التسويف، جُرف هارٍ عاقبته ﴿فَأَنهَارَ بِهِ﴾!

وإنَّ بعض إغواء الشَّيْطَان أن يَصْرِفَكَ عن إتمام نصِّ العلوّ

فتراك تملك أن تكون في المقدّمة، فيبلغ الشَّيْطَان منك أن يبقيك في الهامش بأعذار التأجيل، فتنبّه!

وما يُبتلى السَّالِك، بمثل أن يكون جُلُّ همّه فضل غُبوق، وقد كان قادرًا أن يتضلّع!

حين عاد مالك بن نبي -المفكر الجزائريّ- إلى الجزائر بعد سنين قضاها في فرنسا قال -وقد آلمه حال المسلمين- كلمة بليغة: «إنَّ قومي اليوم أحوَج ما يحتاجون إلى دروس في الفاعليّة».

وتأتي الدُّرُاسات اليوم لتقول:

«إنَّ مسلم الشرق يعمل بربع طاقة إنسان الغرب»، وما أحسَّه مالك منذ أكثر من سبعين عامًا ما زلنا نحسُّ ألمه حتَّى اليوم، فالمسلم الفاعل بكلِّ طاقته راحلة قد رحلت.

وإن صناعة الرِّواحل اليوم أراها المهمة الأخطر لكلِّ إصلاح منشود.

وأنصت إلى العلَّامة بشار معروف يقول:

«كتبْتُ بيدي أكثر من (١٥٠) ألفَ صفحة، وعُمري الآن ٨٧ سنة، أصليَّ الفجر، فأظِلُّ إلى صلاة العصر أقرأ وأبحث، وفيما سبق من العمر، كُنْتُ لا أتوقَّف حتَّى العشاء!»

هذا والله عمر ملاء المدد.

دونك رجل ما أذن لسوف وعسى أن تنال من همَّة ماضية لا تتوقَّف!

فأعْتِق رقبَتك من حياة الرِّبْد، وارْتَبَاك المُشْتَتَات.

واجعل شعارَ هِمَّتِكَ ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾.

ولا تهْدِرْ عُمرك في ﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾.

بلْ دُعْ أَيَّامَكَ تَتَّقِدْ بك وبسعيِّ تراكميِّ، حتَّى إذا حُمِلْتَ على الأكتاف، فاحِمْكَ الأعمالَ آثارًا لا تنقطع!

يا هذا..

كم جاء الثَّوَابُ فوقف ببابك، فردَّه بَوَّاب (لعلَّ) الأمور تصفى.

أو (عسى) الحال يتحول.

أو (سوف) أَقْبِلْ إذا الهمُّ أدبر!

ذاك سجينُ المواجه.

وسجين المواجه، لا فِكَاكَ له!

ولو أنصَتَ لسمع: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

«وفي قاموس الكلمات المحرَّمة في عالم الغرب: كلمة: (لا أستطيع).

وكلمة: (إنَّه مستحيل).

وكلمة: (أريد أن أتوقَّف).

ولعله -فيما أظن- نوع من التَّدريب العقليِّ والبرمجة النَّفسِيَّة، لصناعة قدرة لا تحدُّها التَّحدِّيات، بل تستثيرها الصُّعوبات.

ولعلَّ مالك شركة فورد أراد هذا المعنى حين قال: «يا ليتني أحظى برجال ليس في عقولهم من المعلومات إلَّا كلمة: إنَّهم يستطيعون!».

يا هذا..

كُنْ مِنْ قَوْمٍ نور أعمالهم تسطَّع كالشمس، يخوضون في جبال النَّوَاب، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الثَّقَلَان، فما يطرقون تعجُّبًا، حتَّى يدخلوا الجنَّة، ثمَّ يغيبون في نعيم درجاتها!

فاحذر أن يكون الحال يوم البعث دمعَةً تتلوها حسرة، وحرزنا لا ينتهي، بل اجعل سَقْفَكَ دهشة القوم إذا رأوك راحلًا في سرب المعالي، وما مثلك أحد!

وكن مثل أحد السلف الصالح يتوسَّل: «الله أسأل أن يطوِّل مدتي، وأنال بالإِنعام ما في نِيَّتِي».

وَمَنْ كَانَ قَدْرُهُ أَنْ يَمْتَطِيَ الْهِمَم، فلا يجعل أَمْسُهُ مثل يومه، فذاك عَبْدٌ بِلَا غَد.

لذا، تَفَقَّدْ في دُجَى عجزك نفسك، فَإِنَّ المماطلة هروب العاجز واستمراء الرَّاحَةِ.

ثمَّ لملم السَّبْق واقتصد في نفقة الوقت، فَإِنَّ الغايات لا تَبْلُغُ إلَّا بِتراكم المراحل.

وقُل:

لا عاصِمَ لي إلَّا بارتقاء المَوْج!

ومهما هالك أمرٌ، فاركبه، ولا تماطل

فإنَّك بالغ مهما طال الأمد!

وانظر إلى الربيع بن سليمان -تلميذ الشافعي- كَانَ أَوَّلَ أمره بطيء الفهم، ولقد كرَّر الشافعيُّ عليه مسألة واحدة ٤٠ مرَّة فلم يفهم، فقام عن المجلس حياءً من الإمام، فدَعَاهُ الشافعيُّ في خُلُوة وكرَّر عليه حتَّى فهم. وقال له: يَا ربيع، لو أمكنني أن أطعمك العلم، لأطعمتك.

ثمَّ كان من بعد أعظم تلاميذه!

فحاصر غايتك بالمتابعة والاعتكاف والصَّبْر لا بالتأجيل، واصنع الفلك لبحرك واجتهد!

لا تقفْ ولو مرَّت بك السَّبع العجاف.

«يذكر الباحثون أنَّ 99% من أخطاء العباد، يقبع خلفها إحساس عميقُ بلوم الآخرين وظلم الزمان».

فإن كان هنا للنَّصِّ لازم المعنى فإنَّ 99% من فلاح العباد وراءه يقين أكيد..

أنَّك لست ضحية للأحداث، وأنَّ أرض الله واسعة فيها ﴿مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

إنَّ شكوى الزَّمان واحدة من آثامنا الاجتماعيَّة، وأسلوب في الهروب من مواجهة الحقائق.

بل هي اليوم عادة نفسية أن نلقي بكلِّ زلاتنا على أحدٍ ما، فتهدأ ضمائرنا، إذ إنَّنا مظلومون.. ومضطهدون، ولا نملك من أمرنا شيئاً!

فلا تكن كذلك..

بل اجعل غايتك، أن تكون منفرداً في ألفِ ألف!

هذا البخاري نسخ من رحلته صحيح البخاري، فكانت خطاه حُلماً لا ينبغي لأحد من بعده!

وما ينبغي لمن يملك خيراً أن يهدره..

بل كن للمرحلة منارتها.

ابداً وأرّخ متى أيقظك الحلم، وغاية مُستحيلة.

واتبع المُحال سبباً، واجعله حقيقة.

إذ كلُّ الحقائق بالأحلام، تبتدى!

هذا الطبري يستمطر غيمَ أمنية أن يكتب التفسير، فجعل العمر قرطاساً،
والسعي حبراً، وكان شعاره:
إنما هو صبر أيام قلائل.

فصنع لنا كتاباً كلُّ فصل فيه يستحق أن يكون عشرة تفاسير، كما قال
الأولون!

فرّد مثله:

تلك «أوقات عاجلة كأنّ مُضيّها
ومض البروقِ خَواطِفاً لَمَعَاتُهَا».

ولئن راودتك خطوتك على عقبك، فلا تنكص بسوف ولعل.
وانكر ابن حزم إذ نبذ الوزارة، وأقبل على العلوم الشرعية، حتّى نال من
ذلك ما لم ينله أحدٌ بالأندلس قبله!
رجل منح حياته معنى: (دقّة البوصلة).

فشدّ رحلك بحبل قلبك، عساه لا ينفلت.

فإنَّ العمق المشعَّ من نصيب الأحرار.

وما الثَّبات، إلَّا حرية القلب من قيود الملهيّات.

فلا تذرف آخرتك حرمانًا، وقد كنت من أهل السَّبق لولا (سوف ولعلَّ)!

واجعل نفسك في جواره..

واهْرُبْ إليه من عجز السَّير إلى فيض الأجر.

وإياك أن تعتادَ روحك الإدبار عن السَّبق، وتقنعَ بوهم القليل!

وما بين الوصال والغُربة عن الجوار، أن توقدَ لك من الهدى قَبَسًا يُنْجيك

من وخز الألم إذا انكشفت لك الحُجب!



الخطوة السادسة والثلاثون

هيبَةُ الآخِرَةِ لِمَن اَمْتَلَأَ جَدًّا
وَاجْتَهَادًا



﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ونحن وأعمالنا في المجرة، ذرة، وفي سحب الكون، قطرة.

لكن الصحف تتهجى:

صوت القلب في الطرقات.

وكل تنهيدة في صمت التعب.

وذاكرة الحزن..

وتكتب كل الجراح... فتزهر لك الآخرة، لأن ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه الآية كأنها معنى: أبق عينك على النهاية!

وفي الغرب يقولون: «أبق عينك على الجائزة»، وفي كليهما معنى العاقبة.

ولحكمة نفسيّة ظلّ القرآن يزيّن للمؤمنين تلك الخاتمة، لتظلّ الجهود

مستمرة والسعي دائماً.

إذ إنّ إحساس النفس البشريّة بمعنى المكافأة، يدفعها لمزيد من العمل،

وهو معنى: نوّد أن نظلّ له ذاكرين.

إنّ الله لن يضيع لنا مثاقيل الذر من عرقنا وتعبنا، إن كان لغاية مباركة،

«لكلّ نهاية مشرقة، بداية محرقة».

تكتب الملائكة عرق المناديل، والورع الخائف، والخطى الصامته، وزمناً
مكتظاً بالتسايح...

يفرُّ الأصمعيُّ من مكة إلى الطائف من الحرِّ، فرأى أعرابياً في الطريق،
فسأله: «أين تريد؟».

قال: «البلد المبارك، لأصوم فيه».

فقال: «ألا تخاف الحرَّ؟».

فردَّ الأعرابيُّ: «من الحرِّ أفرُّ!».

وقيل لأحدهم وقد طال وقوفه في سقيا الناس في الشمس: «طال وقوفك
في الشمس».

فردَّ: «ليطول وقوفي في الظلَّ!».

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ
صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا تكونُ هيبة الآخرة إلا لمن امتلأ جُداً واجتهاداً في السَّير لها.

فتنبَّت من جراك عساک لا تبلغها فارغاً، فيقال: «لا شيء هنا، لا شيء
سوى أوجاع الخطى وبوصلة تائهة!».

فاسمع منِّي هذه الوصايا واحفظها فهي وصايا السَّير في الطَّريق.
وأولاهها:

لا تدركُ التَّقوى إلا بمن تفقدها نبضاً نبضاً...

ثم..

وما يبدأ خيرك إلا من خيرك لنفسك، فخذ من نفسك لنفسك، فإنَّما أنت بين
ما مضى، وما الله على أعمالك قسى.

فتحرَّ من أملك ما يقوم به عذرک.

وخذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له.

وخذ ممّا في يدك لما بين يديك.

ثم بعد ذلك وقبل أن تكتب سطرًا أخيرًا في صحيفة عمرك، اعمل على خطّة فيها فطام نفسك.

فإن عارضك التيار، فاعتزل المجرى.

فإن شئت غابة الحسنات، فأياك وسقيا الهوى، فإنّها أوّل التّيه وآخر الضّلال وما بعدها إلّا البعد البعيد...

وأنبّهك أنّه من استوعب الحلال كلّّه، تاقت نفسه إلى الحرام.

وما بعد انقطاع اللذات إلّا بقاء التّبعات، فالأذى إلّا للظى حتّى ترى النّزوات، تُسلمك إلى الفلوات، فأنت في مهلكة الحسنات!

واحرص ألا تشاتم مسلمًا، فتلك لغة مآلها «وهل يُكبّ النّاس على وجوههم إلّا من حصائد ألسنتهم».

ولا تردّ سائلًا، وبعض الصّدقة ندى الكلام.

واشترِ سترك، بالصّمت عن أعراض النّاس، ما هتكت لمسلم سترًا.

واسأل الله أن يسلك سخيمة قلبك، فإنّها تقطع الرّحم وتمنع الألفة.

واعلم أنّ ما خصب الآخرة إلّا لمن خلصوا من سوس الأعمال، شدّوا مآزرهم دون فتن الدّنيا وما طاوعوها.

قد منعهم خوف المولى من الاحتطاب، فوقاهم عثراتها، وفي الآخرة حشد السّنابل!

من صدق، نجا، ومن أشفق على دينه من الرياء، سلم من الرّدى...

ثمّ اعمد إلى كرائم الحسنات، واجعلها لآخرتك غيائًا غيائًا.

ثُمَّ حَسَنَاتُ أَجُورِهَا لَا تَنْتَهِي:

أَلَّا تَخْذُلَ وَالِدَيْكَ.

وَلَا تَسْكِبَ الْحُزْنَ عَلَى بَسَاطِ قَلْبٍ.

وَوَاهِبِ الْأَمَلَ، أَجْرُهُ مَعَ النَّبِيِّينَ.

إِنَّ الْحَسَنَةَ الْمَقْبُولَةَ، تَتَّبِعُ أَقْصَى الدَّاءِ حَتَّى شِفَائِهِ، فَإِنَّكَ فِي الْآخِرَةِ وَارِدٌ
مَا وَرَدَتْ، فَإِنْ كَانَ سَعِيكَ فِي الْكُرْبِ الشَّدَادَ، كَانَ ذَاكَ لَكَ فِي الْمَعَادِ.
وَأِنْ كَانَتْ حَسَنَتُكَ فِي خِفَاءِ الْعَتَمَةِ، رَأَيْتَ الْأَجُورَ مُسْرَجَةً، وَكَنتَ فَوْقَ
النُّجُومِ الْعَوَاتِمِ...

وَاحْرَصْ أَنْ تُقْضَى الْحَوَائِجُ لِمَنْ قَضَاهَا، فَتَرَى الْأَجُورَ عَيْنًا خَرَّارَةً
بِالسَّلْسِيلِ الْبَارِدِ، قَدْ أَرْسَلَهَا صَاحِبُهَا مِنْ دُنْيَا خَوَّارَةٍ...

وَأَنْعَمِ النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ، مَنْ عَاشَ النَّاسُ مِنْ عَيْشِهِ، فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ تَرِدَ عَلَى
الْآخِرَةِ بِدُنْيَا بَطْعَمِ الْآخِرَةِ!

وَيَرْفَعُ فُلَانٌ لِلنَّظَرِ إِلَى اللَّهِ، فَقَدْ كَانَتْ عَيْنُهُ سَاهِرَةً وَالنَّاسُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ
نَائِمَةً.

وَقُرْبُ بَلَا بُعْدٍ، ثُمَّ الْقَوْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْخَفْضِ وَالرَّفْعَةِ عَلَى قَدَرِ مَا
أَبْقَوْا لَهُمْ ذِكْرًا.

وَيُؤْتَى بِأَقْوَامٍ كَانَ سَعِيهِمْ فِي الْخَالِفَةِ، فَقَدْ كَانُوا ضَجِيجًا بَلَا صَدَى،
وَكَانُوا فِي الْحَيَاةِ غَثَاءً، وَكَانُوا مَمَّنْ نُهِيَ، فَرَكِبَ!

وَمَنْ كَانَتْ حَسَنَتُهُ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ، ظَلَّ بَيْنَ وَبَيْنٍ.

يَفْتَحُ بَابًا وَيَغْلُقُ بَابًا، فَكَيْفَ لَهُ كِرَامَةُ فَتْحِ بَابٍ بَعْدَ ارْتِجَاجٍ؟

لكنني أنصحك:

إن فعلت الحسنة، فافرح بها واستقلها.
فإن فرحك، يغريك بغيرها، ويحميك من ريائها.

وإنك مصل، فصل صلاةً تُقبل منك.

يدنيك، فلا تكن ساهياً، فيقصيك!

وما هي إلا دقائق، تورثك العليا.

ودارِسْ قلبك، كما تُدارِسْ كتبك!

والنَّجاة في الاستغفار، واحذر من الاستطالة على النَّاس بالحسنات.

وَادِعْ، وَسَّعِ اللَّهُمَّ في أَيْامنا، كي ندرك عمل الآخرة، واجعلنا ممَّن يُؤْتَى به

في زمانه، فيُقال له: «خير طليعة الأمة أنت»، ومن استفرغ جهده، بلغ غايته.



الخطوة السابعة والثلاثون

﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾



﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

حينَ يتبدَّى العجزُ الإنسانيُّ كعُذْرٍ قاهرٍ، يأتي المَشهد القرآني جوابًا واضحًا لكلِّ قدرةٍ بشريَّة، تَسْتترُّ بالضعف، والظُّرف، وسوء الأحوال!
فها هي السيِّدة مريم -عليها السَّلام- يقدِّمها القرآن رمزًا، اجتمعت فيه كلُّ مظاهر الضَّعف البشريِّ!
فهي امرأةٌ وليست رجلاً.

وفي أشدِّ حالات ضَعفها الجَسدي، إذ إنَّها في مخاضها الأليم، وقد اشتدَّت عليها آلامُ الحدث القادم بكلِّ تداعياته وأحزانه، وأرهقت روحها مخاوف المَجْهول، ومرارة الآتي العنيف!

وحينَ احتاجت إلى العون، إذا برسالة السَّماء لها ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

وجذع النُّخلة، يحتاجُ في هُذِه إلى قوَّة عشرة رجال مُجتمعين، ومريم -عليها السَّلام- في أعمقِ نقاط ضَعفها، الجَسدي، والنَّفسي، والعَصبي.
إذ تثبت الدَّراسات أنَّ ألم الولادة يُوازي ألم كسر عشرين عظمة في الجَسد. وتوازي طَلقة واحدة في المَخاض، ضغط 25 رطلًا على عضلات الرحم.
ناهيك بالخوف الذي يجتاح قلب المرأة، ويستبيح رُوحها!
في هذه السُّويعات المَعْدودة من حياة المرأة، تتمنَّى الأمُّ الموت مرارًا، ولكنَّ مريم تمنَّته هنا لسبب إضافيٍّ، أشدَّ قسوةً وأعظم إيلامًا..

فقد كانت مريم ترى بعينها زكريَّا، وهو يجفل للمولود بين يديها!

وترى أمَّها التي نذرتُها لله، يُغشى عليها من هول الحادثة!

وترى علماء بني إسرائيل، وسدنة المَعبد، وهُم يُطأطئون رؤوسهم حياءً ووجلًا!

وترى نفسها، لا تملك دليلاً على أَنَّ الطِّفْلَ من رُوحِ الله!
في هذا السَّوْطِ، الَّذِي تَزِيغُ أَمَامَهُ الْأَلْبَابُ، وَتَنَاهِزُ لَهُ قُوى الرِّجَالِ،
وَيَتَدَاعَى فِيهِ الْأَلَمُ وَالْخَوْفُ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ..
وَالْأَلَمُ إِذَا رَافَقَهُ الْخَوْفُ، كَانَ لَهُ مُضَاعَفًا.

في هذا السَّوْطِ، يَقُولُ اللهُ لِمَرْيَمَ ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.
بجذعها!

يا لله، أَكَانَتْ تَمْلِكُ مَرْيَمُ أَنْ تَمْسَحَ دَمْعَهَا، حَتَّى تَقْدِرَ عَلَى هَزِّ النَّخْلَةِ وَجْذَعِهَا!
فَأَيُّ دَلَالَةٍ كُبِّرَى، تَحْمِلُ هَذِهِ الصُّورَةَ الْقِرْآنِيَّةُ؟
إِنَّ اللهَ يَعْلَمُنَا فِي الْقِرْآنِ:

أَنْتَ تَمْلِكُ طَاقَةَ مَدْخُورَةٍ، حَتَّى وَأَنْتِ فِي عُمُقِ ضَعْفِكَ!
تَمْلِكُ قُوَّةً شَبَهَ مَهْدُورَةٍ، وَأَنْتِ فِي الظَّرْفِ الْأَقْسَى مِنْ عُمْرِكَ!
أَنْتِ تَمْلِكُ مَا تَهْزُ بِهِ جِذْعَ النَّخْلَةِ، وَلَوْ كُنْتَ فِي كُلِّ صُورِ أَلَمِكَ!
لَقَدْ جَعَلَ اللهُ مِنْ مَرْيَمَ نَمُودَجًا، اجْتَمَعَتْ لَهُ كُلُّ أَسْبَابِ الْعَجْزِ.
فَكَانَ الْأَصْلُ، أَنْ نَرَى فِيهَا مَعْنَى الْاسْتِسْلَامِ، وَلَكِنْ صَوْتَ النِّدَاءِ أَذْهَلَنَا يَوْمَ
قَالَ لَهَا: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ﴾.

﴿وَهَزَى﴾، وَبَعْدَهَا: ﴿سَلَقْتُ عَلَيْكَ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.
﴿وَهَزَى﴾، بِمَا خَبَأَ اللهُ فِيْنَا مِنْ قُوَّةِ الْإِنْبِعَاطِ، وَقُوَّةِ الْمُقَاوِمَةِ، وَقُوَّةِ
التَّحْدِي، وَقُوَّةِ التَّخْطِئِ لِلْأَلَامِ!
وَحِينَهَا، تَسَاقُطُ عَلَيْكَ الْخَيْرُ جَنِيًّا!

وَصَدَقَ أَحَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَوْمَ قَالَ:
«لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَقَفَ أَمَامَ جَبَلٍ، فَعَزَمَ عَلَى إِزَالَتِهِ، لِإِزَالِهِ!».
هنا صهوة الكلمات تحملك من سفرٍ إلى سفرٍ حَتَّى يُنَادِيَ عَلَيْكَ: ﴿أَنْ
تَلِكُمْ الْجَنَّةَ أَوْ رَتِّمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.



لذا ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، وكن عبدًا جعل الأيام مطايا عمله، فإذا الفردوس مدائن سعيه، ينتقل بين حسنة وآية، وليل معناه في الفردوس نورًا. عبدٌ كان هو المستحيل الصَّعب.

﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ وسوف ترى كيف الله بك يرقى.
ومن رابط على الكتاب بيمينه، رأيت ذكره في الألواح مسطورًا.

فيا روعة الحقائق إذا بُعِثَ ما في القبور، وقيل للسَّابِقِينَ السَّابِقِينَ: «خذوا المدائن والخزائن والقصور»، وقفت دون ذلك وقد كان ذلك في المقدور! فلم أذنت للشَّيْطان أن يغتال أجرك؟

كان ابن سيرين نسيجًا وحده، كان أملك النَّاسَ لنفسه.
«رأيت الحسن في النَّوْمِ مقيدًا، ورأيت ابن سيرين مقيدًا في النَّوْمِ» رواه الخطيب البغدادي في تاريخه، وقال: «روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه عبَّرَ القيد في النَّوْمِ، ثباتًا في الدِّين».

عبادُ فرُّوا من وجه الفتن إلى وهج المنن، فنالوها.
يبتهلون إلى الله بالثَّبات على الدُّعاء، وأيدي الملائكة تنسج لهم ثياب العطاء...

فكُنْ على الخُطى عساک مَمَّنْ كُتِبَ له عوائد المزيد، واجعل أسبابك بالله متَّصلة.

وما بين الفناء والبقاء، قرار العبور، فاعبر إلى الله كمن عبروا...

ربَّما تشيب الخُطى في طريق الله، فإذا هي خلود لا ينفد في صحبة الله.
وما غدك إلَّا الباقي لك، فتمسَّك بالصَّبر، وليس كلُّ من تمنَّى أمسك.

وما في الموازين ينفد، إن لم تمدد الصَّحائف.
وكلُّ ثوب في سهرٍ مضنٍ لبسته، كان حُلل الآخرة.

﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ فكلُّ المقامات إليك تشير.
والعجز يتبعه الخذلان، فإيَّاك من عجز تقفل به خزائن الفضل، ويبلغك
﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.
﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾، تلك فريضة، فلا تبطئي بك قيود معاذيرك.

ومن تهيب الطوفان، حاشى له أن يكون في الذكر نوحًا!
ومن عجز عن رفع البيت، أنى له أن يكون في الأمة إبراهيم!
ومن استجاب لفتنة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ظلَّ يطفق على حسرات نقصه، وما
بعد الإهمال إلا الإهمال...

ومن ذاكرة التاريخ أنبّهك أن العدو لا يريد منك إلا العجز.
ف«حين دخل المستعمر الفرنسي الجزائر حرص على تشجيع كلِّ مظاهر
التَّصوُّف، ومظاهر التَّدِين الفرديّ». وفي وقفة سريعة يشير علماء الاجتماع إلى أنَّ التصوف في مظهره الفرديّ،
حالة من الانتحار البطيء لقدرات الفرد المسلم، وأسلوب في الانسحاب من
المجتمع إلى حالة انعزالية يرغب فيها المستعمر الذي يدرك أنَّ المسلم لن
يفادر هويته، لكنَّ المهم أن يفقد فاعليته... ومن ثمَّ موته وهو حيٌّ».

فلا تكن إذا نُودي يوم القيامة: أين المقبل؟
كنت أنت المدبر!

ف﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ وقل: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ فإنَّما الثَّناء يوم
القيامة بعد البلاء.

الخطوة الثامنة^{٤١} والثلاثون

اعثر على طمانينة الآخرة
عبر عيش منهجية السَّير!



اعثر على طمأنينة الآخرة عبر عيش منهجية السير!
حتَّى يقال:

عبدُ نجا من الفوضى، وفي نهاية نصّ الفتنة كان مستعلياً، بعيداً هناك.
لم يمسه سوء!

فقد كان يصغي للكلمات، وكانت ﴿أَقْرَأُ﴾ تصنع له الطّريق.

نجا، ولم يدركه سقوطُ منافٍ لمعنى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.
فكيف وكيف وكيف!

كيف رَوْضَ خطوه على احتمال الثّبات.
وكيف توهّج رغم اشتداد الحريق!

سأخبرك بخلاصة الطّريق كلّها:

أَوَّلًا:

من أخذ بلجام قلبه، نجا.
ومن رابط على الرُّشد، دنا، قبل أن يساق إلى الورْد المورود.
ذاك قلب عثر على طمأنينة الآخرة...

وتيه النّهاية، وجهٌ لتيه البداية!
وحينها، يا لطول السّعي، وخيبة الوصول!

فقل: نعوذ بالله من أنقراض النِّهايات.
يا ربُّ لا تجعل العمر خواءً، وأعنا أن نملك خريطة الطريق إليك...

ثانيًا:

أن تُدركَ أنَّ أوَّل ذلك، عزلةٌ عن ضوضاء الجهل حتَّى ترى!

فإنَّ من دنا من الله، رأى ما عاث الوراء به.
فاعمد إلى خلوةٍ تريك: الفراغ من وهم المعرفة إلى الامتلاء باليقين.

عُد قليلًا ورتَّب ذاتك، فليست انهزامًا العودة للوراء...

ثالثًا:

اغتنم المَهْل، فبادِر الأجل.

وادعُ دعاءَ الغريق، وما وجدتُ لمؤمن مثلاً إلا مثل رجلٍ على خشبة في البحر، وهو يقول: «يا ربُّ يا ربُّ»، لعلَّ الله أن ينجيه، تراه أقمر ليله وما تدري أنَّه بالدُّعاء أشعله!

رابعًا:

افقه قول عمر بن عبد العزيز: «وددت لو جعلتُ جُلَّ جهدي في ترك السيِّئات». وتأمَّل فهم السَّلف لوظيفة الفرائض كأعمدة البيت!

خامسًا:

اعرف ما هي النِّوافل، ثمَّ ما هي دوائر الممنوع، كأنَّ الكلَّ يدلك على البعض، فتدركه.

سادساً:

تعلّم أنّه عند التّزاحم، يُقدّم ما وجب بأصل الشّرع على ما أوجبه الإنسان على نفسه.

وعند التّزاحم، يُقدّم ما ليس له بدل من الأعمال على ما له بدل.
وعند التّزاحم، يُقدّم ما يمكن قضاؤه على ما لا يمكن قضاؤه...

سابعاً:

أن تفهم أنّه من فقه الفقه:

الأخذ بالأيسر في العبادات.

وبالأحوط في المعاملات.

وبالأصلح في الجنايات.

فحقُّ الله، مبنيٌّ على المُسامحة.

وحقُّ الخلق، على المُشاحّة.

وحقُّ المجتمع، على المصلحة العامّة.

وقد قيل: «إذا قام الدّليل، وضح المنهج والسّبيل».

ثامناً:

إن تداعى لك العلم، فثبّت أركانه بالتّقوى.

وقد قال الكشميريّ: «العلوم لا تكون حالاً إلّا عند استيلائها على القلب».

والتمكّن في علم يستهلك زمناً ومكابدةً ومعايشةً، حتّى ينتج حالاً.

والأحوال توسع حدود العلم، وحينها تبلغ صناعة «الحصانة النّفسية» وهي معنى التّقوى، أو سمّها: «الحساسية الإيمانية العالية للشّبهات والمكروهات والمحرمات».

وبهذا تُصنع معايير الثَّبات، إذ لا يقدر على مقام ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ إِلَّا من احتاط لهجمة المعصية.

يقول أحد السَّلف الصالح: «القلب المعمور بالتَّقوى إذا رَجَّح بمجرد رأيه، فهو ترجيح شرعيٌّ».

ومن أحبَّ أن تدوم له العافية في العمر، فليَتَّقِ الله...

تاسعًا:

والمسافة إلى ذلك كلُّه: بناء الفهم حتَّى تستقرَّ لك الموازين والثَّوابت، لذا قيل: «صاحب الكتاب، يغلب صاحب الكتب»، وذلك بأن تتنصَّف من «الكتاب» وترى أنَّ الفصول يمسك بعضها ببعض، ويطلب كلُّ فصل ما وراءه. ومن غدا على العلم وراح، نال من السُّرور ما به استراح، وما يعلم ذلك إِلَّا من ذاق.

وعاشرًا:

ما قَيَّدَت النَّفس بمثل زمام الصُّبر، فإن لم يكن للمطيَّة خطام، شردت في كلِّ ناحية ومذهب.

لا تكن عادة القلب الأسف، تلك عادة الضُّعفاء.

ذاك قلب عثر على طمأنينة الآخرة.

على عافية الصُّحف.

على معنى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.



الخطوة التاسعة والثلاثون

مكتبة سُر مَن قرأ

اخذمل نفسك إلى زمن الجنّارة



إِنْ رَأَيْتَ الشَّرَّ مُضْطَرَمًّا، وَالْقَلْبَ يَخُوضُ فِي مَاءٍ كَدِيرٍ، وَصَدَأَتْ رُوحَكَ،
وَرَأَيْتَ عَظْمَكَ وَاهِيًّا، وَكِدْتَ تَرِثِي قَلْبَكَ، فَاحْمِلِ نَفْسَكَ إِلَى زَمَنِ الْجَنَازَةِ، حَيْثُ
لَا يَبْقَى مِنْكَ إِلَّا مَعْنَاكَ!

وعلم نفسك معنى: (قبل أن أموت، before I die).

احمل نفسك إلى وقت الموت قبل أن تُحمل.

هذه فكرة أنجزتها كاندي تشانغ حيث وضعت بجانب جدار مجهول
طبشورة وكتبت على الجدار عبارة: «قبل أن أموت أريد أن...».

كان المارة يتوقفون ثم يحملون الطبشورة ويكتبون عبارة قصيرة، مثل:
أريد أن أمسك يد أمي، أريد أن أزرع شجرة، أريد أن أعيش، أريد أن أفعل
كذا...

فما هو الموت؟

الموت: هو الذي يجعل كل ساعة في حياتنا ذات قيمة ثمينة إلى حد مذهل.
هو الذي يعيد ترتيب أولوياتنا، هو قنديل الحقيقة الذي يضيء لنا قيمة
أنك لا تحتضر!

وأن بإمكانك أن تتخذ قرارًا وتنفذه، أن بمقدورك أن تستمتع بكل الأشياء
التي كنت لا تراها مهمة، أنك لا تتمنى الأمس، لأن كل ليلة تقربك من النهاية!

نحن نخطئ حين نحسب أن الموت ما زال أمامنا!

إذ إن جزءًا كبيرًا من الموت صار خلفنا!

فكل ما ينتسب إلى الماضي يدخل في دائرة الموت.

أعطني رجلاً واحداً يستطيع أن يثمن الوقت..

يعطي الوقت قيمته الحقيقية..

ويفهم أنه يموت كل يوم!

قليل من يفهمون ذلك.

لذا احمل نفسك إلى زمن الجنازة..

في زمن أنت وحدك قريب من الآخرة، والروح خطوتك الأخيرة.

وما سوف تراه، لن يكون سوى سواك!

ها أنت قريب من الآخرة، والصوت يفيض تهيووا عما قليل يستقر الموطى.

قريب من الآخرة، والقلب في وجل والملاح منهكة!

وأنت معنى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨١﴾ وَنَحْنُ

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

فأنت وحدك الباكي، وأنت من حزنت، تلتفت خلفك، فإذا دُنياك في ميزان

غيرك!

فإذا دُنياك ميراث..

وقد قيل: «مصيبتان للمرء في ماله عند موته لم يسمع الأولون والآخرين

بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله».

وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقُرْبُ مِنَ التُّرَابِ، رَأَيْتَ جَزَاكَ وَكُلَّ مَا عَمِلْتَ.

وَمَا اتَّخَذْتَ لِخَاصَّةِ خَلَوَاتِكَ، وَمَا كَانَ فِي خَفِيِّ الْحَوَاشِي.

رأيت كل ذلك فتفهم، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى

يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾.

وتكاد تُسمع: اخلع دُنياك إنك على مشارف الآخرة!

وتكاد تنطق: ﴿يَحْسَرَتْنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ • أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ •

فاسأل نفسك إذا انطوى بساطك:

أَكُنْتُ فِي سَعْيِكَ تَفَرُّ مِنْ صَفَحَاتِ الْهَبَاءِ، إِلَى صَفَحَاتِ الْبَقَاءِ!
وَمَا تَتَّسِعُ الْآخِرَةَ، إِلَّا لِمَنِ اتَّسَعَ فِي طَلَبِ الْمُنتَهَى!
فَادْكُرْ جَنَازَةَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، إِذْ تَخْرُجُ بَغْدَادَ كُلُّهَا لَهَا، فَقَدْ كَانَ مَوْتُهُ
سَعَةَ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَيْقَنَ أَنَّ الدُّنْيَا غَمْرَةٌ، ثُمَّ تَنْجَلِي!

وَيُنَادِي عَلَى النَّاسِ فِي أَقْصَى الصُّينِ:

«الصَّلَاةِ عَلَى تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ».

ذَاكَ قَلْبٌ، شَاءَ الْعُمَرُ مَدَدًا، وَسِوَاهُ كَانَ حَشْدُ الصَّدَى!

تلك خَوَاتِيمُ السَّابِقِينَ، ينادي عليهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي

فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ •

وَمَا يَقْدِرُ عَلَى الرُّمِي مِنْ قَوْسِ الْجَلَالِ، إِلَّا مَنْ أَتَقَنَ صُعودَ الْجِبَالِ.

أُولَئِكَ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ •

واحذر غفلة السُّبَّاق

فَإِنْ شَكَّتِ الْأَفْدَامُ شَوْكَ الطَّرِيقِ فِي الثُّبَاتِ عَلَى الصَّوَابِ، فَقُلْ لَهَا:

قِيلُولَةُ الْأَفْدَامِ مَا تَكُونُ إِلَّا فِي غَفْلَةٍ مِنَ السُّبْقِ!

سمعت يحيى بن معاذ يقول: «من الدنيا لا ندرك آمالنا، وللآخرة لا نقدم أعمالنا، وفي القيامة غدا لا ندري ما حالنا».

وإنَّ المُنَايَا قَاطَعَاتٌ لِلْأَعْمَالِ، وَإِنَّ اللَّيَالِيَ مَدَنِيَّاتٌ لِلْأَجْيَالِ.

إِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَحُلُولِ رَمْسِهِ، يَرَى جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ، وَقِلَّةَ غِنَاءِ مَا خَلَّفَ. وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ أَوْ مِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ.

وَكُلَّمَا رَأَيْتَ عَزَمَكَ وَاهِيًا، وَكِدْتَ تَرِثِي قَلْبَكَ، فَاحْمِلْ نَفْسَكَ إِلَى زَمَنِ الْجَنَازَةِ، وَانْظُرْ كَمَ إِلَى الْآخِرَةِ قَدْ أُرْسِلْتَ، وَرَتِّلْ عَلَى عَمْرِكَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

كم أرسلت، يا للسؤال ويا لفجأة الحقيقة!

فإن كنت ناضب الزاد!

فقل لنفسك:

أهذا ما كنت تشاء؟!

عابر لا يحمل في كفيه للآخرة ما يكفي!

ولن يصل إليك هناك إلا ما قد وصل!

قل لنفسك: ما لا يأتي معك، لن يكون مرفأك.

فدعه وراءك!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ① وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ② وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ③﴾.

وقد قال التابعي الكبير يحيى: «قد دعاك إلى دار السَّلام فانظر من أين تجيبه، أَمِن الدُّنيا أَم من قبرك؟ إِنَّكَ إِن أَجَبْتَهُ من دُنْيَاكَ دَخَلْتَهَا، وَإِن أَجَبْتَهُ من قَبْرِكَ مُنَعْتَهَا».

فَرَدَّدَ: «وَالسَّعْيُ الْيَوْمَ مَخْضُ شَهَادَةِ غَدًا».
فَلَا تَذْهَبْ إِلَيْهِ وَالْقَلْبُ هَرِمَ «طَاعَنُ فِي التَّفَلُّتِ»!

ويروي الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي الرَّيْحَانِ الْبَيْرُونِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَهُوَ فِي لِحَظَاتِ حَيَاتِهِ الْأَخِيرَةِ، وَقَدْ حَشَرَجَتْ نَفْسُهُ، وَكَادَتْ أَنْ تَخْرُجَ، فَقَالَ الْبَيْرُونِيُّ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ حَالَاتِ الْاِحْتِضَارِ: «كَيْفَ قُلْتُ لِي يَوْمًا فِي مَسْأَلَةِ الْجَدَّاتِ الَّتِي تَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْأُمِّ؟!» يَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْمِيرَاثِ! فَيَقُولُ الْفَقِيه أَبُو الْحَسَنِ: «فَقُلْتُ لَهُ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ: أَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ؟» قَالَ لِي: «يَا هَذَا، أُودِّعُ الدُّنْيَا وَأَنَا عَالِمٌ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، أَلَا يَكُونُ خَيْرًا لِي مِنْ أَنْ أَخْلِيَهَا وَأَنَا جَاهِلٌ بِهَا!».

فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْفَقِيه أَبُو الْحَسَنِ شَرْحَ الْمَسْأَلَةِ وَعَلَّمَهُ وَحَفَّظَهُ، ثُمَّ قَالَ: «وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَا فِي الطَّرِيقِ سَمِعْتُ الصَّرَاحَ».

إِي وَاللَّهِ إِنَّ السَّعْيَ الْيَوْمَ مَخْضُ شَهَادَةِ غَدًا!
فَلَا تَذْهَبْ إِلَيْهِ وَالْقَلْبُ هَرِمَ «طَاعَنُ فِي التَّفَلُّتِ»!

وَمَا أَقْسَى فِي زَمَنِ الْخَتَامِ، اِحْتِضَارَ مَا تَبَقِيَ مِنَ الْحَيَاةِ، وَنَدَمَ لَا يَقْدَمُ وَلَا يُؤْخَرُ!

وقد أسمعك الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَلِيلَةٌ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُؤَقِّونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

لذا جَهِّزْ أَجُوبَةَ الْقِيَامَةِ..
 جَهِّزْ مِنَ الْآنَ أَجُوبَةَ الْقِيَامَةِ..
 فَإِنَّ لِلْفَرَائِضِ أَسْئَلَةً..
 إِنْ كُنْتَ زَوْجًا، أَوْ أُمًّا، أَوْ رَاعِيًّا!
 ثُمَّ انْتَبِهْ لِأُصُولِ بِنَائِكَ..
 وَفَتَّشْ، هَلِ الْقَوَاعِدُ رَاسِخَةٌ!
 رَبِّمَا يَفْجُوكَ الْمَعْنَى..
 لَكِنَّهُ يَحْفَظُكَ مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ السَّطْرِ فَارِغًا، أَوْ يَكُونَ عُمرُكَ جَدَائِلَ،
 تَنْقُصُ غَزْلَهَا أَنْكَائًا!
 فَأَوْقِفْ مُوَكِّبَ السَّعْيِ، إِنْ كَانَ الْمَوْجُ كُلُّهُ زَبَدًا..
 وَتَعَقَّبْ مَا يَنْقُصُكَ وَمَا يَنْقُصُكَ!

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَاشِرَ عَشْرَةٍ
 فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحْزَمُ النَّاسِ؟ قَالَ:
 أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَكْثَرُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ، ذَهَبُوا بِشَرَفِ
 الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ».

تَشَبُّثٌ بِسِلْسِلَةِ الْوَصْلِ
 وَمَنْ أَرَادَ نَوَاصِي الْقَاصِي مِنْ مَقَامَاتِ الْآخِرَةِ، فَلْيُحْسِنْ وَصْلَ بَاطِنِهِ
 بِبَاطِنِ نَبِيِّهِ، وَظَاهِرِهِ بِظَاهِرِهِ..
 وَتِلْكَ سِلْسِلَةُ الْوَصْلِ..
 وَمَنْ تَرَكَهَا، غَوَى، ثُمَّ هَوَى وَمَا اهْتَدَى!
 وَالْمَنْهَجُ..
 أَنْ نَتَّبِعَ الْخَطْوَ..
 فَاقْرَأْ سُنَنَهُ وَأَدَابَهُ وَهَدْيَهُ وَعَلَى مَاذَا عَاشَ وَمَاتَ!



ثُمَّ فَتَّشْ أَصُولَكَ، فَإِنَّ الْأُصُولَ مُقَدِّمَةٌ عَلَى الْفُرُوعِ.

فَلَا يَقْبَلُ بِرٌّ بِصَدِيقٍ مَعَهُ عُقُوقٌ.

وَلَا تُقْبَلُ نَافِلَةٌ، ضُيِّعَتْ فَرِيضَتُهَا.

وَلَا تَصْلُحُ دَعْوَةٌ، لَا تُبْنَى عَلَى بَصِيرَةِ الْعِلْمِ.

فَتَعْلَمُ كَيْفَ تَسِيرُ إِلَيْهِ!

وَمَنْ صَبَّ وَابِلُ جَهْدِهِ فِي الْأُصُولِ، أَزْهَرَتْ لَهُ الْفُرُوعُ.

وَمَنْ ضَيَّعَ الْأُصُولَ، حَرَّمَ الْوُصُولَ!

فَإِنْ سَوَّفَ لَكَ الشَّيْطَانُ وَقَالَ: ضَرُورَاتٌ وَتَنْتَهِي، فَتِلْكَ شُبْهَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ

تُرِيكَ الْوَهْمَ إِنْجَازًا، وَالطَّارِئَ ضَرُورِيًّا، وَالْمُتَأَخِّرَ أَهْمَ مَا يَقْدَمُ، وَتُبْعِثْكَ عَصْفًا

يَابِسًا، وَتَبْقِيكَ فِي دَوَّامَةِ الْآنِ!

فَإِنْ اشْتَدَّ إِيقَاعُ الْغَفْلَةِ، فَادْكُرْ لَيْلَةَ الْقَبْرِ.

ادْكُرْ إِذْ أَنْتَ فِي صَمْتِ الْجَنَازَةِ تَذْرِفُ الْحَسْرَةَ فِي أَكْفَانِ التَّمَنِّيِّ، تَسْتَشْفِ

الْغَيْبَ، وَتَلْمَحُ خَلْقَكَ مَا تَرَكْتَ!

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

رَبِّمَا تَصِيحُ، أَوَاهُ كَيْفَ مَضَى الْعُمْرُ فِي فَوْضَى الْمَتَاهَةِ!

وَحِينَهَا يَا طُولَ الْمَسَافَاتِ عَنِ الْحَسَنَاتِ!

وَيَا وَجَعَ السُّؤَالِ!

لِذَا «انْظُرْ كُلَّ عَمَلٍ كَرِهْتَ الْمَوْتَ لِأَجَلِهِ، فَاتْرُكْهُ، وَلَا يَضُرُّكَ مَتَى مِتَّ».

فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي الْقَبْرِ قُلْ لِي بِرَبِّكَ..

أَيُّ أَمْرِكَ تَشْتَهِي، إِذْ يَنْفَضُونَ ثِيَابَهُمْ وَيَغَادِرُونَ!

وَأَنْتَ وَحْدَكَ فِي لَيْلَةِ الْقَبْرِ، لَيْلَةٍ تَكْشِفُ مَسْتُورَ الدُّجَى، وَمَا بَسَطَتْ إِلَيْهِ

خَطَاكَ، وَمَا تَسَرَّبَ مِنْ شَهَوَاتِ بَيْنِ يَدَيْكَ!

يَسْتَدُّ مِلْحَ الدَّمْعِ فِي انْتِظَارِ سُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ.

يُسْمَعُ صَوْتُ جَلِيلٍ: يَسْأَلُونَكَ، كَمْ صَنَمًا حَطَّمْتَ فِي خَلَوَاتِ الْعُمْرِ؟

يُفْتَشُّ الْقَلْبَ فِي صَحِيفَتِهِ، عَسَاهُ يَجِدُ لِيَمِينِهِ: ﴿فَرَاغٌ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾.
 أَوْ عَسَاهُ يَلْقَى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، يَحَاجُّ بِهَا عَنْ شَبَابِهِ، يُفْتَشُّ عَنْ جَوَابِ!
 فَيَا عَثْرَةَ الصُّحُفِ فِي سَعْيِ الذَّرَائِعِ!
 وَيَا يَأْسَ الْمُنَادَاةِ إِذَا هَوَى الْمَبْنَى، وَبَانَ الْمَعْنَى، وَمَضَى زُخْرُفُ الْمَتَاعِ!
 وَاللَّهِ بَعْدَهَا يَسْأَلُ عَمَّا كَانَ فِي سَهْلِكَ وَجَبْلِكَ، وَبَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَهَلْ كُنْتُ
 تُفَيْضُ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ!
 أَكُنْتُ تُعْطِي اللَّهَ أَفْضَلَ الْمَوَاقِيتِ، أَمْ مَا فَضَلَ مِنْ يَوْمِكَ؟
 وَكَمْ عُقْدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ، مَعْقُودَةٌ غَيْرَ مَنْكُوتَةٍ؟
 هُنَاكَ..
 تَفْهَمُ مَعْنَى: «وَمَنْ أَسَاءَ سَمْعًا، أَسَاءَ إِجَابَةً»!
 سُبْحَانَهُ هُوَ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

غادر لهاث الزينة
 غادر لهاث الزينة، إِلَى سَكِينَةِ الْإِنْصَاتِ.
 وَاحْمِلْ نَفْسَكَ إِلَى هُنَاكَ!
 «فَإِنْ كُنْتَ وَاسِعَ الْعَيْشِ، ضَيِّقْهُ عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ ضَيِّقَ الْعَيْشِ، وَسَّعْهُ
 عَلَيْكَ».
 وَقَدْ قِيلَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، إِلَّا كَفَاهُ الْيَسِيرُ وَقَلَّ حَسَدُهُ»،
 عَلَى زِينَةِ فَانِيَةٍ!

وأكثر من الدُّعاء
 إِذَا عَثَرْتَ عَلَى الطَّيِّبِ فِي قَلْبِكَ، فَاخْفُضْ جَنَاحَ الدُّلِّ اتِّبَاعًا، وَقُلْ:
 يَا رَبُّ طَهَّرْ!

وَإِذَا رَأَيْتَ بِسَاطِ الْوَصْلِ خُيُوطَهُ مَنْسُولَةً، فَاسْتَمْسِكْ وَتَمَسَّكْ، وَقُلْ:
يَا رَبُّ وَصِّلَا!

وَإِذَا تَعَثَّرَ الْإِقْبَالُ، فَقُلْ:

يَا رَبُّ أَفْلَسْتُ إِلَّا مِنْ الْأَثَامِ!

سبحانه إن وضع عليك عدله، لم تبق لك حسنة، وإن أنالك فضله، لم تبق لك سيئة.

فَإِنْ اشْتَدَّ إِدْبَارُكَ، فَاحْمِلْ نَفْسَكَ إِلَى زَمَنِ الْجَنَازَةِ.
وَقُلْ:

يَا رَبُّ عَوْنُكَ!

إِنَّ التَّوْفِيقَ مَقْرُونٌ بِالرِّضَا مِنْكَ!

انظر حال السلف الصالح مع الجنائز كيف كان..

هذا أبو هريرة -رضي الله عنه- كان إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها:
«امضوا، فإننا على الأثر».

وكان الأعمش يقول: «كنّا نشهد الجنائز، ولا نعرف مَنْ يُعْزِّي، لأنَّ الحزن
قد عمَّ الناس كلَّهم».

وكان ثابت البناني يقول: «كنّا نشهد الجنائز، فلا نرى إلا متقنّعا باكياً».

والله إنَّ الإكثار من ذكر هادم اللذات..

يعيد ترتيب أوراقنا، ويبقينا في زمن الحقائق.

وقد قالها علي -رضي الله عنه-: «بَادِرُوا الْمَوْتَ، وَغَمَرَاتِهِ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ
حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ، فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ».

فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ!

فقل: يا ربُّ، ارحم العبد العاصي ذا القلب القاسي، اللَّهُمَّ أَقِلْ الْعَثْرَةَ وَاغْفِرِ

الرَّذْلَةَ، وَجُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى مَنْ لَمْ يَرْجُ غَيْرَكَ وَلَا وَثِقَ بِأَحَدٍ سِوَاكَ.

الخطوة الأربعون

اجعل غمرك شقيا الآخرة



عبدُ كان عمرُه سقايةَ الآخرة..
 فإذا بلغ أرضَ المحشر نودي.
 «طالبُ كان عمره في إثر طلبته..
 ذاك عبدُ جعل لنفسه خطامًا وزمَامًا، فقادها بخطامها وعطفها بزمَامها».

عبدُ كان يرعى دينه، فاللهُ يرعاه..
 قد تزوّد الدنيا، وهو ذاهب إلى الآخرة.
 وله في العروق الصّالحات نبض يشهد، فخلّوا بينه وبين الجنّة!

ولا يحسن عمارة الآخرة، من لم يحسن عمارة الدّار الأولى.
 فكلُّ خطوة هنا، صدى أجراها هناك.
 ازرع فسيلة، يأكل منها طير وتحصد أنت سنابل الخير في دار الجزاء.
 واخلع شتاتك.
 وما يُحسن ذاك القرب إلّا الأبعد عن الدُّنيا حبًّا، وما سواه في غمرات الدُّنيا
 بين سالب ومسلوب، تراه واسع الدُّنيا وهو ضيق الآخرة!
 لذا احمل نفسك إلى صوت الآخرة، وافهم أنّ الآمال ممدودة والأنفاس
 معدودة.

وتتطاول الأيام حتّى يغدو الثَّقب، ثلّمة لا تُسدُّ، وفراغًا مشوّهًا.
 ويمضي عمرك وقد رأى كثيرًا، واستحسن كثيرًا.

ولا تكن ممن ينادى عليه: «يا عبدي ما ضرك لو اكتملت، وعلمي فيك أنك تكتمل!».

وظمأ الصّحائف، لا ترويه يدُ فارغة من كأسها.
كأس نأى عنها الكوثر!

وظمأ الصّحائف، ماؤه لا يسلف، فاغبق من دنياك لآخرتك، فإنّ الخطى لا
تعود فيما طوي من الطُّرق.
وما يُقتنص اليوم، لا يوهب غداً.

خُذ من العمر ما يكفي ليوم الحشر، إنّ اليوم: أسئلة الغد الآتي، وفراغ
في عافية مكيدة.
وأقصى الرّحيل، رحيل من في خطوهم قلق...

لا تكن هاء الهزيمة، وقابل الله بعمر لم يرتهن.
كُن فرداً بالأجر محتشداً، ولا يكن عمرك ختاماً قبل مواعده وموتاً قبل ميقاته.

وأشدُّ البؤس أن تنأى عن أعتاب الآخرة، أن تكون ملء عناقيدك ولا تقطف.
أضئ قنديل قلبك برسائل الوحي الأخيرة، واقبض من طينك تُربة الفردوس الأعلى.
وهيئ متكاً من سعيك، فالعمر رهان من سبقوا.
وافهم القرآن وهو يقول: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فإذا الطُّرق
سجّلات وفيّة وافية.

هذه الذّرة العالقة في غبار الشّمس، ستحدّث بأخبارها!
وفي القيامة سترى الكتبان الرّمليّة، السُّهوب الصّفراء، واللّيل الصّامت
كيف يصبح تأريخاً لكلّ شيء، يا لبؤس الصّحف حينها...

يا هذا إنَّ العمر لا يتَّسع للإنجاز وأضيق من المراد، فافهم كيف تحياه.

وضوح الغايات، تنفي عنك ارتباك الخطى..

اقبض على الثُّبات، يُحمد سراك، وبدلاء السَّعي، تظل الغايات باسقةً بما تسقيها.

وإيَّاك أن تخطط ثوب أمنية بليت ولو..

تضيء لك الحقيقة في صوابها: إنَّ روحك في غاشية من ظلماتها.

وقد قيل: «إذا قام الدَّليل، وضح المنهج والسَّبيل».

فاستمع لصوتك الدَّاخلي، وأنصت له بشدَّة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لا تكن على أحد كلاً، فإنَّك تزداد ذُلًّا.

واضرب في الأرض عودًا وبدءًا.

ولا تأسف لمال كان فذهب، ولا تعجز عن الطَّلَب لوَصِب ولا نصب.

املاً البئر في داخلك، لمصلحتك، وابذل قصارى جهدك..

اتَّخذ قرارًا وانظر إلى حياتك، والموازن تشهد لك.

قد كان عمره سقاية الآخرة!

وبين البسمة في أوَّل المعنى، وبين الخاتمة، أن تتعلَّم مناهج العروج.

فاعبر إلى سنبلة الحلم.

وبماء قلبك، تظلُّ باسقةً بما تسقيها.

وكلاً تساميت عن أغلال متاعها، رأيت لافئات الطَّريق.

مَنْهَجِيَّةُ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ

كتاب منهجية السير إلى الله تعالى هو محاولة للإجابة عن

سؤال: هل نحن على الصراط المستقيم؟

ومن أين نبتدئ المسير؟ وما غاية التدئين؟

لماذا نبقى عالقين في الوعود لله.. ثم نكثها على حين غفلة؟

ولماذا تتشابه علينا السُّبُل ونفلُّ في ارتباك الحائرين؟

لماذا لا نمتلك لحظة الصَّواب للبَّء؟

هل عجزنا عن استلال خيوط البداية؟

وكيف نستلهم أسباب الثَّبات، وخطوات الوصول؟

وكيف نبدأ هذا السَّفر إلى الآخرة: قبل أن نكون ممَّن تاهت به

الطُّرُق!

لقد وُلد هذا الكتاب كمحاولة لكتابة مدونة في السلوك.. وخُطَّة

طريق في السفر للآخرة.. وخُطى موسومة في رحلة السائر نحو

الله تبارك وتعالى.

أملت فيه أن يكون دليلاً تربوياً للأجيال..

وخريطة الطريق.

إصدارات أخرى للكاتب



غلاف: محمود هشام

مكتبة

t.me/soramnqraa



aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb